التدبر والبيان

في

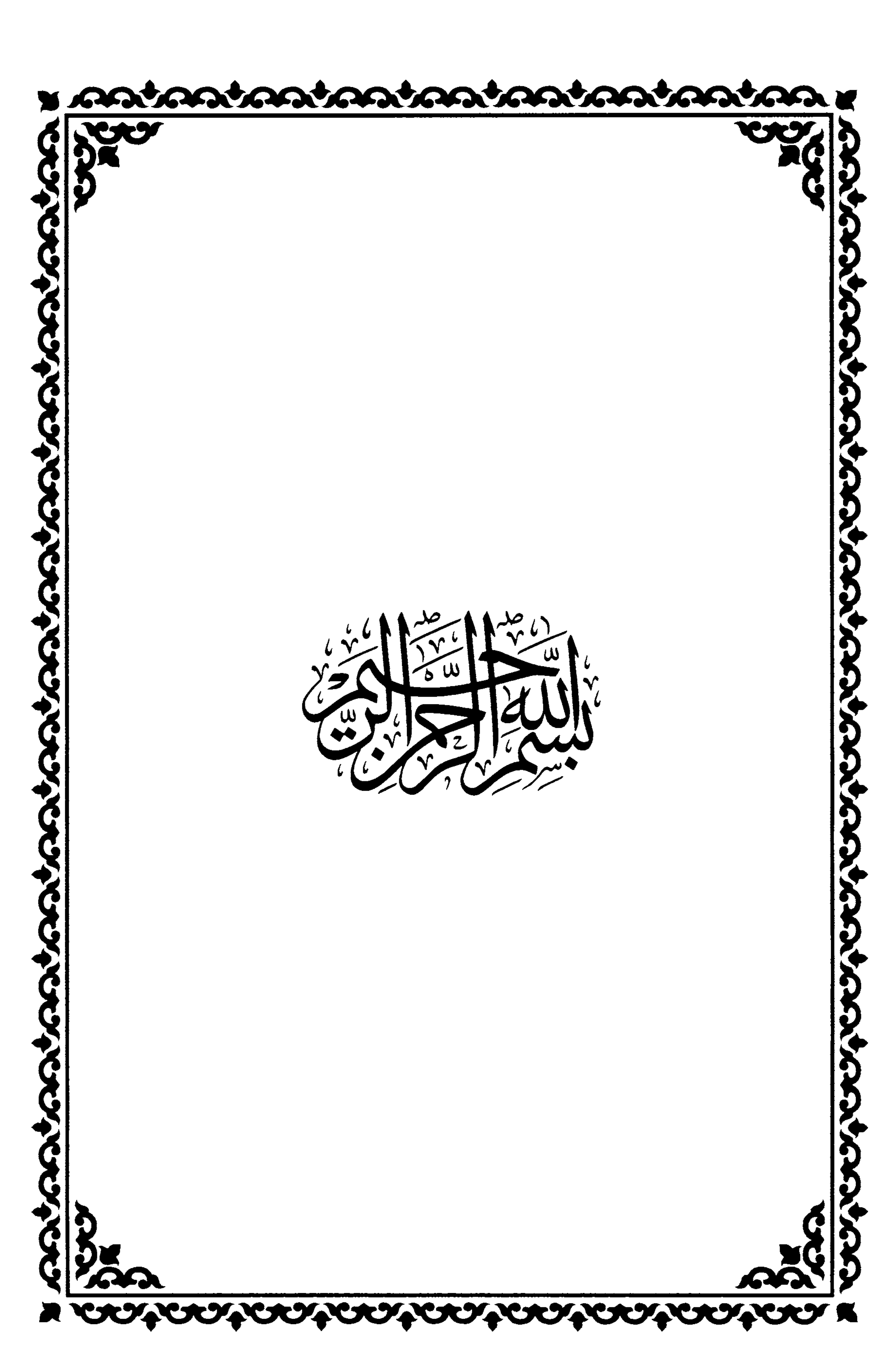
تفسير القرآن بصحيح السنن

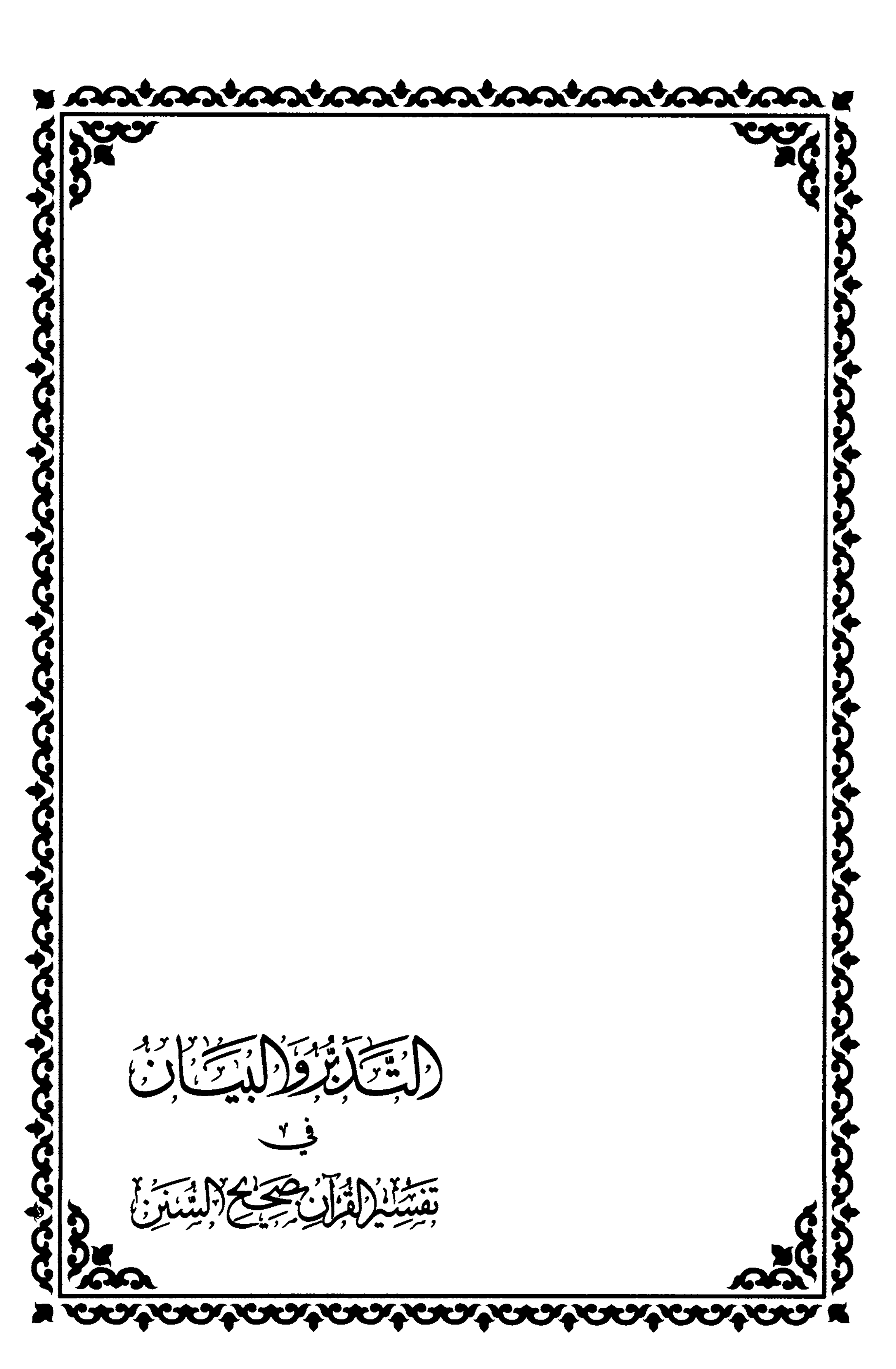
تأليف الأستاذ الدكتور

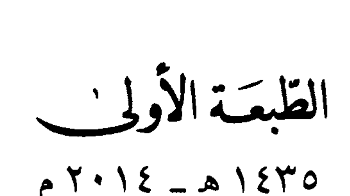
أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الخامس والعشرون

النمل - القصص


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes)	22072	عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size	17×24 cm	قياس الصفحات
Year	2014 A.D - 1435 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st		الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٩٧٨ ـ ٩٩٥٤ ـ ٣٣ ـ ١٤٧ ـ ٧



سورة النمل

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أول أغراض هذه السورة افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه بما يشير إليه الحرفان المقطعان في أولها.

والتنويه بشأن القرآن وأنه هدى لمن ييسر اللّٰه الاهتداء به دون من جحدوا أنه من عند اللّٰه.

والتحدي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء.

والاعتبار بملك أعظم ملك أوتيه نبي، وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام. وما بلغه من العلم بأحوال الطير وما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة.

وأشهر أمة في العرب أوتيت قوة وهي أمة ثمود. والإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ. وفي ذلك إيماء إلى أن نبوة محمد ﷺ رسالة تقارنها سياسة الأمة ثم يعقبها ملك وهو خلافة النبي ﷺ.

وأن الشريعة المحمدية سيقام بها ملك للأمة عتيد كما أقيم لبني إسرائيل ملك سليمان.

ومحاجة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كهانهم وعرافيهم وسدنة آلهتهم. وإثبات البعث وما يتقدمه من أهوال القيامة وأشراطها.

وأن القرآن مهيمن على الكتب السابقة. ثم موادعة المشركين وإنباؤهم بأن شأن الرسول الاستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأن آيات الصدق سيشاهدونها واللّٰه مطلع على أعمالهم»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢١٥-٢١٦).

قوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ أي: هذه آيات ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1]. وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[2]»[3].

قال السعدي: «ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات، وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد، وخير الأعمال وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة، على طبق ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صونا لها عن من لا خير

---

(١) فصلت الآية (٤٤). (٢) مريم الآية (٩٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٨٩).

فيه، ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصهم اللَّه بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم.

فلهذا قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بثواب اللَّه المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مُدَّعو الإيمان فهل يقبل من كل أحد ادعى أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها وشروطها وواجباتها بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي روحها ولبها باستحضار قرب اللَّه وتدبر ما يقوله المصلي ويفعله.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير»[1].

قال النسفي: «ونكر الكتاب ليكون أفخم له، وقيل: إنما نكر الكتاب هنا وعرفه في الحجر وعرف القرآن هنا ونكره ثم لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد ﷺ، ووصفان له؛ لأنه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف»[2].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٥٩-٥٦١).

(٢) تفسير النسفي (٣/ ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

يعمهون: يترددون في حيرتهم. والعمه: التردد والحيرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: إن الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، وقيام الساعة، وبالمعاد إلى الله بعد الممات والثواب والعقاب. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ يقول: حببنا إليهم قبيح أعمالهم، وسهلنا ذلك عليهم. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: فهم في ضلال أعمالهم القبيحة التي زيناها لهم يترددون حيارى يحسبون أنهم يحسنون.

وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم سوء العذاب في الدنيا، وهم الذين قتلوا ببدر من مشركي قريش. ﴿وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ يقول: وهم يوم القيامة هم الأوضعون تجارة والأوكسوها باشترائهم الضلالة بالهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[1]»[2].

قال ابن عاشور: «وقد أشارت الآية إلى معنى دقيق جدًّا وهو أن تفاوت الناس في قبول الخير كائن بمقدار رسوخ ضد الخير في نفوسهم وتعلق فطرتهم به. وذلك من جراء ما طرأ على سلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها من التطور إلى الفساد كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[3] الآية. فمبادرة أبي بكر ﷺ إلى الإيمان بالنبي ﷺ أمارة على أن الله فطره بنفس وعقل بريئين من التعلق بالشر مشتاقين إلى الخير حتى إذا لاح لهما تقبلا»[4].

(١) البقرة الآية (١٦).
(٢) جامع البيان (١٩/ ١٣٢).
(٣) التين الآيات (٤-٦).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٠).

قال المكي الناصري: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ يشير إلى حقيقة نفسية واجتماعية دل عليها الاستقراء في القديم والحديث، ألا وهي أن كل شخص ليس عنده إيمان بالآخرة، ويعتقد أن حياته تنتهي عند حلول الموت، تزداد أنانيته حدة، ويزداد شرهه شدة، إذ يخيل إليه أن ذاته هي البداية والنهاية، وأن حياته في الدنيا ليست وسيلة وإنما هي في نفسها غاية، فلا يترفع عن طرق أي باب من الأبواب، ولا يتورع عن اتخاذ أحط الوسائل وأشنع الأسباب، لاختلاس أكبر قدر ممكن من المنافع والشهوات، وانتزاعها إن لم يكن بالحيلة فعن طريق العنف والجرائم والموبقات، لأن المجتمع في تصوره القاتم عبارة عن غابة موحشة وأدغال، وكل شيء في نظره القاصر مباح وحلال، ما دامت نهاية حياته القصيرة -حسبما يخيل له خياله المريض- هي التفسخ والفناء والانحلال. ووصف كتاب الله عاقبة هذا النوع التائه المنحرف فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾»[1].

* * *

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤١١-٤١٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد قال قتادة: ﴿لَتُلَقَّى﴾ أي: لتأخذ ﴿ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: من عند حكيم عليم؛ أي: حكيم في أوامره ونواهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[(١)]»[(٢)].

قال المكي الناصري: «والحكيم لا يوحي إلا بالحكمة، والعليم لا ينطق إلا بالعلم، ومن لم ينتفع بما في القرآن من علم وحكمة بقي معدودا في عداد الجهلة والسفهاء، غريقا في أوحال المغالطات والجدل والمراء»[(٣)].

قال ابن عاشور: «وفي الوصفين الشريفين مناسبة للمعطوف عليه وللممهد إليه، فإن ما في القرآن دليل على حكمة وعلم من أوحى به، وأن ما يذكر هنا من القصص وما يستخلص منها من المغازي والأمثال والموعظة، من آثار حكمة وعلم حكيم عليم، وكذلك ما في ذلك من تثبيت فؤاد الرسول ﷺ»[(٤)].

قال ابن عطية: «وهذه الآية رد على كفار قريش في قولهم إن القرآن من تلقاء محمد بن عبد الله ﷺ، و﴿مِن لَّدُنْ﴾، معناه من عنده ومن جهته، و«**الحكيم**» ذو الحكمة في معرفته، حيث يجعل رسالاته وفي غير ذلك لا إله إلا هو»[(٥)].

قال أبو السعود في الآية: «تنصيص على علو طبقته -عليه الصلاة والسلام- في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإن من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما في رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول

---

(١) الأنعام الآية (١١٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٨٩).
(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤١٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٢٤).
(٥) المحرر الوجيز (٤/ ٢٤٩).

العلم في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، وللإشعار بأن ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٧٣).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾

★ غريب الآية:

شهاب: الشهاب: الشعلة الساطعة من النار.

قبس: القبس: ما اقتبس من النار، كأن يأخذ نارًا في طرف عود أو غيره، ويسمى أيضًا: الجذوة.

تصطلون: تستدفئون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله ﷺ مذكرا له ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه اللّٰه وكلمه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور نارا؛ أي: رأى نارا تأجج وتضطرم، فقال لأهله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تتدفؤون به. وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورا عظيما؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾»[1].

قوله: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾.

قال أبو السعود: «بتنوينهما على أن الثاني بدل من الأول أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخودة من أصلها. وقرىء بالإضافة، وعلى

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٠).

التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبس الجامع لمنفعتي الضياء والاصطلاء لأن من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه -عليه الصلاة والسلام- بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه من صيغة الترجي، والترديد للإيذان بأنه إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الأمر وثقة بسنة اللَّه تعالى، فإنه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٧٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾

★ **غريب الآية:**

بورك: من البركة، وهي كثرة الخير وزيادته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «أي فلما وصل إلى النار نودي أن بورك من في مكان النار ومن حول مكانها، ومكانها هي البقعة المباركة المذكورة في قوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِيِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾[1] ومن حولها من في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهبط الخيرات، لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا. وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه لنفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته وإيذان بأن مدبر ذلك هو رب العالمين»[2].

قال ابن جرير: «واختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ فقال بعضهم: عنى ﷻ بذلك نفسه، وهو الذي كان في النار، وكانت النار نوره تعالى ذكره في قول جماعة من أهل التأويل.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: بوركت النار.. وقال آخرون: معناه النار لا النور.. وقال آخرون: هو موسى والملائكة»[3].

قال البغوي: «ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور، وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا، ومن في النار هم الملائكة، وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح، ومن حولها موسى لأنه كان بالقرب منها، ولم يكن فيها»[4].

---

(١) القصص: الآية (٣٠).
(٢) تفسير المراغي (١٩/ ١٢٣).
(٣) جامع البيان (١٩/ ١٣٣-١٣٥).
(٤) معالم التنزيل (٣/ ٣٤٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة النور لله تعالى

* عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ فقال: **«إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[1].

★ غريب الحديث:

يخفض القسط ويرفعه: القسط الميزان، سمي به من القسط: العدل، أراد أن اللَّه يخفض ويرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه، وأرزاقهم النازلة من عنده، كما يرفع الوزان يده ويخفضها عند الوزن.

سبحات: جلال وجهه وعظمة نوره.

★ فوائد الحديث:

فيه إثبات صفة النور لله ﷻ وقد تقدم بسط الكلام فيها في سورة النور الآية (٣٥) بما أغنى عن الإعادة واللَّه الموفق والهادي إلى صراطه المستقيم.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥) ومسلم (١/ ١٦١-١٦٢/ ١٧٩) وابن ماجه (١/ ٧٠-٧١/ ١٩٥-١٩٦).

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه اللَّه العزيز، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله.

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليظهر له دليلًا واضحًا على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ والجان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطرابًا -وفي الحديث نهي عن قتل جِنَّان[1] البيوت- فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ أي: لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبيا وجيها»[2].

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ أي من غيري ثقة بي أو مطلقا لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فإنه يدل على نفي الخوف عنهم مطلقا لكن لا في جميع الأوقات بل حين يوحى إليهم كوقت الخطاب فإنهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤون اللَّه ﷻ لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلا وأما في سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه»[3].

---

(١) جنان: بكسر الجيم وتشديد النون، جمع جان وهي الحية الصغيرة وقيل الرقيقة الخفيفة، وقيل: الدقيقة البيضاء.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٣).

(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٧٤).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على شيء ثم أقلع عنه، ورجع وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[(٢)] والآيات في هذا كثيرة جدًّا»[(٣)].

قال الماوردي: « ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه أراد من غير المسلمين لأن الأنبياء لا يكون منهم الظلم، ويكون منهم هذا الاستثناء المنقطع.

الوجه الثاني: أن الاستثناء يرجع إلى المرسلين.

وفيه على هذا وجهان:

أحدهما: فيما كان منهم قبل النبوة كالذي كان من موسى في قتل القبطي، فأما بعد النبوة فهم معصومون من الكبائر والصغائر جميعًا[(٤)].

الوجه الثاني: بعد النبوة فإنهم معصومون فيها مع وجود الصغائر منهم، غير أن الله لطف بهم في توفيقهم للتوبة منها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ يعني توبة بعد سيئة. ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لذنبهم، رحيم بقبول توبتهم»[(٥)].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ معناه عملا صالحا مقترنا بتوبة، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك،

---

(١) طه الآية (٨٢).
(٢) النساء الآية (١١٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٤).
(٤) قد مر الكلام على عصمة الأنبياء في سورة الشعراء الآية (٨٢) فلينظر.
(٥) النكت والعيون (٤/ ١٩٧).

وأهل السنة في التائب من المعاصي على أنه في المشيئة كالمصر، لكن يغلب الرجاء على التائب والخوف على المصر، وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] عمت الجميع من التائب والمصر، وقالت المعتزلة: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ معناه للتائبين.

قال القاضي أبو محمد: وذلك مردود من لفظ الآية لأن تفصيلها بين الشرك وغيره كان يذهب فائدته إذ الشرك يغفر للتائب وما دونه كذلك على تأويلهم فما فائدة التفصيل في الآية وهذا احتجاج لازم فتأمله»[2].

قال القرطبي: «وإذا أحدث المقرب حدثا فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة.

وموسى ﷺ قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه، ثم غفر له، ثم قال بعد المغفرة: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[3] ثم ابتلي من الغد بالفرعوني الآخر وأراد أن يبطش به، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة.

وإنما ابتلي من الغد لقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وتلك كلمة اقتدار من قوله لن أفعل، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل، فسلط عليه الإسرائيلي حتى أفشى سره، لأن الإسرائيلي لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده، فأفشى عليه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾[4] فهرب الفرعوني وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلي على موسى، وكان القتيل بالأمس مكتوما أمره لا يدرى من قتله، فلما علم فرعون بذلك، وجه في طلب موسى ليقتله، واشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق، جاء رجل يسعى فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[5] الآية. فخرج كما أخبر الله. فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث، فهو وإن قربه ربه وأكرمه واصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولت به ولم يعقب»[6].

---

(١) النساء الآية (٤٨).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٥١).
(٣) القصص الآية (١٧).
(٤) القصص: الآية (١٩).
(٥) القصص: الآية (٢٠).
(٦) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة اللَّه الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن اللَّه -تعالى- أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. وهذه هي الآيات التسع التي قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[(١)]»[(٢)].

وقد تقدم بيان الآيات التسع في سورة الأعراف الآية (١٣٣) وسورة الإسراء الآية (١٠١).

قال الألوسي: «فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ مستأنف استئنافًا بيانيًّا كأنه قيل: لم أرسلت إليهم بما ذكر؟ فقيل: إنهم الخ، والمراد بالفسق إما الخروج عما ألزمهم الشرع إياه إن قلنا بأنهم قد أرسل قبل موسى ﷺ من يلزمهم اتباعه وهو يوسف ﷺ، وإما الخروج عما ألزمه العقل واقتضاء الفطرة إن قلنا بأنه لم يرسل إليهم أحد قبله ﷺ»[(٣)].

* * *

(١) الإسراء الآية (١٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩١).

(٣) روح المعاني (١٩/ ١٦٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: بينة واضحة ظاهرة، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾[1].

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي: في ظاهر أمرهم، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند اللَّه، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: ظلما من أنفسهم، سجية ملعونة، ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: استكبارا عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم، في إهلاك اللَّه إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن محمدا، صلوات اللَّه وسلامه عليه أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه اللَّه من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام»[2].

قال ابن عطية: «والذي يظهر عندي في هذه الآية وكل ما جرى مجراها أن هؤلاء الكفرة كانوا إذا نظروا في آيات موسى ﷺ أعطتهم عقولهم أنها ليست تحت قدرة البشر وحصل لهم اليقين أنها من عند اللَّه تعالى، فيغلبهم أثناء ذلك الحسد، ويتمسكون بالظنون في أنه سحر وغير ذلك مما يختلج في الظن بحسب كل آية، ويلجون في عماهم فيضطرب ذلك اليقين ويدفعونه في كل حيلة من التحيل لربوبية

---

(١) الأعراف: الآية (١١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩١-١٩٢).

فرعون وغير ذلك، حتى يستلب ذلك اليقين أو يدوم كذلك مضطربا، وحكمه حكم المستلب في وجوب عذابهم، و﴿ظُلْمًا﴾ معناه على غير استحقاق للجحد، و«العلو» في الأرض أعظم آفة على طالبه. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1]. ثم عجبه تعالى من عقاب ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ قوم فرعون وسوء منقلبهم حين كذبوا موسى وفي هذا تمثيل لكفار قريش إذ كانوا مفسدين مستعلين»[2].

* * *

(١) القصص الآية (٨٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان، عليهما من اللَّه السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.. فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام»[١].

قال السعدي: «ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان من خواص الرسل وإن كانا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه اللَّه بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحا عظيما فحمدا اللَّه على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرا لله على نعمه الدينية والدنيوية وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها بل يرى أنها تستحق عليه شكرا كثيرا»[٢].

قال الزمخشري: «وفي الآية دليل على شرف العلم وأناقة محله، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم. وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلا على كثير من عباد اللَّه، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٣]، وما سماهم رسول اللَّه ﷺ: «ورثة الأنبياء»[٤] إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، لأنهم

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٦٦-٥٦٧).
(٣) المجادلة الآية (١١).
(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٦) وأبو داود (٤/ ٥٧-٥٨/ ٣٦٤١) والترمذي (٥/ ٤٧/ ٢٦٨٢) وابن ماجه (١/ ٨١/ ٢٢٣) وصححه ابن حبان (١/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٨٨ الإحسان).

القوام بما بعثوا من أجله. وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم، منها: أن يحمدوا اللَّه على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم. وفيها التذكير بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر: كل الناس أفقه من عمر»[1].

قال ابن عاشور: «ثم إن كان قولهما هذا جهرا وهو الظاهر كان حجة على أنه يجوز للعالم أن يذكر مرتبته في العلم لفوائد شرعية ترجع إلى أن يحذر الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية من أهل الدعوى الكاذبة والجعجعة الجالبة، وهذا حكم يستنبط من الآية لأن شرع من قبلنا شرع لنا، وإن قالاه في سرهما لم يكن فيه هذه الحجة»[2].

قال ابن باديس: «قد ابتدأ الحديث عن الملك العظيم بذكر العلم، وقدمت النعمة به على سائر النعم، تنويها بشأن العلم، وتنبيها على أنه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأن المماليك إنما تنبني عليه وتشاد، وأن الملك إنما ينظم به ويساس، وأن كل ما لم يبن عليه فهو على شفا جرف هار، وأنه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي، وبه دفاعها، وإن كل مملكة لم تحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض»[3].

قال الرازي: «وأما قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ففيها أبحاث:

أحدها: أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير.

وثانيها: في الآية دليل على علو مرتبة العلم؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم.

وثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع.

---

(١) الكشاف (٣/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣٥).

(٣) تفسير ابن باديس (٢٥٤).

ورابعها : أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين، فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليًّا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات، ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٨٦-١٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أباه: ﴿دَاوُۥدَ﴾ العلم الذي كان آتاه اللَّه في حياته، والملك الذي كان خصه به على سائر قومه، فجعله له بعد أبيه داود دون سائر ولد أبيه»[١].

قال ابن القيم: «فهو ميراث العلم والنبوة لا غير وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود ﷺ كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به، وأيضًا فإن كلام اللَّه يصان عن الإخبار بمثل هذا، فإنه بمنزلة أن يقال مات فلان وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة، وأيضًا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٢] وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه اللَّه به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وكذلك قول زكريا -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[٣] فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى اللَّه وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله فيسأل اللَّه العظيم ولدا يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم، وقد نزه اللَّه أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعدا لمن حرف كتاب

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٤١).

(٢) النمل الآيتان (١٥و١٦).

(٣) مريم الآيتان (٥و٦).

اللَّه ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه والحمد لله على توفيقه وهدايته»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: أخبر سليمان بنعم اللَّه عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر -فيما علمناه- مما أخبر اللَّه به ورسوله. ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود -كما يتفوه به كثير من الناس- فهو قول بلا علم. ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن اللَّه ﷻ، كان قد أفهم سليمان ﷺ ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: مما يحتاج إليه الملك، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر البين لله علينا»[٢].

قال ابن باديس: «يذكر اللَّه تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم، وما مكنه منه من عظيم الأشياء. ترغيبا لنا في طلب العلم، والسعي في تحصيل كل ما لنا حاجة إليه من أمور الدنيا. وتشويقا لنا إلى ما في هذا الكون من عوالم الجماد، وعوالم الأحياء. وبعثا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة.

فقد كان سليمان ﷺ نبيا، وما كان ملكه ذلك إلا بإذن اللَّه ورضاه فهو فيما ذكره اللَّه من أمره قدوة وأي قدوة مثل سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين»[٣].

قال ابن عاشور: «وعلم منطق الطير أوتيه سليمان من طريق الوحي بأن أطلعه اللَّه على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٣).
(٣) تفسير ابن باديس (٢٥٩).

وإرادتها . وفائدة هذا العلم أن اللّٰه جعله سبيلا له يهتدي به إلى تعرف أحوال عالمية يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القوى الكثيرة، وللطير دلالة في تخاطب أجناسها واستدعاء أصنافها والإنباء بما حولها ما فيه عون على تدبير ملكه وسياسة أمته، مثل استخدام نوع الهدهد في إبلاغ الأخبار وردها ونحو ذلك .

ووراء ذلك كله انشراح الصدر بالحكمة والمعرفة لكثير من طبائع الموجودات وخصائصها . ودلالة أصوات الطير على ما في ضمائرها : بعضها مشهور كدلالة بعض أصواته على نداء الذكور لإناثها، ودلالة بعضها على اضطراب الخوف حين يمسكه ممسك أو يهاجمه كاسر، ووراء ذلك دلالات فيها تفصيل، فكل كيفية من تلك الدلالات الإجمالية تنطوي على تقاطيع خفية من كيفيات صوتية يخالف بعضها بعضًا فيها دلالات على أحوال فيها تفصيل لما أجملته الأحوال المجملة، فتلك التقاطيع لا يهتدي إليها الناس ولا يطلع عليها إلا خالقها، وهذا قريب من دلالة مخارج الحروف وصفاتها في لغة من اللغات وفكها وإدغامها واختلاف حركاتها على معان، لا يهتدي إليها من يعرف تلك اللغة معرفة ضعيفة ولم يتقن دقائقها . مثل أن يسمع ضللت وظللت، فاللّٰه تعالى أطلع سليمان بوحي على مختلف التقاطيع الصوتية التي في صفير الطير وأعلمه بأحوال نفوس الطير عندما تصفر بتلك التقاطيع، وقد كان الناس في حيرة من ذلك كما قال المعري :

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ... ـت على غصن دوحها المياد

وقال صاحبنا الشاعر البليغ الشيخ عبدالعزيز المسعودي من أبيات في هذا المعنى :

فمن كان مسرورا يراه تغنيا ... ومن كان محزونا يقول ينوح

والاقتصار على منطق الطير إيجاز لأنه إذا علم منطق الطير وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان وأسرعها نفورا منه، علم أن منطق ما هو أكثر اختلاطا بالإنسان حاصل له بالأحرى كما يدل عليه قوله تعالى فيما يأتي قريبا : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[1]، فتدل هذه الآية على أنه علم منطق كل صنف من أصناف الحيوان . وهذا العلم سماه العرب علم الحكل (بضم الحاء المهملة وسكون الكاف) قال العجاج وقيل ابنه رؤبة :

(١) النمل: الآية (١٩).

لو أنني أوتيت علم الحكل علم سليمان كلام النمل
أو أنني عمرت عمر الحسل أو عمر نوح زمن الفطحل
كنت رهين هرم أو قتل

وعبر عن أصوات الطير بلفظ ﴿مَنطِقَ﴾ تشبيها له بنطق الإنسان من حيث هو ذو دلالة لسليمان على ما في ضمائر الطير، فحقيقة المنطق الصوت المشتمل على حروف تدل على معان. وضمير (علمنا أوتينا) مراد به نفسه، جاء به على صيغة المتكلم المشارك؛ إما لقصد التواضع كأن جماعة علموا وأوتوا وليس هو وحده كما تقدم في بعض احتمالات قوله تعالى آنفا: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾، وإما لأنه المناسب لإظهار عظمة الملك، وفي ذلك تهويل لأمر السلطان عند الرعية، وقد يكون ذلك من مقتضى السياسة في بعض الأحوال كما أجاب معاوية عمر رضي الله عنهما حين لقيه في جند (وأبهة) ببلاد الشام فقال عمر لمعاوية «**أكسروية يا معاوية؟ فقال معاوية: إنا في بلاد من ثغور العدو فلا يرهبون إلا مثل هذا. فقال عمر: خدعة أريب أو اجتهاد مصيب لا آمرك ولا أنهاك**» فترك الأمر لعهدة معاوية وما يتوسمه من أساليب سياسة الأقوام.

والمراد بـ ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ كل شيء من الأشياء المهمة ففي ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ عمومان عموم «كل» وعموم النكرة وكلاهما هنا عموم عرفي، فـ«كل» مستعملة في الكثرة و(شيء) مستعمل في الأشياء المهمة مما له علاقة بمقام سليمان، وهو كقوله تعالى فيما حكى عن أخبار الهدهد. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي كثيرا من النفائس والأموال. وفي كل مقام يحمل على ما يناسب المتحدث عنه»[1].

قال الزمخشري: « ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تشهيرًا لنعمة اللّه، وتنويها بها، واعترافا بمكانها، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور»[2].

قال المراغي: «وإنك لتعجب إذ ترى اليوم أن كثيرا من الأمم تبحث في لغات الطيور والحيوان والحشرات كالنمل والنحل، وتبحث في تنوع أصواتها لتنوع

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣٦-٢٣٨).
(٢) الكشاف (٣/ ١٤٠).

أغراضها، فكأنه تعالى يقول: إنكم لا تعرفون لغات الطيور الآن وعلمتها سليمان، وسيأتي يوم ينتشر فيه علم أحوال مخلوقاتي، ويطلع الناس على عجائب صنعي فيها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ميراث الأنبياء وقصة موت داود عليه السلام

* عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام على معانيه مستوفىً عند قوله تعالى من سورة مريم: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٣]. والله الموفق الهادي إلى سبيل الرشاد.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وأغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود! فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحبًا بأمر الله، فرمل داود مكانه حيث قبضت روحه، حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهم الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا، قال أبو هريرة: يرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ يده، وغلبت عليه يومئذ المصرحية**»[٤].

---

(١) تفسير المراغي (١٩/ ١٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤) والبخاري (١٢/ ٤/ ٦٧٢٧) ومسلم (٣/ ١٣٧٩-١٣٨١/ ١٧٥٨) وأبو داود (٣/ ٢٩٦٨-٢٩٦٩) والنسائي (٧/ ١٥٠/ ٤١٥٢) مختصرًا.

(٣) مريم: الآية (٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٠٦-٢٠٧) وقال: «رواه أحمد وفيه المطلب بن عبدالله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح». =

★ **غريب الحديث:**

غيرة: الغيرة: الحمية والأنفة.

فَرَمَلَ: قال السندي: «براء مهملة وتخفيف؛ أي: أسرع في المشي إلى الموضع الذي أراد أن تقبض روحه فيه، وفي بعض النسخ: بزاي معجمة وتشديد؛ أي: غطّى نفسه في ذلك المكان».

المُصَرِّحِية: الظاهر أنه اسم فاعل من التصريح، لحقته الياء والتاء المصدريتان؛ أي: غلبت عليه صفة التصريح والإيضاح في البيان حتى يوضِّح المرام بالكلام، ويستعين عليه بالإشارة باليد، واللَّه تعالى أعلم.

وقد ضبطه أحمد البنا في «الفتح الرباني» بالضاد المعجمة، وقال: «جاء في الأصل بالصاد المهملة، وهو خطأ من الناسخ».

وقال ابن كثير: «ومعنى قوله: «**وغلبت عليه يومئذ المصرحية**» أي: وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة، واحدها: مضرحي. قال الجوهري: وهو الصقر الطويل الجناح».

وقال: «قال أبو الفرج بن الجوزي: المضرحية: النسور الحمر».

* * *

= قلت: انظر ما كتبه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «الرسالة» للشافعي (ص٩٣,-١٠٣) فقد فصل فيه تفصيلًا علميًا دقيقًا استخلص من خلاله أنه إن لم يكن صحابيًا صغيرًا فهو من كبار التابعين.

قال ابن كثير: «انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوي رجاله ثقات». البداية والنهاية (٢/ ١٦).

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾

★ **غريب الآية:**

يوزعون: أصل الوزع: المنع والكف، يقال: وزعه عن الظلم: إذا منعهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها.

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له.

قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم»[١].

قال ابن عاشور: «وهب اللّه سليمان قوة من قوى النبوءة يدرك بها من أحوال الأرواح والمجردات كما يدرك منطق الطير ودلالة النمل ونحوها. ويزع تلك الموجودات بها فيوزعون تسخيرا.. وقد وهب اللّه هذه القوة محمدا ﷺ فصرف إليه نفرا من الجن يستمعون القرآن، ويخاطبونه. وإنما أمسك رسول اللّه عن أن يتصرف فيها ويزعها كرامة لأخيه سليمان إذ سأل اللّه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فلم يتصرف فيها النبي ﷺ مع المكنة من ذلك، لأن اللّه محضه لما هو أهم وأعلى فنال بذلك فضلا مثل فضل سليمان، ورجح بإعراضه عن التصرف تبريرا لدعوة أخيه في النبوءة لأن جانب النبوءة في رسول اللّه أقوى من جانب الملك..

فرتبة رسول اللّه ﷺ رتبة التشريع وهي أعظم من رتبة الملك، وسليمان لم يكن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٣).

مشرعا لأنه ليس برسول، فوهبه اللَّه ملكا يتصرف به في السياسة، وهذه المراتب يندرج بعضها فيما هو أعلى منه فهو ليس بملك، وهو يتصرف في الأمة تصرف الملوك تصرفا بريئا مما يقتضيه الملك من الزخرف والأبهة»[١].

قال القرطبي: «في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض، إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم»[٢].

قال ابن عاشور: «وفي الآية إشارة إلى أن جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك ليكون الجنود متعهدين لأحوالهم وحاجاتهم ليشعروا بما ينقصهم ويتذكروا ما قد ينسونه عند تشوش الأذهان عند القتال وعند النفير»[٣].

قال أبو السعود: «وتقديم الجن على الإنس في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير»[٤].

قال ابن باديس: «تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية في ملك سليمان. فقد كان الجنود يسرحون من الخدمة ويجمعون عند الحاجة. وكانت أعيانهم معروفة مضبوطة. وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة. وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم. وكان النظام محكما لضبط تلك الكثرة ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى. تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية والواقعية تعليما لنا، وتربية على الجندية المضبوطة المنظمة. ولا شك أن الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم، إن مثل هذه الآية كان له الأثر البليغ السريع في نفوس العرب لما أسلموا. فسرعان ما تحولوا إلى جنود منظمة مما لم يكن معروفا عندهم في الجاهلية.

وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأن النظام أساس كل مجتمع واجتماع، وأن القوة والكثرة وحدهما لا تغنيان بدون نظام، وأن النظام لا بد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣٩).
(٢) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٦٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٤٠).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٧٧).
(٥) تفسير ابن باديس (٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾

★ **غريب الآية:**

يحطمنكم: أصل الحَطْم: تكسير الشيءِ وَفَتُّه. ومنه الحطمة: اسم لجهنم، لأنها تحْطِمُ ما يلقى فيها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادي النمل ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقول: لا يكسرنكم ويقتلنكم سليمان وجنوده ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يقول: وهم لا يعلمون أنهم يحطمونكم»[1].

قال ابن العربي: «فانظر إلى فهمها بأن جند سليمان لم يكن فيهم من يؤذي نملة مع القصد إلى ذلك، والعلم به.. وقد أخبر اللَّه عن جيش محمد بمثله في قوله: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾[2].

وهذا من فضائل محمد ﷺ..

وقد انتهى الجهل بقوم إلى أن يقولوا: إن معناه: والنمل لا يشعرون، فخرج من خطاب المواجهة إلى خطاب الغائب لغير ضرورة ولا فائدة إلا إبطال المعجزة لهذا النبي الكريم، واللَّه ولي التقويم.

كما انتهى الإفراط بقوم إلى أن يقولوا: إنه كان من كلام النملة له أن قالت: يا نبي الله؛ أرى لك ملكا عظيما، فما أعظم جندك؟ قال لها: تسخير الريح.

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٤٢).

(٢) الفتح الآية (٢٥).

قالت له: إن اللَّه أعلمك أن كل ما أنت فيه في الدنيا ريح.

وما أحسن الاقتصاد، وأضبط السداد للأمور والانتقاد»[١].

قال ابن القيم: «وهذه النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها ويكفي في هداية النمل ما حكاه اللَّه سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبي اللَّه وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك وهذا من أعجب الهداية وتأمل كيف عظم اللَّه سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾ ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروفا بالنمل كوادي السباع ونحوه ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم ثم قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها ثم قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم ولذلك تبسم نبي اللَّه ضاحكا من قولها وإنه لموضع تعجب وتبسم.. والنمل من

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥١-١٤٥٢).

أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل . . ومن حرصها أنا تكد طوال الصيف، وتجمع للشتاء علما منها بأعواز الطلب في الشتاء، وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه، فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها وإن وجدتها شعيرا فلا؛ ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدا يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات. وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صواحباتها. ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرا ويملأه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه وجربنا نحن ذلك؛ وأحمى صانع مرة طوقا بالنار ورماه على الأرض ليبرد واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق وكان ذلك مركزا له وهو أبعد مكان من المحيط»[1].

قال الألوسي: «ثم إنه ينبغي أن يعلم أن الظاهر أن علم النملة بأن الآتي هو سليمان عليه السلام وجنوده كان عن إلهام منه عز وجل . . والظاهر أيضًا أنها كانت كسائر

---

(١) شفاء العليل (١/ ١٨٨-١٩٢).

النمل في الجثة، وفيه اليوم ما يقرب من الذبابة ويسمى بالنمل الفارسي، وبالغ بعض القصاص في كبرها ولا يصح له مستند»[(١)].

قال الرازي: «وفي هذه الآية تنبيه على أمور: أحدها: أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز، وإنما يلزم من في الطريق التحرز وثانيها: أن النملة قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كأنها عرفت أن النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات إلا على سبيل السهو، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء ﷺ»[(٢)].

قال القنوجي: «وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء وحفظ أصحابهم، وفيه أن الرافضة الذين ينسبون الظلم وحطم الحقوق إلى أصحاب رسول اللَّه ﷺ في أهل بيته وعترته، هم أقل وأضعف رأيا من تلك النملة فإنها اعتقدت في جنود سليمان العدل، وهؤلاء اعتقدوا بأصحابه ﷺ الظلم وشتان بينهما»[(٣)].

قال المراغي: «وفي هذه الآية تنبيه إلى هذا لإيقاظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظم والسياسة، فإن نداءها لمن تحت أمرها وجمعها لهم ليشير إلى كيفية سياستها، وحكمتها وتدبيرها لأمورها، وأنها تفعل ما يفعل الملوك، وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام. ولم يذكره الكتاب الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء، فيفهموا حال هذه الكائنات، وكيف أن النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع، وإن أمة لا تصل في تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة في أودية الضلال، وهي أدنى حالا من الحشرات والديدان، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٤)]»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التعذيب بالنار

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«قرصت نملة نبيًّا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى اللَّه إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم**

(١) روح المعاني (١٩/ ١٧٦).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٨٨).
(٣) فتح البيان (١٠/ ٢٦).
(٤) النور الآية (٣٥).
(٥) تفسير المراغي (١٩/ ١٢٩).

تسبح الله»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «وظاهر الحديث يفيد أن الإحراق كان جائزا في شريعة ذلك النبي فلذلك ما عاتب الله تعالى عليه بالإحراق وإنما عاتب عليه بالزيادة على الواحدة التي قرصت وهو غير جائز في شريعتنا فلا يجوز إحراق التي قرصت أيضًا وأما قتل المؤذي فجائز (في أن قرصتك) الجار متعلق بأهلكت وفي بمعنى لام التعليل (تسبح) إشارة إلى أن الأمة مطلوبة البقاء لو لم يكن فيها فائدة إلا التسبيح لكفى داعيا إلى إبقائها والله أعلم»[٢].

قال القرطبي: «وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتله.

وروي عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتله.

وقوله: «ألا نملة واحدة» دليل على أن الذي يؤذي يؤذى ويقتل، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء»[٣].

قوله: «**أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح**» **قال القرطبي**: «مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقا وفهمه سليمان ﵇ -وهذا معجزة له- وتبسم من قولها.

وهذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبي أو ولي.

ولا ننكر هذا من حيث إنا لا نسمع ذلك، فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٣) والبخاري (٦/ ١٨٩-١٩٠/ ٣٠١٩) ومسلم (٤/ ١٧٥٩/ ٢٢٤١) وأبو داود (٥/ ٤١٨/ ٥٢٦٦) والنسائي (٧/ ٢٤٠/ ٤٣٦٩) وابن ماجه (٢/ ١٠٧٥/ ٣٢٢٥).

(٢) حاشية النسائي (٧/ ٢٤٠).

(٣) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٧٤).

ثم إن الإنسان يجد في نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه.

وقد خرق اللَّه العادة لنبينا محمد ﷺ فأسمعه كلام النفس من قوم تحدثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا في كتب معجزات النبي ﷺ، وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه اللَّه تعالى من الأولياء مثل ذلك في غير ما قضية.

وإياه عنى النبي ﷺ بقوله: «**إن في أمتي محدثين وإن عمر منهم**»[(١)][(٢)].

* * *

(١) أخرجه من حديث عائشة: أحمد (٦/ ٥٥) ومسلم (٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨) والترمذي (٥/ ٥٨١/ ٣٦٩٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٩-٤٠/ ٨١١٩) وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٩) والبخاري (٧/ ٥٢/ ٣٦٨٩) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠/ ٨١٢٠).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

أوزعني: ألهمني.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فتبسم سليمان ضاحكا من قول النملة التي قالت ما قالت، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ يعني بقوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني»[١].

قال ابن كثير: «أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: عملا تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك»[٢].

قال الزمخشري: «ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفاقه لزيادة العمل الصالح والتقوى. وحقيقة ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ اجعلني أزع شكر نعمتك عندي، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عني، حتى لا أنفك شاكرا لك. وإنما أدرج ذكر والديه لأن النعمة على الولد نعمة على الوالدين، خصوصا النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له، وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك»[٣].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٤).

(٣) الكشاف (٣/ ١٤٢).

قال السعدي: « ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إعجابا منه بفصاحتها ونصحها وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدب الكامل، والتعجب في موضعه وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ جل ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك»(١).

قال الألوسي: « ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ عطف على ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ فيكون عليه السلام قد طلب جعله مداوما على عمل العمل الصالح أيضًا. وكأنه عليه السلام أراد بالشكر الشكر باللسان المستلزم للشكر بالجنان وأردفه بما ذكر تيمنا له لأن عمل الصالح شكر بالأركان»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الجمع بين العمل والطمع في رحمة الله

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لن ينجي أحدا منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه برحمته، سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا**»(٣).

★ غريب الحديث:

يتغمدني: المراد بالتغمد الستر وقال أبو عبيد وما أظنه إلا مأخوذا من غمد السيف لأنك إذا أغمدت السيف فقد ألبسته الغمد وسترته به.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله: «**فإنه لن يدخل الجنة أحدا عمله**» أي: إن أعمال العباد الصالحة ليست مما تقتضي دخول الجنة، إذ ليست في أنفسها على صفات تقتضي ذلك، ولا يستحق المكلف على اللَّه تعالى بسببها شيئًا، إذ لا منفعة له فيها،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٦٩). (٢) روح المعاني (١٩/ ١٨١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٤) والبخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠١) وفي الباب عن عائشة وجابر رضي الله عنهما.

ولا غرض، فإنه الغني بذاته، الذي لا يستغنى عنه. وكأن هذا نص في الرد على أهل البدع، والمعتزلة في قولهم في قاعدتي التحسين والتقبيح، والاستحقاق العقليين.

وقولهم: (ولا أنت؟) كأنهم وقع لهم: أن النبي ﷺ لعظيم معرفته بالله، وكثرة عبادته أنه ينجيه عمله، فرد النبي ﷺ بأن قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة وفضل**» فسوى بينه وبينهم في ذلك المعنى وأخبر أنه عن فضله ورحمته لا يستغنى»[1].

قال ابن أبي العز: «وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة. فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﷺ: «[لا] يدخل [أحدكم] الجنة بعمله» باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله والباء التي في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2]، ونحوها، باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته»[3].

* * *

(١) المفهم (٧/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) السجدة: الآية (١٧).

(٣) شرح الطحاوية (ص٤٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

★ غريب الآية:

تَفَقَّدَ: التَّفَقُّدُ: طلب المفقود.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: « ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد» أو: «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضًا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف -مع ذلك- يحتاج إلى الهدهد؟.

وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلما للمتقدم حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب اللَّه به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالا منقولة عن غير رسول اللَّه ﷺ ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالا عليها، وإن خالفته لفظا ومعنى أو لفظا أو معنى ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلا معلوما مناقضا لها وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أن تفقد سليمان ﷺ للطير، وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفيا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبا من غير إذني ولا أمري؟.

فحينئذ تغيظ عليه وتوعده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل، ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح فلذلك استثناه لورعه وفطنته»[١].

قال ابن العربي: «هذا يدل من سليمان على تفقده أحوال الرعية، والمحافظة عليهم، فانظروا إلى الهدهد وإلى صغره فإنه لم يغب عنه حاله، فكيف بعظائم الملك؟ ويرحم اللَّه عمر، فإنه كان على سيرته قال: «لو أن سخلة[٢] بشاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر، فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية، وتضيع الرعيان»[٣].

وقال أيضًا: «كان الهدهد صغير الجِرم، ووعد بالعذاب الشديد لعظيم الجُرم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٧٠-٥٧٣).

(٢) ولد الغنم من الضأن.

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥٤).

قال علماؤنا: وهذا يدل على أن الحد على قدر الذنب، لا على قدر الجسد»[١].

قال الزمخشري: «فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدهد؟ قلت: يجوز أن يبيح له اللّه ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة؛ كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع؛ وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة: جاز أن يباح له ما يستصلح به»[٢].

قال السيوطي: «قلت: ويستدل به على جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك وعلى جواز نتف ريش الحيوان لمصلحة لأن المراد بالتعذيب المذكور نتف ريشه»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة الهدهد وما فيها من الآيات والعبر وما ورد في النهي عن قتله

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: «**نتف ريشه**»[٤].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نهى رسول اللّه ﷺ عن قتل أربع من الداوب: النملة والنحلة والهدهد والصرد»[٥].

★ غريب الحديث:

الصرد: على وزن عمر وهو طائر ضخم الرأس والمنقار له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «يقال إن النهي إنما جاء في قتل النمل في نوع منه خاص وهو الكبار منها ذوات الأرجل الطوال، وذلك أنها قليلة الأذى والضرر، ونهى عن قتل

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥٥).
(٢) الكشاف (٣/ ١٤٣).
(٣) الإكليل (ص٢٠١).
(٤) أخرجه: ابن جرير (١٩/ ١٤٥) والحاكم (٢/ ٤٠٦) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٢، ٣٤٧) وأبو داود (٥/ ٤١٨/ ٥٢٦٧) وابن ماجه (٢/ ١٠٧٤/ ٣٢٢٤) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٢/ ٤٦٢/ ٥٦٤٦).

النحلة لما فيها من المنفعة، فأما الهدهد والصرد فنهيه في قتلهما يدل على تحريم لحومهما، وذلك أن الحيوان إذا نهي عن قتله ولم يكن ذلك لحرمته ولا لضرر فيه كان ذلك لتحريم لحمه، ألا ترى أن رسول اللَّه ﷺ قد نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة، ويقال إن الهدهد منتن اللحم فصار في معنى الجلالة المنهي عنها، وأما الصرد فإن العرب تتشاءم به وتتطير بصوته وشخصه، ويقال إنهم إنما كرهوا من اسمه معنى التصريد»[1].

وكره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل، وأطلق ابن أبي زيد جواز قتل النمل إذا آذت[2].

* * *

(١) معالم السنن (٤/ ١٤٦).
(٢) عون المعبود (١٤/ ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: غاب زمانا يسيرا، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صدق حق يقين.

وسبأ: هم: حمير، وهم ملوك اليمن»[١].

قال القرطبي: «والضمير في ﴿فَمَكَثَ﴾ يحتمل أن يكون لسليمان، والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل.

ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر»[٢].

قال السعدي: «وهذا يدل على هيبة جنوده منه وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنا كثيرا»[٣].

قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.

قال ابن العربي: «وهذا دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك وتيقنه»[٤].

قال القرطبي: «في هذا رد على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب»[٥].

قال الزمخشري: «ألهم اللّٰه الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له في علمه، وتنبيها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٦).
(٢) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١٨٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٧٣).
(٤) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥٦).
(٥) جامع أحكام القرآن (١٢/ ١٨١).

لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة»[1].

وقال: «والإحاطة بالشيء علمها: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التعريف بسبأ

* عن فروة بن مسيك المرادي ﷺ قال: «أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول اللّه ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأذن لي في قتالهم وأمرني، فلما خرجت من عنده، سأل عني ما فعل الغطيفي فأخبر أني قد سرت قال: فأرسل في أثري، فردني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال: **ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك**، وأنزل في سبأ ما أنزل فقال رجل: يا رسول اللّه وما سبأ، أرض أو امرأة؟ قال: **ليس بأرض، ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخم، وجذام وغسان وعاملة وأما الذين تيامنوا فالأزد، والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار** فقال رجل: يا رسول اللّه وما أنمار؟ قال: **الذين منهم خثعم، وبجيلة**»[3].

★ غريب الحديث:

أرسل في أثري: أي عقبي، قال في القاموس: خرج في أثره وإثره نفر أي: بعده.

---

(١) الكشاف (٣/ ١٤٣). (٢) الكشاف (٣/ ١٤٣).

(٣) أخرجه: أبو داود (٤/ ٢٨٨/ ٣٩٨٨) والترمذي (٥/ ٣٣٦-٣٣٧/ ٣٢٢٢) وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (٢/ ٤٢٤)، وأحمد في العلل (٢/ ٢٥٤-٢٥٥/ ٢٢٨٩ و٢٢٨٣) والبخاري في التاريخ (٧/ ١٢٦-١٢٧)، من طرق عن فروة به.

وقال الحافظ ابن كثير (٦/ ٤٩٢) عقب أحد طرق الإمام أحمد: «وهذا أيضا إسناد جيد وإن كان فيه أبو جناب الكلبي وقد تكلموا فيه. وذكر له متابع».

تيامن: أي أخذوا ناحية اليمن وسكنوا بها.

تشاءم: قصدوا ناحية الشام.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «ومعنى قوله ﷺ: **«كان رجلًا من العرب»** يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل ﷺ، من سلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل ﷺ، وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم. ولكن في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ مر بنفر من «أسلم» ينتضلون[١]، فقال: **«ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا»**[٢]. فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غسان بماء نزلوا عليه قيل: باليمن. وقيل: إنه قريب من المشلل، كما قال حسان بن ثابت:

إما سألت فإنا معشر نجب ... الأزد نسبتنا، والماء غسان

ومعنى قوله: **«ولد له عشرة من العرب»** أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب.

ومعنى قوله: **«فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة»** أي: بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها»[٣].

* * *

(١) أي يرتمون بالسهام.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٥٠) والبخاري (٦/ ١١٣/ ٢٨٩٩) من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى مخبرا عن قيل الهدهد لسليمان مخبرا بعذره في مغيبه عنه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني تملك سبأ، وإنما صار هذا الخبر للهدهد عذرا وحجة عند سليمان، درأ به عنه ما كان أوعد به؛ لأن سليمان كان لا يرى أن في الأرض أحدا له مملكة معه، وكان مع ذلك ﷺ رجلا حبب إليه الجهاد والغزو، فلما دله الهدهد على ملك بموضع من الأرض هو لغيره، وقوم كفرة يعبدون غير الله، له في جهادهم وغزوهم الأجر الجزيل، والثواب العظيم في الآجل، وضم مملكة لغيره إلى ملكه، حقت للهدهد المعذرة، وصحت له الحجة في مغيبه عن سليمان.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: وأوتيت من كل شيء يؤتاه الملك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة.. وقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: ولها كرسي عظيم. وعني بالعظيم في هذا الموضع: العظيم في قدره، وعظم خطره، لا عظمه في الكبر والسعة.. وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول: وجدت هذه المرأة ملكة سبأ، وقومها من سبأ، يسجدون للشمس، فيعبدونها من دون الله. وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: وحسن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله، وحبب ذلك إليهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: فمنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتبعوا الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي بعث به أنبياءه، ومعناه: فصدهم عن سبيل الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ يقول: فهم لما قد زين لهم الشيطان ما زين من السجود للشمس من دون الله والكفر به

لا يهتدون لسبيل الحق ولا يسلكونه، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يترددون»[١].

قال الرازي: «وأما قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ففيه سؤال وهو أنه كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمان: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] فكأن الهدهد سوى بينهما جوابه: أن قول سليمان عليه السلام يرجع إلى ما أوتي من النبوة والحكمة، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وأما قول الهدهد فلم يكن إلا إلى ما يتعلق بالدنيا»[٣].

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ قلت: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان، فاستعظم لها ذلك العرش. ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء، كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إمارة المرأة

* عن أبي بكرة قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «**لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «فيه من العلم أن النساء لا يلين الإمارة ولا القضاء بين الناس»[٦].

قال المناوي: «**«لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»** وذلك لنقصها وعجز رأيها، ولأن الوالي مأمور بالبروز للقيام بأمر الرعية والمرأة عورة لا تصلح لذلك فلا يصح أن تولى الإمامة ولا القضاء. قال الطيبي: هذا إخبار بنفي الفلاح عن أهل فارس

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٤٨-١٤٩).
(٢) النمل: الآية (١٦).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٩١).
(٤) الكشاف (٣/ ١٤٤).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣) والبخاري (٨/ ١٦٠/ ٤٤٢٥) والترمذي (٤/ ٤٥٧/ ٢٢٦٢) والنسائي (٨/ ٢٢٧/ ٥٤٠٣).
(٦) أعلام الحديث (٣/ ١٧٨٧).

على سبيل التأكيد وفيه إشعار بأن الفلاح للعرب فتكون معجزة»[١].

قال ابن العربي: «وهذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه.

ونقل عن محمد بن جرير الطبري إمام الدين أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية؛ ولم يصح ذلك عنه؛ ولعله كما نقل عن أبي حنيفة أنها [إنما] تقضي فيما تشهد فيه، وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها منشور بأن فلانة مقدمة على الحكم، إلا في الدماء والنكاح، وإنما ذلك كسبيل التحكيم أو الاستبانة في القضية الواحدة، بدليل قوله ﷺ: **«لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»**. وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير.

وقد روي أن عمر قدم امرأة على حسبة السوق، ولم يصح؛ فلا تلتفتوا إليه؛ فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث.. فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير، لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت متجالة برزة لم يجمعها والرجال مجلس تزدحم فيه معهم، وتكون منظرة لهم، ولم يفلح قط من تصور هذا، ولا من اعتقده»[٢].

قال مصطفى السباعي: «يحتم الإسلام أن تكون رئاسة الدولة العليا للرجل، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: **«ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»** وهذا النص يقتصر المراد من الولاية فيه على الولاية العامة العليا، لأنه ورد حين أبلغ الرسول ﷺ أن الفرس ولوا للرئاسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته، ولأن الولاية بإطلاقها ليست ممنوعة عن المرأة بالإجماع، بدليل اتفاق الفقهاء قاطبة على جواز أن تكون وكيلة لأية جماعة من الناس في تصريف أموالهم وإدارة مزارعهم وأن تكون شاهدة، والشهادة ولاية كما نص الفقهاء على ذلك، ولأن أبا حنيفة يجيز أن تتولى القضاء في بعض الحالات، والقضاء ولاية.

فنص الحديث كما نفهمه صريح في منع المرأة من رئاسة الدولة العليا، ويلحق بها ما كان بمعناها في خطورة المسؤولية..

---

(١) فيض القدير (٥/ ٣٠٣).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥٧-١٤٥٨).

وهذا أيضًا مما لا علاقة له بموقف الإسلام من إنسانية المرأة وكرامتها أو أهليتها، وإنما هو وثيق الصلة بمصلحة الأمة، وبحالة المرأة النفسية، ورسالتها الاجتماعية.

إن رئيس الدولة في الإسلام ليس صورة رمزية للزينة والتوقيع، وإنما هو قائد المجتمع ورأسه المفكر، ووجهه البارز، ولسانه الناطق، وله صلاحيات واسعة خطيرة الآثار والنتائج:

فهو الذي يعلن الحرب على الأعداء، ويقود جيش الأمة في ميادين الكفاح، ويقرر السلم والمهادنة، إن كانت المصلحة فيها، أو الحرب والاستمرار فيها إن كانت المصلحة تقتضيها، وطبيعي أن يكون ذلك كله بعد استشارة أهل الحل والعقد في الأمة، عملا بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[1] ولكنه هو الذي يعلن قرارهم، ويرجح ما اختلفوا فيه، عملا بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2].

ورئيس الدولة في الإسلام يتولى خطابة الجمعة في المسجد الجامع، وإمامة الناس في الصلوات، والقضاء بين الناس في الخصومات، إذا اتسع وقته لذلك.

ومما لا ينكر أن هذه الوظائف الخطيرة لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي والعاطفي، وبخاصة ما يتعلق بالحروب وقيادة الجيوش، فإن ذلك يقتضي من قوة الأعصاب، وتغليب العقل على العاطفة، والشجاعة في خوض المعامع، ورؤسة الدماء، ما نحمد اللّه على أن المرأة ليست كذلك وإلا فقدت الحياة أجمل ما فيها من رحمة ووداعة وحنان.

وكل ما يقال غير هذا لا يخلو من مكابرة بالأمر المحسوس، وإذا وجدت في التاريخ نساء قدن الجيوش، وخضن المعارك، فإنهن من الندرة والقلة بجانب الرجال ما لا يصح أن يتناسى معه طبيعة الجمهرة الغالبة من النساء في جميع عصور التاريخ وفي جميع الشعوب، ونحن حتى الآن لم نر في أكثر الدول تطرفا في دفع المرأة إلى كل ميادين الحياة من رضيت أن تتولى امرأة من نسائها وزارة الدفاع، أو

---

(١) آل عمران الآية (١٥٩).

(٢) آل عمران الآية (١٥٩).

رئاسة الأركان العامة لجيوشها، أو قيادة فيلق من فيالقها، أو قطع حربية من قطعاتها.

وليس ذلك مما يضير المرأة في شيء، فالحياة لا تقوم كلها على نمط واحد من العبوس والقوة والقسوة والغلظة، ولو كانت كذلك لكانت جحيما لا تطاق، ومن رحمة اللّه أن اللّه مزج قوة الرجل بحنان المرأة، وقسوته برحمتها، وشدته بلينها، وفي حنانها ورحمتها وأنوثتها سر بقائها وسر سعادتها وسعادتنا.

أما خطبة الجمعة والإمامة في الصلاة فلا ينكر أن العبادة في الديانات وبخاصة في الإسلام تقوم على الخشوع وخلو الذهن من كل ما يشغله، وليس مما يتفق مع ذلك أن تعظ الرجال امرأة أو تؤمهم في الصلاة.

على أن السبب الحقيقي في رأينا ليس هو الخطبة والإمامة ولا حل المشكلات، وإنما هو ما تقتضيه رئاسة الدولة من رباطة الجأش، وتغليب المصلحة على العاطفة، والتفرغ التام لمعالجة قضايا الدولة، وهذا مما تنأى طبيعة المرأة ورسالتها عنه.

والخلاصة: أن الإسلام بعد أن أعلن موقفه الصريح من إنسانية المرأة وأهليتها وكرامتها، نظر إلى طبيعتها وما تصلح له من أعمال الحياة، فأبعدها عن كل ما يناقض تلك الطبيعة، أو يحول دون أداء رسالتها كاملة في المجتمع، ولهذا خصها ببعض الأحكام عن الرجل زيادة أو نقصانا. كما أسقط عنها ملذات الغرض بعض الواجبات الدينية والاجتماعية كصلاة الجمعة، ووجوب الإحرام في الحج، والجهاد في غير أوقات النفير العام وغير ذلك. وليس في هذا ما يتنافى مع مبدأ مساواتها بالرجل في الإنسانية والأهلية والكرامة الاجتماعية، ولا تزال الشرائع والقوانين في كل عصر، وفي كل أمة تخص بعض الناس ببعض الأحكام لمصلحة يقتضيها ذلك التخصيص دون أن يفهم منه أي مساس بمبدأ المساواة بين المواطنين في الأهلية والكرامة»[1].

* * *

(١) المرأة بين الفقه والقانون (ص٣٩-٤٢).

قوله تعالى : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

★ غريب الآية:

الخبء : يقال لكل شيء مُدَّخَر مستور . ومنه قيل : جارية مخبأة .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «اختلف القراء في قراءة قوله : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فقرأ بعض المكيين وبعض المدنيين والكوفيين «ألا» بالتخفيف، بمعنى : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، فأضمروا «هؤلاء» اكتفاء بدلالة «يا»عليها . وذكر بعضهم سماعا من العرب : ألا يا ارحمنا ، ألا يا تصدق علينا ؛ واستشهد أيضًا ببيت الأخطل :

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر وإن كان حيانا عدا آخر الدهر

فعلى هذه القراءة اسجدوا في هذا الموضع جزم، ولا موضع لقوله «ألا»في الإعراب . وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة والبصرة ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بتشديد ألا بمعنى : وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله «ألا» في موضع نصب لما ذكرت من معناه أنه لئلا ﴿يَسْجُدُوا﴾ في موضع نصب بأن .

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء مع صحة معنييهما .

واختلف أهل العربية في وجه دخول «يا» في قراءة من قرأه على وجه الأمر ، فقال بعض نحويي البصرة : من قرأ ذلك كذلك ، فكأنه جعله أمرا ، كأنه قال لهم : اسجدوا ، وزاد «يا» بينهما التي تكون للتنبيه ، ثم أذهب ألف الوصل التي في اسجدوا ، وأذهبت الألف التي في «يا» ؛ لأنها ساكنة لقيت السين ، فصار ألا يسجدوا . وقال بعض نحويي الكوفة : هذه «يا» التي تدخل للنداء يكتفى بها من

الاسم، ويكتفى بالاسم منها، فتقول: يا أقبل، وزيد أقبل، وما سقط من السواكن فعلى هذا.

ويعني بقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ يخرج المخبوء في السماوات والأرض من غيث في السماء، ونبات في الأرض ونحو ذلك.. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يقول: ويعلم السر من أمور خلقه، هؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم والعلانية منها، وذلك على قراءة من قرأ ألا بالتشديد. وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف فإن معناه: ويعلم ما يسره خلقه الذين أمرهم بالسجود بقوله: «ألا يا هؤلاء اسجدوا». وقد ذكر أن ذلك في قراءة أبي: (ألا تسجدوا لله الذي يعلم سركم وما تعلنون).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره: اللَّه الذي لا تصلح العبادة إلا له، لا إله إلا هو، لا معبود سواه تصلح له العبادة، فأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالطاعة، ولا تشركوا به شيئًا ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني بذلك: مالك العرش العظيم الذي كل عرش، وإن عظم، فدونه، لا يشبهه عرش ملكة سبأ ولا غيره»[١].

قال الزمخشري: «فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعًا أم في إحداهما؟ قلت؛ هي واجبة فيهما جميعًا، لأن مواضع السجدة إما أمر بها، أو مدح لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك»[٢].

قال ابن القيم: «وهذا الهدهد من أهدى الحيوان.. ومن هدايته ما حكاه اللَّه عنه في كتابه أن قال لنبي اللَّه سليمان وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة، بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي اللَّه بذلك النبأ،

(١) جامع البيان (١٩/ ١٤٩-١٥١).
(٢) الكشاف (٣/ ١٤٥).

استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفا مؤكدا بأدلة التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى اللّٰه فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض»[١].

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش اللّٰه في الوصف بـ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم، لأن وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. ووصف عرش اللّٰه بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السماوات والأرض»[٢].

قال ابن كثير: «ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير، وعبادة اللّٰه وحده والسجود له، نهي عن قتله»[٣].

قال القنوجي: «وفيه دليل على إثبات العلم، والإعلان ذكره لتوسيع دائرة العلم للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى علمه تعالى، ثم بعدما وصف الرب سبحانه بما تقدم، مما يدل على عظيم قدرته، وجليل سلطانه وسعة علمه ووجوب توحيده، وتخصيصه بالعبادة»[٤].

* * *

(١) شفاء العليل (١/ ١٩٢-١٩٣).
(٢) الكشاف (٣/ ١٤٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٨).
(٤) فتح البيان (١٠/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قيل سليمان عليه السلام للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي: أصدقت في إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في مقالتك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾»[١].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك؛ فقال بعضهم: معناه: اذهب بكتابي هذا، فألقه إليهم، فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم منصرفا إلي، فقال: هو من المؤخر الذي معناه التقديم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تول عنهم، فكن قريبا منهم، وانظر ماذا يرجعون؛ قالوا: وفعل الهدهد، وسمع مراجعة المرأة أهل مملكتها، وقولها لهم: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضًا.. وهذا القول أشبه بتأويل الآية؛ لأن مراجعة المرأة قومها، كانت بعد أن ألقي إليها الكتاب، ولم يكن الهدهد لينصرف وقد أمر بأن ينظر إلى مراجعة القوم بينهم ما يتراجعونه قبل أن يفعل ما أمره به سليمان»[٢].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام. وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار»[٣].

قال ابن العربي: «قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ لم يعاقبه؛ لأنه اعتذر له، ولا أحد

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣١).
(٢) جامع البيان (١٩/ ١٥١-١٥٢).
(٣) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٩١).

أحب إليه العذر من اللَّه، ولذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين.

وكذلك يجب على الوالي أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، ولكن له أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان؛ فإنه لما قال له [الهدهد]: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ لم يستفزه الطمع، ولا استجره حب الزيادة في الملك إلى أن يعرض له، حتى قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، حينئذ غاظه ما سمع، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر، وتحصيل علم ما غاب من ذلك، حتى يغيره بالحق، ويرده إلى اللَّه تعالى»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قبول العذر وعدم الإعجال بالعقوبة

* عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ قال: «**لا أحد أحب إليه العذر من اللَّه، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «بعث المرسلين مبشرين ومنذرين أي الإعذار والإنذار لخلقه، قبل أخذهم بالعقوبة»[3].

وقال أحمد البنا: «ويحتمل أن المراد الاعتذار، أي اعتذار العباد إليه من تقصيرهم وتوبتهم من معاصيهم فيغفر لهم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[4]»[5].

* * *

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٨) والبخاري (١٣/ ٤٩٢/ ٧٤١٦) ومسلم (٢/ ١١٣٦/ ١٤٩٩).

(٣) إكمال المعلم (٥/ ٩٣).

(٤) الشورى الآية (٢٥).

(٥) بلوغ الأماني (١٩/ ٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فذهب الهدهد بكتاب سليمان إليها، فألقاه إليها فلما قرأته قالت لقومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾.. والملأ أشراف قومها، يقول تعالى ذكره: قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾.

واختلف أهل العلم في سبب وصفها الكتاب بالكريم، فقال بعضهم: وصفته بذلك لأنه كان مختومًا.

وقال آخرون: وصفته بذلك لأنه كان من ملك فوصفته بالكرم لكرم صاحبه..

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ كسرت إن الأولى والثانية على الرد على «إني» من قوله: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾. ومعنى الكلام: قالت: يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب، وإنه من سليمان.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ يقول: ألقي إلي كتاب كريم ألا تعلوا علي.

ففي «أن» وجهان من العربية: إن جعلت بدلا من الكتاب كانت رفعا بما رفع به الكتاب بدلا منه؛ وإن جعل معنى الكلام: إني ألقي إلي كتاب كريم ألا تعلوا علي كانت نصبا بتعلق الكتاب بها.

وعنى بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ ألا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه.

وقوله: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ يقول: وأقبلوا إلي مذعنين لله بالوحدانية والطاعة»[1].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٥٢-١٥٣).

قال ابن كثير: «وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها»[١].

قال السعدي: «فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب»[٢].

قال ابن العربي: «الوصف الكريم في الكتاب غاية الوصف؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[٣]. وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير، وبالأثير، وبالمبرور؛ فإن كان لملك قالوا: العزيز؛ وأسقطوا الكريم غفلة، وهو أفضلها خصلة.

فأما الوصف بالعزيز فقد اتصف به القرآن أيضًا؛ فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[٤]. فهذه عزته، وليست لأحد إلا له؛ فاجتنبوها في كتبكم، واجعلوا بدلها العالي، توقية لحق الولاية، وحياطة للديانة.

هذه البسملة آية في هذا الموضع بإجماع؛ ولذلك إن من قال: إن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليست آية من القرآن كفر، ومن قال: إنها ليست بآية في أوائل السور لم يكفر؛ لأن المسألة الأولى متفق عليها، والمسألة الثانية مختلف فيها. ولا يكفر إلا بالنص أو ما يجمع عليه»[٥].

وقد سبق الكلام عما يتعلق بالبسملة من الأحكام في افتتاحية هذا السفر الكريم بما أغنى عن الإعادة وبالله التوفيق.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٧٦).
(٣) الواقعة الآية (٧٧).
(٤) فصلت الآيتان (٤١و٤٢).
(٥) أحكام القرآن (٣/ ١٤٦٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ تقول: أشيروا علي في أمري الذي قد حضرني من أمر صاحب هذا الكتاب الذي ألقي إلي، فجعلت المشورة فتيا.

وقوله: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تقول: ما كنت قاضية أمرا في ذلك حتى تشهدون، فأشاوركم فيه.. وقوله: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يقول تعالى ذكره: قال الملأ من قوم ملكة سبأ، إذ شاورتهم في أمرها وأمر سليمان: نحن ذوو القوة على القتال، والبأس الشديد في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه، فانظري من الرأي ما ترين، فمرينا نأتمر لأمرك»[1].

قال ابن عطية: «أخذت في حسن الأدب مع رجالها ومشاورتهم في أمرهم وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر فكيف في هذه النازلة الكبرى، فراجعها الملأ بما يقر عينها من إعلامهم إياها بـ «**القوة والبأس**» أي وذلك مبذول إليك فقاتلي إن شئت، ثم سلموا الأمر إلى نظرها وهذه محاورة حسنة من الجميع»[2].

قال ابن العربي: «في هذا دليل على صحة المشاورة إما استعانة بالآراء، وإما مداراة للأولياء.. وقد مدح الله الفضلاء بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3]»[4].

قال القرطبي: «والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٥٣-١٥٤).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٥٨).

(٣) الشورى: الآية (٣٨)

(٤) أحكام القرآن (٣/ ١٤٦٠).

حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها هم في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾»[1].

قال المراغي: «وعلى هذا النهج سار الإسلام فقد قال سبحانه لنبيه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2] وقد مدح سبحانه صحابة رسوله بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3]»[4].

* * *

(١) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) آل عمران الآية (١٥٩).

(٣) الشورى الآية (٣٨).

(٤) تفسير المراغي (١٩/ ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أعزة: جمع عزيز، وهو السيد الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها، إذ عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان، إن أمرتهم بذلك: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يقول: خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ وذلك باستعبادهم الأحرار، واسترقاقهم إياهم؛ وتناهى الخبر منها عن الملوك في هذا الموضع فقال الله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما قالت صاحبة سبأ تفعل الملوك، إذا دخلوا قرية عنوة»[1].

قال ابن كثير: «قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: فوضوا أمرهم إلى علجة[2] تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأيا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا»[3].

وفي الآية قال المكي الناصري: «ما ينبغي أن يكون عليه الراعي من حصافة الرأي وتقليب وجوه النظر، والجنوح إلى الوسائل السلمية في معالجة المشاكل السياسية، بدلا من الوسائل الحربية، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه ملكة سبإ

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٥٤).

(٢) علجة: بكسر فسكون مؤنث علج وهو الرجل من كفار العجم.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٠).

صراحة وضمنا، إذ ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ تريد بقولها أن الاشتباك في الحرب مع الغزاة ليس مضمون النتيجة، فقد تكون الغلبة لهم، والهزيمة لمن وقفوا في وجوههم، وتتعرض بلادهم بذلك للخراب والدمار، ويسلك الغزاة في معاملتهم مسلك الانتقام وأخذ الثأر، ولفظ الملوك في هذا السياق يعني الملوك الغزاة ومثلهم الغزاة لو كانوا غير ملوك فالأمر يتعلق بالغزو والتغلب والاستيلاء على البلاد عنوة أولا وأخيرا»[١].

قال الشوكاني: «والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم، وقد صدقها اللَّه سبحانه فيما قالت، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي مثل ذلك الفعل يفعلون»[٢].

قال الشنقيطي في مقدمة الأضواء: «ألا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون اللَّه هي وقومها لما قالت كلاما حقًّا صدقها اللَّه فيه ولم يكن كفرها مانعا من تصديقها في الحق الذي قالته»[٣].

قال الزمخشري: «وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم. ومن استباح حراما فقد كفر فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين»[٤].

* * *

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٢٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٩٤).

(٣) أضواء البيان (١/ ٦).

(٤) الكشاف (٣/ ١٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما بينت ما في المصادمة من الخطر، أتبعته ما عزمت عليه من المسالمة، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ﴾ وأشار سبحانه إلى عظيم ما ترسل به بالجمع في قولها: ﴿إِلَيْهِم﴾ أي إليه وإلى جنوده ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ أي تقع منهم موقعا.. ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ عقب ذلك وبسببه ﴿بِمَ﴾ أي بأي شيء ﴿يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بتلك الهدية عنه من المقال أو الحال، فنعمل بعد ذلك على حسب ما نراه من أمره، فنكون قد سلمنا من خطر الإقدام على ما لم نعرف عاقبته، ولم يضرنا ما فعلنا شيئا»[(١)].

قال ابن كثير: «أي: سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها اللّه ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس»[(٢)].

قال ابن جرير: «وأسقطت الألف من «ما» في قوله: (بم) وأصله: بما، لأن العرب إذا كانت «ما» بمعنى: أي، ثم وصلوها بحرف خافض أسقطوا ألفها تفريقا بين الاستفهام وغيره، كما قال جل ثناؤه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾[(٣)] و﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾[(٤)]، وربما أثبتوا فيها الألف، كما قال الشاعر:

علاما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في تراب»[(٥)].

قال ابن العربي: «وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. وهذا لا تقبل فيه

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٦٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٠).
(٣) النبأ: الآية (١).
(٤) النساء: الآية (٩٧).
(٥) جامع البيان (١٩/ ١٥٦).

فدية، ولا تؤخذ عنه هدية. وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة من قبول الهدية بسبيل؛ وإنما هي رشوة، وبيع الحق بالمال هو الرشوة التي لا تحل.

وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل واحد، وعلى كل حال»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الهدية والتحريض عليها وقبولها وإن قلت

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة**»[٢].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**تهادوا تحابّوا**»[٣].

* عن عائشة «أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ويُثيب عليها»[٤].

★ غريب الحديث:

فرسن: بكسر الفاء والمهملة بينهما راء ساكنة وآخره نون هو عظم قليل اللحم، وهو للبعير موضع الحافر للفرس.

يُثيبُ عليها: من أثابه يُثيبُهُ إثابةً، والاسم: الثواب، والمعنى: يجازي عليها.

★ فوائد الأحاديث:

الهدية: ما أتحف، الجمع: هدايا وهَداوى، وتكسر الواو، وهداوٍ. وأهدى الهدية، وهَدّاها. والمِهْدى: الإناء يُهدى فيه، والمرأة الكثيرة الإهداء. والهِداء: أن تجيء هذه بطعام وهذه بطعام فتأكلا معًا في مكان.

قال الراغب: الهدية مختصة باللطف الذي يُهدي بعضنا إلى بعض قال تعالى:

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤) والبخاري (٦/ ٢٤٦/ ٢٥٦٦) ومسلم (٢/ ٧١٤/ ١٠٣٠) والترمذي (٤/ ٣٨٣-٣٨٤/ ٢١٣٠).

(٣) أخرجه: البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤) والبيهقي (٦/ ١٦٩) وحسنه الحافظ في «التلخيص» والألباني في «الإرواء» (٦/ ٣٣/ ١٦٠١).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٩٠) وأبو داود (٣/ ٨٠٦-٨٠٧/ ٢٤٥٩١) والترمذي (٤/ ٢٩٨/ ١٩٥٣).

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾. والمِهْدَى: الطبق الذي يُهدى عليه. والمِهْداء: من يكثر إهداء الهدية[1].

قال المهلب: «فيه الحض على التهادي والمتاحفة ولو باليسير؛ لما فيه من استجلاب المودة، وإذهاب الشحناء، واصطفاء الجيرة، ولما فيه من التعاون على أمر العيشة المقيمة للإرماق، وأيضًا فإن الهدية إذا كانت يسيرة فهي أدل على المودة، وأسقط للمؤونة، وأسهل على المهدي لاطراح التكليف»[2].

قوله: «**ولو فرسن شاة**»: أشير بذلك إلى المبالغة في إهداء الشيء اليسير وقبوله، لا إلى حقيقة الفرسن؛ لأنه لم تجر العادة بإهدائه؛ أي: لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله، بل ينبغي أن تجود لها بما تيسر وإن كان قليلًا فهو خير من العدم، وذكر الفرسن على سبيل المبالغة، ويحتمل أن يكون النهي إنما وقع للمهدى إليها وأنها لا تحتقر ما يهدى إليها ولو كان قليلًا، وحمله على الأعم من ذلك أولى.. وفي الحديث الحض على التهادي ولو باليسير؛ لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت، وإذا تواصل اليسير صار كثيرًا، وفيه استحباب المودة وإسقاط التكلف»[3].

قال ابن عبدالبر: «كان رسول اللَّه ﷺ يقبل الهدية وندب أمته إليها وفيه الأسوة الحسنة به ﷺ ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تورث المودة وتذهب العداوة.. ولقد أحسن القائل:

هدايا الناس بعضهم لبعض	تولد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في الضمير هوًى وودًا	وتكسوهم إذا حضروا جمالا

وقال غيره:

إن الهدايا لها حفظ إذا وردت	أحظى من الابن عند الوالد الحدب»[4]

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لو دُعيتُ إلى ذراع أو كراع لأجبتُ، ولو أُهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلتُ**»[5].

---

(١) المفردات (ص٨٤٠).
(٢) شرح ابن بطال (٧/ ٨٥).
(٣) فتح الباري (٥/ ٢٤٨).
(٤) فتح البر (١٠/ ٣٢٦-٣٢٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٧٩) والبخاري (٥/ ٢٤٩/ ٢٥٦٨) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٤٠/ ٦٦٠٩).

★ **غريب الحديث:**

كراع: الكراع من الدابة: ما دون الكعب. وقيل: هو اسم مكان، ولا يثبت.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «هذا حض منه لأمته على المهاداة والصلة والتأليف والتحابّ، وإنما أخبر أنه لا يحقر شيئًا مما يُهدى إليه أو يُدعى إليه؛ لئلا يمتنع الباعث من المهاداة لاحتقار المهدى، وإنما أشار بالكراع وفرسن الشاة إلى المبالغة في قبول القليل من الهدية، لا إلى إعطاء الكراع والفرسن ومهاداته؛ لأن أحدًا لا يفعل ذلك»[١].

بوّب عليه البخاري: (باب القليل من الهدية). قال العيني: «هذا باب في بيان القليل من الهبة، وأراد به أن المهدى إليه بشيء قليل لا يستقلّه ولا يردّه لقلّته»[٢].

قال القرطبي: «فلو لم يتيسر إلا القليل المحتقر فليهده ولا يحتقره، كما جاء في الحديث الآخر: «**لا تحقرنّ من المعروف شيئًا**»[٣] ويكون المهدي له مأمورًا بقبول ذلك المحتقَر، والمكافأة عليه، ولو بالشكر؛ لأنه وإن كان قدره محتقرًا، دليل على تعلق قلب المُهدي بجاره»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المكافأة على الهدية

تقدم حديث عائشة أنه ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها.

قال الحافظ: «استدل بعض المالكية بهذا الحديث على وجوب الثواب على الهدية إذا أطلق الواهب وكان ممن يطلب مثله الثواب كالفقير للغني، بخلاف ما يهبه الأعلى للأدنى، ووجه الدلالة منه مواظبته ﷺ، ومن حيث المعنى أن الذي أهدى قصد أن يعطى أكثر مما أهدى فلا أقل أن يعوض بنظير هديته، وبه قال الشافعي في القديم، وقال في الجديد كالحنفية: الهبة للثواب باطلة لا تنعقد لأنه بيع بثمن مجهول، ولأن موضوع الهبة التبرع فلو أبطلناه لكان في معنى المعاوضة،

(١) شرح ابن بطال (٧/ ٨٧-٨٨).
(٢) عمدة القاري (٩/ ٣٨١).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٣) ومسلم (٤/ ٢٠٢٦/ ٢٦٢٦) والترمذي (٤/ ٢٤٢/ ١٨٣٣).
(٤) المفهم (٦/ ٦١٢).

وقد فرق الشرع والعرف بين البيع والهبة، فما استحق العوض أطلق عليه لفظ البيع بخلاف الهبة. وأجاب بعض المالكية بأن الهبة لو لم تقتض الثواب أصلًا لكانت بمعنى الصدقة، وليس كذلك فإن الأغلب من حال الذي يهدي أنه يطلب الثواب ولاسيما إذا كان فقيرًا، والله أعلم»[1].

قال ابن بطال: «قال ابن القصار: والحجة لمالك أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها، والاقتداء به واجب لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن يبدأ به في الهدية

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**قلت: يا رسول الله إن لي جارتين فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك بابًا**»[4].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «في حديث عائشة أن أقرب الجيران أولى بالصلة والبر والرعاية، وأن صلة الأقرب منهم أفضل من صلة الأبعد إذ لا يقدر على عموم جميعهم بالهدية، وقد أكد الله تعالى ذلك في كتابه فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾[5]، فدل هذا على تفضيل الأقرب»[6].

قال ابن حجر: «الحكمة فيه أن الأقرب يرى ما يدخل بيت جاره من هدية وغيرها فيتشوف لها بخلاف الأبعد وأن الأقرب أسرع إجارة لما يقع لجاره من المهمات ولاسيما في أوقات الغفلة. وقال ابن أبي جمرة: الإهداء إلى الأقرب مندوب؛ لأن الهدية في الأصل ليست واجبة فلا يكون الترتيب فيها واجبًا. ويؤخذ من الحديث أن الأخذ في العمل بما هو أعلى أولى»[7].

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٦٣).
(٢) الأحزاب الآية (٢١).
(٣) شرح ابن بطال (٧/ ٩٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٨٧) والبخاري (٥/ ٢٧٤/ ٢٥٩٤) وأبو داود (٥/ ٣٥٨/ ٥١٥٥).
(٥) النساء الآية (٣٦).
(٦) شرح ابن بطال (٧/ ١١١).
(٧) فتح الباري (١٠/ ٥٤٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في هدية المشرك

* عن أنس بن مالك أن أكيدر دومة أهدى إلى رسول اللَّه ﷺ جبة سندس أو ديباج -شك فيه سعيد- قبل أن ينهى عن الحرير، فلبسها فتعجب الناس منها فقال: والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن منها»[١].

* عن عياض بن حمار أنه أهدى النبي ﷺ هدية أو ناقة فقال النبي ﷺ: أسلمت؟ فقال: لا، قال: فإني نهيتُ عن زَبْدِ المشركين»[٢].

★ غريب الحديثين:

أُكَيدر: بضم الهمزة وفتح الكاف وياء التصغير بعدها: تصغير (أكدر)، والكُدْرة: لون بين السواد والبياض، وهو الأغبر، وهو أكيدر بن عبدالملك الكندي. ودَومة: بفتح الدال وضمها، وأنكر ابن دُريد الفتح، وقال: أهل اللغة يقولونه بالضم، والمحدّثون بالفتح، وهو خطأ، وقال: ودومة الجندل: مجتمعه ومستداره، وهو من بلاد الشام قرب تبوك، كان أكيدر ملكها.

زَبْد المشركين: الزَّبْد بسكون الباء: الرفد والعطاء. يقال منه: زبده يزبده، بالكسر.

★ فوائد الحديثين:

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: معنى قوله: «**إني نُهيتُ عن زبد المشركين**» يعني: هداياهم، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يقبل من المشركين هداياهم وذُكر في هذا الحديث الكراهية، واحتُمِل أن يكون هذا بعد ما كان يقبل منهم ثم نهى عن هداياهم»[٣].

قال ابن العربي: «أهدت اليهود للنبي ﷺ شاة مسمومة فأكلها[٤]. قال

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٦-٢٠٧) ومسلم (٤/ ١٩١٦-١٩١٧/ ٢٤٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢) وأبو داود (٣/ ٤٤٢/ ٣٠٥٧) والترمذي (٤/ ١١٩/ ١٥٧٧) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) الجامع الصحيح (٤/ ١١٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٨)، والبخاري (٥/ ٢٨٧/ ٢٦١٧)، ومسلم (٤/ ١٧٢١/ ٢١٩٠)، وأبو داود (٤/ ٦٤٧/ ٤٥٠٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس وجابر وأبي سعيد وغيرهم رضي الله عنهم.

أبو عيسى: أهدى له كسرى والملوك فقبل. وقال: حسن صحيح. وكان لا يرد الهدية إلا لعلة كما رد على الصعب بن جثامة الحمارَ وقال: **«إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرُم»**[1]، وقال لعامله ابن اللتبية: **«هلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى ينظر أيهدى له!»**[2]، وروى أبو عيسى وغيره أن عياض بن حمار أهدى للنبي ﷺ هدية أو ناقة فقال النبي ﷺ: **«أسلمت؟»** قال: لا، قال: **«إني نهيت عن زبد المشركين»** يعني عطيتهم، حسن. ويحتمل أن يكون ذلك قبل ثم نهى عنه، ويحتمل أنه فعل ذلك لما رجا من إسلامه إذا ردها، وقيل: لأنه كان مشركًا، ورخص في هدايا أهل الكتاب كما رخص في طعامهم ونهى عن هدية المشركين كما نهى عن طعامهم، وقد روي عنه أنه قال: **«لقد هممت ألا أقبل الهدية إلا من قرشي أو أنصاري دوسي أو ثقفي»**[3]، فقيل: ذلك لأنهم أهل بادية، وليس بشيء، والمعول على ضعف الحديث. والأمر في الهدية يدور على حال المعطي والآخذ والوجه الذي يعطى عليه، فما خلص لله تعالى والصلة قُبِل، وما لم يكن كذلك رُدّ»[4].

قال الخطابي: «وفي الحديث -حديث أنس- جواز قبول هدية الكفار، وقد رُوي أن النبي ﷺ ردّ هدية عياض بن حمار، وقال: **«إنا لا نقبل زبد المشركين»**، فيحتمل أن يكون ذلك للفرق بين المشركين وغيرهم من الكفار، وذلك أن ليس كل كافر مشركًا. «المشرك»: من عبد وثنًا، أو أشرك مع اللَّه في ربوبيته شيئًا. و«أُكَيدر»: رجل من أهل الكتاب كان يؤدي إلى رسول اللَّه ﷺ الجزية.

ويحتمل أن يكون الرد إنما كان في أول الزمان، فنُسخ ذلك بالقبول آخر الزمان، وقد كان له ﷺ في أموال الكفار حقوق، وكان الفيء له يصرفه حيث شاء، فعلى أيّ وجه حصل في يده لم يكن يجب عليه الامتناع منه.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٨)، والبخاري (٤/ ٣٨/ ١٨٢٥)، ومسلم (٢/ ٨٥٠/ ١١٩٣)، والترمذي (٣/ ٢٠٦/ ٨٤٩)، والنسائي (٥/ ٢٠٢/ ٢٨١٨-٢٨١٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣٢/ ٣٠٩٠).

(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٢٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٩٦)، وأبو داود (٣/ ٨٠٧/ ٣٥٣٧) مختصرًا، والترمذي (٥/ ٦٨٦/ ٣٩٤٥)، واللفظ له، والنسائي (٦/ ٥٩٥/ ٣٧٦٨)، والحاكم (٢/ ٦٢-٦٣) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٢٩٥/ ٦٣٨٣) مختصرًا.

(٤) عارضة الأحوذي (٧/ ٧١-٧٣).

فأما المسلمون فإنه كان إذا أهدوا له هدية قبلها، وأثابهم عليها»[١].

وقال: «في رده هديته وجهان: أحدهما: أن يغيظه برد الهدية فيمتعض منه فيحمله ذلك على الإسلام. والآخر أن للهدية موضعًا من القلب، وقد روي: «**تهادوا تحابوا**»، ولا يجوز عليه ﷺ أن يميل بقلبه إلى مشرك فرد الهدية قطعًا لسبب الميل.

وقد ثبت أن النبي ﷺ قبل هدية النجاشي وليس ذلك بخلاف لقوله: «**نهيت عن زبد المشركين**» لأنه رجل من أهل الكتاب ليس بمشرك، وقد أبيح لنا طعام أهل الكتاب ونكاحهم وذلك خلاف حكم أهل الشرك»[٢].

قال ابن حجر: «جمع بينها الطبري -أي: بين أحاديث المنع وأحاديث الجواز- بأن الامتناع فيما أهدي له خاصة والقبول فيما أهدي للمسلمين، وفيه نظر لأن من جملة أدلة الجواز ما وقعت الهدية فيه له خاصة، وجمع غيره بأن الامتناع في حق من يريد بهديته التودد والموالاة، والقبول في حق من يرجى بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام، وهذا أقوى من الأول. وقيل: يحمل القبول على من كان من أهل الكتاب، والرد على من كان من أهل الأوثان. وقيل: يمتنع ذلك لغيره من الأمراء، وأن ذلك من خصائصه. ومنهم من ادعى نسخ المنع بأحاديث القبول، ومنهم من عكس. وهذه الأجوبة الثلاثة ضعيفة فالنسخ لا يثبت بالاحتمال ولا بالتخصيص»[٣].

قال ابن بطال: «يحتمل أن يكون ترك قبوله هديته لما في ذلك من التأنيس والتحابّ، ومن حادّ اللّه وشاقّه حرم على المؤمنين موالاته، ألا ترى أنه عليه السلام جعل علة ردها لما لم يسلم. .

وبان به أن قبول النبي ﷺ هدية من قبل هديته من المشركين إنما كان على وجه التأنيس له والاستئلاف، ورجاء إنابتهم إلى الإسلام، ومن يئس من إسلامه منهم رد هديته»[٤].

(١) أعلام الحديث (٢/ ١٢٨٥-١٢٨٦).
(٢) معالم السنن (٣/ ٣٦).
(٣) فتح الباري (٥/ ٢٨٨).
(٤) شرح ابن بطال (٧/ ١٣١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الهدية للمشرك

* عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأى عمر حلة على رجل تُباع، فقال للنبي ﷺ: ابتع هذه الحلة تلبَسْها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفد، فقال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة». فأتي رسول الله ﷺ منها بحلل، فأرسل إلى عمر منها بحلة، فقال عمر: كيف ألبسها وقد قلتَ فيها ما قلتَ؟ قال: «**إني لم أكسُكَها لتلبسها، تبيعُها أو تكسوها. فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم**»[١].

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «**قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ**، فاستفتيتُ رسول الله ﷺ قلتُ: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم، صِلي أمك»[٢].

⋆ غريب الحديثين:

راغبة: للطبراني: «**راغبة راهبة**» وفي حديث عائشة عند ابن حبان: «**جاءتني راغبة راهبة**» وهو يؤيد رواية الطبراني. والمعنى أنها قدمت طالبة في بر ابنتها لها خائفة من ردها إياها خائبة، هكذا فسره الجمهور.

⋆ فوائد الحديثين:

بوّب البخاري: «باب الهدية للمشركين، وقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾»[٣].

قال الحافظ: «المراد منها بيان من يجوز بره منهم، وأن الهدية للمشرك إثباتًا ونفيًا ليس على الإطلاق، ومن هذه المادة قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[٤] الآية، ثم البر والصلة

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠) والبخاري (٥/ ٢٩٠/ ٢٦١٩) ومسلم (٣/ ١٦٣٩-١٦٤٠/ ٢٠٦٨و٨و٩) وأبو داود (٤/ ٣٢١/ ٤٠٤١) والنسائي (٨/ ٥٨٣/ ٥٣١٠) وابن ماجه (٢/ ١١٨٧/ ٣٥٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤٤) والبخاري (٥/ ٢٩١/ ٢٦٢٠) ومسلم (٢/ ٦٩٦/ ١٠٠٣) وأبو داود (٢/ ٣٠٧/ ٣٠٨).

(٣) الممتحنة الآية (٨).

(٤) لقمان الآية (١٥).

والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[١] الآية، فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل، والله أعلم»[٢].

قال ابن بطال: «روى الطبري عن ابن الزبير أن قول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٣] نزلت في أم أسماء بنت أبي بكر، وكان اسمها (قتيلة) بنت عبدالعزيز. وقالت طائفة: نزلت في مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجهم من ديارهم.

وقال مجاهد: هو خطاب للمؤمنين الذين بقوا بمكة ولم يهاجروا.

وقال السدي: كان هذا قبل أن يؤمر بقتال المشركين كافة، فاستشار المسلمون النبي في قراباتهم من المشركين أن يبروهم ويصلوهم، فأنزل الله هذه الآية.

في تفسير الحسن قال قتادة وابن زيد: «ثم نسخ ذلك، ولا يجوز اليوم مهاداة المشركين ولا متاحفتهم إلا للأبوين خاصة؛ لأن الهدية فيها تأنيس للمهدى إليه، وإلطاف له، وتثبيت لمودته، وقد نهى الله عن التودد للمشركين بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟﴾[٤] الآية.

وإنما بعث عمر بالحلة إلى أخيه المشرك بمكة على وجه التأليف له على الإسلام؛ لأنه كان طمع بإسلامه، وكان التألف على الإسلام حينئذ مباحًا، وقد تألف رسول الله صناديد قريش، وجعل الله للمؤلفة قلوبهم سهمًا في الصدقات، وكذلك فعلت أسماء في أمها؛ لأن الله قد أمر بصلة الآباء الكفار وبرهما بقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٥] الآية، فأمر تعالى بمصاحبة الأبوين المشركين في الدنيا بالمعروف، وبترك طاعتهما في معصية الله»[٦].

---

(١) المجادلة الآية (٢٢).
(٢) فتح الباري (٥/ ٢٩١).
(٣) الممتحنة الآية (٨).
(٤) الممتحنة: الآية (١).
(٥) لقمان: الآية (١٥).
(٦) ابن بطال (٧/ ١٣٦-١٣٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في هدايا العمّال

* عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول اللَّه ﷺ رجلًا على صدقات بني سليم يُدعى ابن اللُّتبيّة، فلما جاء حاسَبَه قال: هذا مالكم وهذا هدية، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«فهلاّ جلستَ في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا!»**، ثم خطبنا فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: **«أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاّني اللَّه، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، واللَّه لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي اللَّه يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحدًا منكم لقي اللَّه يحمل بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعَرُ»**. ثم رفع يديه حتى رُئي بياض إبطه يقول: **«اللهم هل بلّغتُ؟»** بَصُرَ عيني وسَمْعَ أذني[1].

★ غريب الحديث:

رغاء: صوت الإبل، ويطلق على غيره من الأصوات.

خوار: صوت البقر.

تيعر: من يعرت الشاة تيعر يُعارًا بالضم: صاحت.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «في هذا بيان أن هدايا العمّال سحت، وأنه ليس سبيلها سبيل سائر الهدايا المباحة، وإنما يهدى إليه للمحاباة وليخفف عن المهدي، ويسوغ له بعض الواجب عليه وهو خيانة منه وبخس للحق الواجب عليه استيفاؤه لأهله.

وفي قوله: **«ألا جلس في بيت أمه أو أبيه فينظر أيُهدى إليه أم لا»** دليل على أن كل أمر يتذرع به إلى محظور فهو محظور»[2].

قال ابن بطال: «فيه أن ما أُهدي إلى العامل وخدمة السلطان بسبب سلطانهم أنه لبيت مال المسلمين.. إلا أن يكون الإمام يُبيح له قبول الهدية لنفسه فلذلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٢٣) والبخاري (٥/ ٢٧٥/ ٢٥٩٧) ومسلم (٣/ ١٤٦٣/ ١٨٣٢) وأبو داود (٣/ ٣٥٤-٣٥٥/ ٢٩٤٦).

(٢) معالم السنن (٣/ ٨).

تطيب له»[١].

فيه: «منع العمّال من قبول الهدية ممن له عليه حكم. . ومحل ذلك إذا لم يأذن له الإمام في ذلك، لما أخرجه الترمذي[٢] من رواية قيس بن أبي حازم عن معاذ بن جبل قال: «بعثني رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن فقال: لا تصيبن شيئًا بغير إذني فإنه غلول»، وقال المهلب: فيه أنها إذا أخذت تجعل في بيت المال ولا يختص العامل منها إلا بما أذن له فيه الإمام»[٣].

قال ابن المنير: «يؤخذ من قوله: «**هلاّ جلس في بيت أبيه وأمه**» جواز قبول الهدية ممن كان يُهاديه قبل ذلك»[٤].

وبوّب البخاري رَحِمَهُ اللهُ على الحديث بقوله: «باب احتيال العامل ليهدى إليه».

قال ابن بطال: «قال المهلب: حيلة العامل ليهدى إليه إنما تكون بأن يضع من حقوق المسلمين في سعايته ما يعوضه من أجله الموضوع له، فكأن الحيلة إنما هي أن وضع من حقوق المسلمين ليستجزل لنفسه، فاستدل النبي ﷺ على أن الهدية لم تكن للمعوض فقال: فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا. فغلب الظن وأوجب أخذ الهدية وضمها إلى أموال المسلمين.

قال غيره: وهذا الحديث يدل على أن ما أهدي إلى العامل في عمالته والأمير في إمارته شكرًا لمعروف صنعه أو تحببًا إليه أنه في ذلك كله كأحد المسلمين لا فضل له عليهم فيه؛ لأنه بولايته عليهم نال ذلك، فإن استأثر به فهو سحت، والسحت كل ما يأخذه العامل والحاكم على إبطال حق أو تحقيق باطل وكذلك ما يأخذه على القضاء بالحق»[٥].

قال الحافظ: «مطابقته للترجمة من جهة أن تملكه ما أُهدي له إنما كان لعلة كونه عاملًا فاعتقد أن الذي أُهدي له يستبد به دون أصحاب الحقوق التي عمل فيها، فبين له النبي ﷺ أن الحقوق التي عمل لأجلها هي السبب في الإهداء له وأنه لو أقام في

---

(١) شرح ابن بطال (٨/ ٢٤٨).

(٢) في سننه (٣/ ٦١٢/ ١٣٥٥) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) فتح الباري (١٣/ ٢٠٨).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٠٨).

(٥) شرح ابن بطال (٨/ ٣٣٣).

منزله لم يهد له شيء، فلا ينبغي له أن يستحلها بمجرد كونها وصلت إليه على طريق الهدية فإن ذاك إنما يكون حيث يتمحض الحق له»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرجوع في الهبة والهدية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **«ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه»**[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «**«ليس لنا مثل السوء»** أي: لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات في أخس أحوالها، قال الله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[٣] ولعل هذا أبلغ في الزجر عن ذلك وأدل على التحريم مما لو قال مثلًا: لا تعودوا في الهبة، وإلى القول بتحريم الرجوع في الهبة بعد أن تقبض ذهب جمهور العلماء، إلا هبة الوالد لولده جمعًا بين هذا الحديث وحديث النعمان»[٤].

قال أبو عمر ابن عبد البر: «وللأب عند الشافعي أن يرجع فيما وهب لبنيه، وسواء استحدث الابن دينا أو نكح أو لم يفعل شيئًا من ذلك، فإن كان الابن صغيرا في مذهب الشافعي فإشهاد أبيه وإعلانه بما يعطيه حيازة له لا يشركه فيها أحد من ورثة أبيه إن مات وهي للصغير أبدا وإن كبر وبلغ رشيدا، ولا يحتاج فيها إلى قبض آخر وما لم يرجع فيها أبوه بإشهاد يبين به رجوعه في تلك الهبة فهي للابن وعلى ملكه، فإن رجع فيها الأب بالقول والإعلان وعرف ذلك كان ذلك له وإلا فهي للابن وعلى ملكه على أصل إشهاده بالهبة له وهو صغير ولا يضره موته وهي بيده لأنها قد نفذت له وهو صغير فما لم يرجع فيها الأب بالقول فهي على ذلك الأصل في مذهبه عندي والله أعلم، وسنذكر قول مالك في ذلك بعد هذا إن شاء الله، وقال

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧) والبخاري (٥/ ٢٩٣/ ٢٦٢١) والترمذي (٣/ ٥٩٢/ ١٢٩٨) والنسائي (٦/ ٥٧٧-٥٧٨/ ٣٦٩٧-٣٧٠٢).

(٣) النحل الآية (٦٠).

(٤) فتح الباري (٥/ ٢٩٤).

أبو ثور وأحمد بن حنبل تصح الهبة والصدقة غير مقبوضة وسواء كانت الهبة مشاعا أو غير مشاع والقبض فيهما عندهما كالقبض في البيع وروي عن علي بن أبي طالب أن الهبة تجوز وتصح وإن لم تقبض من وجه ضعيف لا نحتج بمثله ولم يختلف قول أبي ثور في ذلك في شيء من كتبه، وأما أحمد بن حنبل فقد اختلف عنه في ذلك وأصح شيء في ذلك عن أحمد أن الهبة والصدقة فيما يكال أو يوزن لا يصح شيء منها إلا بالقبض وما عدا المكيل والموزون فالهبة صحيحة جائزة بالقول وإن لم يقبض وذلك كله إذا قبلها الموهوب له، والمشاع وغير المشاع في ذلك سواء كالبيع وقال أبو ثور كل من عدا الأب فليس له أن يرجع في هبته سواء أراد بها الثواب أو لم يرد وحجته في ذلك كحجة الشافعي حديث ابن عباس المذكور عن النبي ﷺ قوله: «**لا يحل لأحد أن يرجع في هبته إلا الوالد**»[1] وهو قول طاوس والحسن وأما أحمد بن حنبل فقال لا يحل لواهب أن يرجع في هبته ولا لمهد أن يرجع في هديته وإن لم يثب عليها، واحتج بقول رسول اللّٰه ﷺ العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه وهو قول قتادة. قال قتادة: لا أعلم القيء إلا حراما والجد عند أبي ثور كالأب. وقالت طائفة يرجع الوالدان والجد فيما وهبوا ولا يرجع غيرهم. وقال إسحاق ما وهب الرجل لامرأته فليس له أن يرجع فيه وما وهبت المرأة لزوجها: فلها أن ترجع فيه وهو قول شريح وغيره من التابعين؛ ويحتج من ذهب هذا المذهب بحديث مروان عن عمر بن الخطاب قال: إن النساء يعطين رغبة ورهبة وأجاز إسحاق الهبة للثواب على نحو قول مالك وأبي حنيفة ومن تابعهم»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٧) وأبو داود (٣/ ٨٠٨-٨١٠/ ٣٥٣٩) والترمذي (٣/ ٥٩٣/ ١٢٩٩) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) فتح البر (١٢/ ٣٩٦-٣٩٧).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: جاءه الرسل بالهدية ﴿قَالَ﴾ منكرا عليهم ومتغيظا على عدم إجابتهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فليست تقع عندي موقعا ولا أفرح بها قد أغناني اللَّه عنها وأكثر علي النعم، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لحبكم للدنيا وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله»[1].

قال أبو السعود: «وفائدة الإضراب التنبيه على أن إمداده -عليه الصلاة والسلام- بالمال منكر قبيح، وعد ذلك مع أنه لا قدر له عنده -عليه الصلاة والسلام- مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به أدخل. وقيل: المضاف إليه المهدى إليه والمعنى بل أنتم بما يهدى إليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما أنكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٧٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٨٥).

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صاغرون: أذلاء مهانون. والصغار: الذلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: بهديتهم، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من بلدهم، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام. ولما تحقق سليمان ﷺ، قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسره»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل العلم في الحين الذي قال فيه سليمان ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ فقال بعضهم: قال ذلك حين أتاه الهدهد بنبأ صاحبة سبأ، وقال له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وأخبره أن لها عرشا عظيما، فقال له سليمان ﷺ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فكان اختباره صدقه من كذبه بأن قال لهؤلاء: أيكم يأتيني بعرش هذه المرأة قبل أن يأتوني مسلمين. وقالوا إنما كتب سليمان الكتاب مع الهدهد إلى المرأة بعد ما صح عنده صدق الهدهد بمجيء العالم بعرشها إليه على ما وصفه به الهدهد، قالوا: ولولا ذلك كان محالا أن يكتب معه كتابا إلى من لا يدري، هل هو في الدنيا أم لا؟ قالوا: وأخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتابًا إلى المرأة قبل مجيء عرشها إليه، وقبل علمه صدق الهدهد بذلك، لم يكن لقوله له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ معنى؛ لأنه لا يسلم بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك، إلا نحو الذي علم بخبره الأول حين قال له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ قالوا: وإن لم يكن في الكتاب معهم امتحان صدقه من كذبه، وكان محالا أن يقول نبي اللّه قولا لا معنى له وقد قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ علم أن الذي امتحن به صدق الهدهد من كذبه هو مصير عرش المرأة إليه، على ما أخبره به الهدهد الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها.. وقال آخرون: بل إنما اختبر صدق الهدهد سليمان بالكتاب، وإنما سأل من عنده إحضاره عرش المرأة بعد ما خرجت رسلها من عنده، وبعد أن أقبلت المرأة إليه.. وتأويل الكلام: قال سليمان لأشراف من حضره من جنده من الجن والإنس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ يعني سريرها.. واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله خص سليمان مسألة الملأ من جنده إحضار عرش هذه المرأة من بين أملاكها قبل إسلامها، فقال بعضهم: إنما فعل ذلك لأنه أعجبه حين وصف له الهدهد صفته، وخشي أن تسلم فيحرم عليه مالها،

فأراد أن يأخذ سريرها ذلك قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها . . وقال آخرون: بل فعل ذلك سليمان ليعاتبها به، ويختبر به عقلها، هل تثبته إذا رأته، أم تنكره؟ . . واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فقال بعضهم: معناه: قبل أن يأتوني مستسلمين طوعا . . وقال آخرون: بل معنى ذلك: قبل أن يأتوني مسلمين الإسلام الذي هو دين اللَّه . . قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في السبب الذي من أجله خص سليمان بسؤاله الملأ من جنده بإحضاره عرش هذه المرأة دون سائر ملكها عندنا، ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة اللَّه وعظيم شأنه، أنها خلفته في بيت في جوف أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه اللَّه من ذلك كله، بغير فتح أغلاق وأقفال، حتى أوصله إلى وليه من خلقه، وسلمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوته.

فأما الذي هو أولى التأويلين في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ بتأويله، فقول ابن عباس الذي ذكرناه قبل، من أن معناه طائعين، لأن المرأة لم تأت سليمان إذ أتته مسلمة، وإنما أسلمت بعد مقدمها عليه وبعد محاورة جرت بينهما ومساءلة»[١].

قال الرازي: «دلالة على أنها عزمت على اللحوق بسليمان، ودلالة على أن أمر ذلك العرش كان مشهورا، فأحب أن يحصل عنده قبل حضورها»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٥٨-١٦١).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عفريت: العفريت: القوي المتمرد من الجن، الخبيث منها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قال رئيس من الجن مارد قوي. وللعرب فيه لغتان: عفريت، وعفرية؛ فمن قال: عفرية، جمعه: عفاري؛ ومن قال: عفريت، جمعه: عفاريت.. وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ﴾ يقول: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مقعدك هذا.. وقوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ على ما فيه من الجواهر، ولا أخون فيه. وقد قيل: أمين على فرج المرأة»[1].

قال ابن كثير: «ومن هاهنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه. هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٦١-١٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾

★ **غريب الآية:**

الطرف: تحريك الأجفان وعبر به عن النظر إذ كان تحريك الأجفان لازمه النظر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول جل ثناؤه: قال الذي عنده علم من كتاب اللَّه.. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أنا آتيك به قبل أن يصل إليك من كان منك على مد البصر.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: من قبل أن يبلغ طرفك مداه وغايته.. قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: قبل أن يرجع إليك طرفك من أقصى أثره، وذلك أن معنى قوله: ﴿يَرْتَدَّ إِلَيْكَ﴾ يرجع إليك البصر، إذا فتحت العين غير راجع، بل إنما يمتد ماضيا إلى أن يتناهى ما امتد نوره. فإذا كان ذلك كذلك، وكان اللَّه إنما أخبرنا عن قائل ذلك ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ لم يكن لنا أن نقول: أنا آتيك به قبل أن يرتد راجعا ﴿إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ من عند منتهاه»[1].

قال ابن عاشور: «وهذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة لقوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وأن قوة العناصر طبيعة فيها، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضًا. فذكر في هذه القصة مثلا لتغلب العلم على القوة»[2].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٦٢-١٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: « ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ سليمان ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حمد اللَّه تعالى على إقداره وملكه وتيسير الأمور له و ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن هذا الشكر لا ينتفع اللَّه به وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه فقال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ غني عن أعماله كريم كثير الخير يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها وكفرها داع لزوالها»[1].

قال ابن جرير: «وإنما دعاهم إلى شكره تعريضا منه لهم للنفع، لا لاجتلاب منه بشكرهم إياه نفعا إلى نفسه، ولا دفع ضر عنها ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ يقول: ومن كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه، لنفسه ظلم، وحظها بخس، واللَّه غني عن شكره، لا حاجة به إليه، لا يضره كفر من كفر به من خلقه، كريم، ومن كرمه إفضاله على من يكفر نعمه، ويجعلها وصلة يتوصل بها إلى معاصيه»[2].

قال ابن عاشور: «ولما ذكر الفضل أضافه إلى اللَّه بعنوان كونه ربه لإظهار أن فضله عليه عظيم إذ هو عبد ربه. فليس إحسان اللَّه إليه إلا فضلا محضا ولم يشتغل سليمان حين أحضر له العرش بأن يبتهج بسلطانه ولا بمقدرة رجاله ولكنه انصرف إلى شكر اللَّه تعالى على ما منحه من فضل وأعطاه من جند مسخرين بالعلم والقوة فمزايا جميعهم وفضلهم راجع إلى تفضيله.

وضرب حكمة خلقية دينية وهي ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٨٠).

(٢) جامع البيان (١٩/ ١٦٥).

كَرِيمٌ﴾؛ فكل متقرب إلى اللَّه بعمل صالح يجب أن يستحضر أن علمه إنما هو لنفسه يرجو به ثواب اللَّه ورضاه في الآخرة ويرجو دوام التفضل من اللَّه عليه في الدنيا فالنفع حاصل له في الدارين ولا ينتفع اللَّه بشيء من ذلك»[١].

قال الرازي: «ثم إنه ﷺ بين أن نفع الشكر عائد إلى الشاكر لا إلى اللَّه تعالى، أما أنه عائد إلى الشاكر فلوجوه:

أحدها: أنه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر.

وثانيها: أنه يستمد به المزيد على ما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢].

وثالثها: أن المشتغل بالشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة في الشرف»[٣].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٢).

(٢) إبراهيم: الآية (٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٩٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نكروا: التنكير: تغيير الشيء بحيث لا يعرف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذا من جملة المحاورة التي جرت بين سليمان عليه السلام وبين ملئه، ولذلك لم يعطف لأنه جرى على طريقة المقاولة والمحاورة»[1].

قال ابن كثير: «لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾»[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: عرض عليها عرشها، وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم»[١].

قوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ **قال أبو السعود**: «لم يقل: (أهذا عرشك) لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين حالها»[٢].

قال السعدي: «لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتنكير ولم تنف أنه هو لأنها عرفته، فأتت بلفظ محتمل للأمرين صادق على الحالين، فقال سليمان متعجبا من هدايتها وعقلها وشاكرا لله أن أعطاه أعظم منها. ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه الملكة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة فأذعنا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه»[٣].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٤).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٨٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٨١-٥٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ومنع هذه المرأة صاحبة سبأ ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ وذلك عبادتها الشمس أن تعبد اللّه.. ولو قيل: معنى ذلك: وصدها سليمان ما كانت تعبد من دون اللّه بمعنى: منعها وحال بينها وبينه كان وجها حسنا، ولو قيل أيضًا: وصدها اللّه ذلك بتوفيقها للإسلام كان أيضًا وجها صحيحا. وقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ يقول: إن هذه المرأة كانت كافرة من قوم كافرين. وكسرت الألف من قوله (إنها) على الابتداء. ومن تأول قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ التأويل الذي تأولنا، كانت (ما) من قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾ في موضع رفع بالصد، لأن المعنى فيه لم يصدها عن عبادة اللّه جهلها، وأنها لا تعقل، إنما صدها عن عبادة اللّه عبادتها الشمس والقمر، وكان ذلك من دين قومها وآبائها، فاتبعت فيه آثارهم. ومن تأوله على الوجهين الآخرين كانت (ما) في موضع نصب»[1].

قال السعدي: «قال اللّه تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل ولكن العقائد الباطلة تذهب ببصيرة القلب ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٨٢).

قوله تعالى : ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الصرح : القصر، وكل بناء عالٍ صرحٌ . أصله من الوضوح . يقال : صرح بالأمر : أي كشفه وأوضحه .

لجة : اللجة : معظم الماء، جمعها لجج .

ممرد : أي : مُمَلَّس، ومنه الأمرد لخلو وجهه من الشعر .

قوارير : جمع قارورة، وهي الزجاجة .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «ذكر أن سليمان لما أقبلت صاحبة سبإ تريده، أمر الشياطين فبنوا له صرحا، وهو كهيئة السطح من قوارير، وأجرى من تحته الماء ليختبر عقلها بذلك، وفهمها على نحو الذي كانت تفعل هي من توجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكور منهم والإناث معاتبة بذلك كذلك»[(١)] .

قال ابن كثير : «والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب -سامحهما اللّه تعالى- فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا اللّه، سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة .

أصل الصرح في كلام العرب : هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال اللّه، ﷻ ،

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٦٨) .

إخبارا عن فرعون -لعنه الله- أنه قال لوزيره هامان: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[1]. والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد أي: المبني بناءً محكمًا أملس ﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ أي: زجاج. وتمريد البناء تمليسه. ومارد: حصن بدومة الجندل.

والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه اللَّه تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر اللَّه وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله، عز وجل، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون اللَّه، ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا»[2].

قال ابن عاشور: «وعلمت أن دينها ودين قومها باطل فاعترفت بأنها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس. وهذا درجة أولى في الاعتقاد وهو درجة التخلية، ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي درجة التحلي بالإيمان الحق فقالت: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فاعترفت بأن اللَّه هو رب جميع الموجودات، وهذا مقام التوحيد»[3].

وقال أيضًا: «ومكان العبرة منها الاتعاظ بحال هذه الملكة، إذ لم يصدها علو شأنها وعظمة سلطانها مع ما أوتيته من سلامة الفطرة وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد وتوقن بفساد الشرك وتعترف بالوحدانية لله، فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الإسلامي إلا لسخافة أحلامهم أو لعمايتهم عن الحق وتمسكهم بالباطل وتصلبهم فيه. ولا أصل لما يذكره القصاصون وبعض المفسرين من أن سليمان تزوج بلقيس، ولا أن له ولدا منها»[4].

* * *

---

(١) غافر الآيتان (٣٦و٣٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذا مثل ثالث ضربه اللَّه لحال المشركين مع المؤمنين وجعله تسلية لرسوله ﷺ بأن له أسوة بالرسل والأنبياء من قبله.

والانتقال من ذكر ملك سليمان وقصة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جوار البلاد، لأن ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان وكانت في طريق السائر من سبأ إلى فلسطين.

ألا ترى أنه أعقب ذكر ثمود بذكر قوم لوط وهم أدنى إلى بلاد فلسطين، فكان سياق هذه القصص مناسبا لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين. ولما كان ما حل بالقوم أهم ذكرا في هذا المقام قدم المجرور على المفعول لأن المجرور هو محل العبرة، وأما المفعول فهو محل التسلية، والتسلية غرض تبعي»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه اللَّه إليهم، فدعاهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر -كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[2].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لم تدعون بحضور

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٢) الأعراف الآيتان (٧٥و٧٦).

العذاب، ولا تطلبون من اللَّه رحمته؟ ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه أرسل نبيه صالحًا إلى ثمود، فإذا هم فريقان يختصمون، ولم يبين هنا خصومة الفريقين، ولكنه بين ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة، الخصومة في الكفر والإيمان»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٧).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٠٦).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

★ غريب الآية:

اطيرنا: من التطير: وهو التشاؤم. وأصله أن الرجل من العرب إذا هم بالأمر زجر الطير فإن أخذ يمينًا تفاءل، وإن أخذ يسارًا تشاءم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قالت ثمود لرسولها صالح ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال لهم: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند اللّه علمه، لا يدري أي ذلك كائن، أما تظنون من المصائب أو المكاره، أم ما لا ترجونه من العافية والرجاء والمحاب؟.. وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ يقول: بل أنتم قوم تختبرون، يختبركم ربكم إذ أرسلني إليكم، أتطيعونه، فتعملون بما أمركم به، فيجزيكم الجزيل من ثوابه؟ أم تعصونه بخلافه، فيحل بكم عقابه؟»[1].

قال ابن كثير: «وهذا كما قال تعالى إخبارا عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾[3] أي: بقضاء اللّه وقدره. وقال مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾[4]. وقال هؤلاء: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: اللّه

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٧١).
(٢) الأعراف الآية (١٣١).
(٣) النساء الآية (٧٨).
(٤) يس الآيتان (١٨و١٩).

يجازيكم على ذلك»[١].

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، قال بعض العلماء تختبرون وقال بعضهم: تعذبون كقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝﴾[٢] وقد قدمنا أن أصل الفتنة في اللغة وضع الذهب في النار ليختبر بالسبك أزائف هو أم خالص؟ وأنها أطلقت في القرآن على أربعة معان:

الأول: إطلاقها على الإحراق بالنار كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[٣] أي حرقوهم بنار الأخدود على أحد التفسيرين. وقد اختاره بعض المحققين.

المعنى الثاني: إطلاق الفتنة على الاختبار، وهذا هو أكثرها استعمالا كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[٥]. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

الثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، ومن هنا أطلقت الفتنة على الكفر والضلال كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٦] أي حتى لا يبقى شرك، وهذا التفسير الصحيح، دل عليه الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقد دل عليه في قوله بعده في البقرة: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[٧] وفي الأنفال: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[٨] فإنه يوضح أن معنى: لا تكون فتنة، أي لا يبقى شرك، لأن الدين لا يكون كله لله، ما دام في الأرض شرك كما ترى.

وأما السنة ففي قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»**[٩] فقد جعل ﷺ الغاية التي ينتهي إليها قتاله للناس، هي شهادة ألا إله إلا اللَّه، وأن محمدا رسول اللَّه ﷺ وهو واضح في أن معنى: لا تكون فتنة: لا يبقى شرك، فالآية والحديث كلاهما دال على أن الغاية التي ينتهي إليها قتال الكفار هي ألا يبقى في الأرض شرك، إلا أنه تعالى في الآية عبر عن هذا المعنى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٤١).
(٢) الذاريات الآية (١٣).
(٣) البروج الآية (١٠).
(٤) الأنبياء الآية (٣٥).
(٥) الجن الآيتان (١٦و١٧).
(٦) الأنفال الآية (٣٩).
(٧) البقرة الآية (١٩٣).
(٨) الأنفال الآية (٣٩).
(٩) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٣) والبخاري (١/ ١٠٢/ ٢٥) ومسلم (١/ ٥٣/ ٣٦).

بقوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وقد عبر ﷺ بقوله: «**حتى يشهدوا ألا إله إلا الله**» فالغاية في الآية والحديث واحدة في المعنى. كما ترى.

الرابع: هو إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[١] أي لم تكن حجتهم، كما قاله غير واحد. والعلم عند الله تعالى»[٢].

قال القرطبي: «ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة.

ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدورا فقد جهل.

وقال الشاعر:

طيرة الدهر لا ترد قضاء ... فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
أي يوم يخصه بسعود ... والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعود ... ونحوس تجري لقوم فقوم

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، وكانت إذا أرادت سفرا نفرت طائرا، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت، فنهى النبي ﷺ عن ذلك»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن الطيرة

* عن أم كرز الكعبية قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أقروا الطير على مكانتها**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال البغوي: «قوله: «**أقروا الطير على مكانتها**» قال أبو زياد الكلابي: لا يعرف للطير مكنات، وإنما هي الوكنات، وهي موضع عش الطائر. وقال أبو عبيد: المكنات بيض الضباب، واحدها مكنة، فجعل للطير على وجه الاستعارة، وقيل

---

(١) الأنعام الآية (٢٣).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٠٧-٤٠٩).
(٣) جامع أحكام القرآن (١٣/ ٢١٤).
(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨١) وأبو داود (٣/ ٢٥٧-٢٥٨/ ٢٨٣٥) وابن حبان (١٣/ ٤٩٥/ ٦١٢٦).

على مكانتها أي أمكنتها. وقال شمر: هي جمع المكنة وهي التمكن، وهذا مثل التبعة للتتبع، والطلبة للتطلب.

ثم اختلفوا في المراد من إقرار الطير على مكانتها، فقال بعضهم: معناه كراهية صيد الطير بالليل، وقيل: فيه النهي عن زجر الطير، معناه: أقروها على مواضعها التي جعلها اللَّه بها من أنها لا تضر ولا تنفع، ويحكى عن الشافعي ﷺ أنه حمله على النهي عن زجر الطير، وذلك أن العرب كانت تولع بالعيافة وزجر الطير، فكان الواحد منهم إذا خرج من بيته لسفر أو حاجة نظر هل يرى طائرا يطير، فإن لم ير هيج طائرا عن مكانه، فإن طار من جانب يساره إلى يمينه سماه سانحا وتفاءل به ومضى لأمره، وإن طار من جانب يمينه إلى يساره سماه بارحا وتطير به، ولم يمض لأمره، لأنه في هذه الصورة يكون يسار الطائر إليه، فأمرهم النبي ﷺ أن يقروا الطير على أمكنتها، ولا يطيروها ولا يزجروها»[1].

قال ابن القيم: «فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن اللَّه سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببا لما يخافونه ويحذرونه لتطمئن قلوبهم، ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السماوات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار، فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه، والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهله ألبتة.. فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على اللَّه قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها»[2].

* * *

---

(١) شرح السنة (١١/ ٢٦٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ٢٨١-٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

★ غريب الآية:

رهط: العصابة دون العشرة وقيل: يقال إلى الأربعين.

تقاسموا: أي: حلف بعضهم لبعض، من القسم وهو الحلف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وكان في مدينة صالح، وهي حجر ثمود، تسعة أنفس يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض، كفرهم بالله، ومعصيتهم إياه، وإنما خص الله جل ثناؤه هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين، لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقر الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود»[1].

قال ابن كثير: «وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم.. وقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح ﷺ، من لقيه ليلا غيلة. فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم.

قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين»[2].

قال ابن عاشور: «وقد تشاءم بعض الناس بعدد التسعة بسبب قصة ثمود وهو من

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٨).

التشاؤم المنهي عنه. . وهذا الجزء من قصة ثمود لم يذكر في غير هذه السورة. وأحسب أن سبب ذكره أن نزول هذه السورة كان في وقت تآمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبي ﷺ وهو التآمر الذي حكاه اللَّه في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾[1]؛ فضرب اللَّه لهم مثلا بتآمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم، ولذلك ترى بين الآيتين تشابها وترى تكرير ذكر مكرهم ومكر اللَّه بهم، وذكر أن في قصتهم آية لقوم يعلمون»[2].

قال ابن العربي: «لما صان اللَّه بالقصاص في أهبها الدماء، وعليها تسلط علم الأعداء، شرع القسامة بالتهمة حسبما بيناه في سورة البقرة، واعتبر فيها التهمة، وقد حبس النبي ﷺ فيها في الدماء والاعتداء، ولا يكون ذلك في حقوق المعاملات»[3].

* * *

---

(١) الأنفال الآية (٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٤).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٤٦٣).

قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : « ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفا من أوليائه ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام وتيسير أمره وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم أم انتقض عليهم الأمر ولهذا قال : ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أهلكناهم واستأصلنا شأفتهم فجاءتهم صيحة عذاب فأهلكوا عن آخرهم »[1] .

قلت : وفي الآية إثبات صفة المكر لله كما يليق بجلاله ، وقد تقدم الكلام عليها في سورتي آل عمران الآية (٥٣) والأنفال الآية (٣٠) بما أغنى عن الإعادة وباللّه التوفيق .

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٧٥-٥٧٦) .

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾

★ **غريب الآية:**

خاوية: أي خالية من خَوَتِ الدار: إذا خَلَتْ من أهلها. وخَوَى النجم: سقط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم اللَّه فأبادهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ يقول تعالى ذكره: بظلمهم أنفسهم بشركهم باللَّه، وتكذيبهم رسولهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعلنا بثمود ما قصصنا عليك يا محمد من القصة، لعظة لمن يعلم، فعلنا بهم ما فعلنا من قومك الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عند ربك وعبرة.. ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقول: وأنجينا من نقمتنا وعذابنا الذي أحللناه بثمود رسولنا صالحا والمؤمنين به. ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يقول: وكانوا يتقون بإيمانهم، وبتصديقهم صالحا الذي حل بقومهم من ثمود ما حل بهم من عذاب اللَّه، فكذلك ننجيك يا محمد وأتباعك، عند إحلالنا عقوبتنا بمشركي قومك من بين أظهرهم»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمة ثلاثة أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي وهم قوم صالح ثمود ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي خالية من السكان لهلاك جميع أهلها ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة اللَّه التي جعلها آية لهم. وقال بعضهم: ﴿خَاوِيَةً﴾ أي: ساقطًا أعلاها على أسفلها.

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٧٤-١٧٥).

الثاني: أنه -جل وعلا- جعل إهلاكه قوم صالح آية: أي عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به من نزل بهم من التدمير. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهم نبي الله صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها -جل وعلا- هنا جاءت موضحة في آيات أخر.

أما إنجاؤه نبيه صالحا ومن آمن به وإهلاكه ثمود فقد أوضحه -جل وعلا- في مواضع من كتابه كقوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾[1] وآية هود هذه قد بينت أيضًا التدمير المجمل في آية النمل هذه، فالتدمير المذكور في قوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بينت آية هود أنه الإهلاك بالصيحة، في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2] أي وهم موتى، وأما كونه جعل إهلاكه إياهم آية، فقد أوضحه أيضًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى فيهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾[3] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو. وابن عامر: (إنا دمّرناهم) بكسر همزة (إنا) على الاستئناف، وقرأه الكوفيون وهم: عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّا﴾. وفي إعراب المصدر المنسبك من (أن) وصِلَتها على قراءة الكوفيين أوجه: منها: أنه بدل من (عاقبة مكرهم)، ومنها: أنه خبر مبتدإ محذوف، وتقديره: هي؛ أي: عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم.

وهذان الوجهان، هما أقرب الأوجه عندي للصواب، ولذا تركنا غيرهما من

(١) هود الآيات (٦٦-٦٨)

(٢) هود الآية (٦٧).

(٣) الشعراء الآيات (١٥٧-١٥٩).

الأوجه، والضمير في قوله: ﴿مَكْرِهِمْ﴾[١] وفي قوله: ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ راجع إلى التسعة المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾[٢] الآية. وقوله: ﴿خَاوِيَةً﴾ حال من (بيوتهم)، والعامل فيه الإشارة الكامنة في معنى (تلك)»[٣].

قال ابن عاشور: «ولما خص اللَّه عملهم بوصف الظلم من بين عدة أحوال يشتمل عليها كفرهم كالفساد كان ذلك إشارة إلى أن للظلم أثرا في خراب بلادهم. وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب اللَّه أن الظلم يخرب البيوت وتلا: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾»[٤].

* * *

---

(١) النمل: الآية (٥١).

(٢) النمل: الآية (٤٨).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٤١٠-٤١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾

★ غريب الآية:

الفاحشة: كل ما تناهى قبحه واشتد نكرُه. والمراد هنا: جريمة اللواط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عبده لوط عليه السلام، أنه أنذر قومه نقمة اللَّه بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يرى بعضكم بعضًا، وتأتون في ناديكم المنكر؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ أي: لا تعرفون شيئًا لا طبعا ولا شرعا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾[(١)]»[(٢)].

قال المكي الناصري: «وهذه القصة تجدد ذكرها في ثمان سور من القرآن الكريم، فتولى كتاب اللَّه في سبع منها التشهير بعمل قوم لوط والتنفير منه، وذكر العقاب الإلهي الصارم الذي عاقبهم به على فاحشتهم الكبرى، ألا وهي سور الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت والقمر واقتصر في واحدة منها وهي سورة الصافات على وصف عقابهم دون وصف عملهم، اكتفاء بما رددته السور الأخرى فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ

---

(١) الشعراء الآيتان (١٦٥و١٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٠٩).

أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[1] وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ يشير إلى بنات قومه ويدعوهم إلى الزواج بهن ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾[2]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾[3] وفيها أيضا: ﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾[4] وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[5] وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾[6] وقال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[7] وقال تعالى في نهاية الربع الماضي من سورة النمل: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[8].

ومن عرض هذه الآيات البينات في صعيد واحد يتضح ما كان لعمل قوم لوط من أبعاد خطيرة، وما يؤدي إليه عند انتشاره من مفاسد كبيرة، فقد أوحى إليهم شيطانهم أن قضاء الشهوة هو الهدف الأول والأخير من وجود الغريزة الجنسية، وأنه لا معنى لوجود أي هدف أخلاقي أو اجتماعي من ورائها، وأن لا ضرورة تدعو إلى التستر بها وكتمانها، وكانوا يحملون الكراهية والبغض للنساء عموما، ويتبجحون بإعلان النفور من معاشرتهن في كل المناسبات ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ﴾ ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ و ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهذا الوضع الشاذ يؤدي عند استفحال عدواه إلى رفض الذكور للزواج اكتفاء بأمثالهم، ويتبعه في نفس الوقت بصورة آلية اكتفاء الإناث بأمثالهن، فلا يبقى أي حافز يحفز على الزواج وتأسيس الأسرة، لا بالنسبة للرجال ولا بالنسبة للنساء، وبذلك يقع القضاء التام على ملكة الإخصاب والإنجاب، لأنها لا تؤدي دورها إلا عند تزاوج

---

(١) الأعراف: الآيتان (٨٠و٨١). (٢) هود: الآيتان (٧٨و٧٩). (٣) الحجر: الآيتان (٦٨و٦٩).
(٤) الحجر: الآية (٧١). (٥) الشعراء: الآيتان (١٦٥و١٦٦). (٦) العنكبوت: الآيتان (٢٨و٢٩).
(٧) القمر: الآية (٣٧). (٨) النمل: الآيتان (٥٤و٥٥).

الذكور والإناث فيتوقف النسل في البداية، ثم ينقطع النسل في النهاية وهكذا يتعرض المجتمع البشري متى انتشرت فيه هذه العدوى وسادت العلاقات الجنسية للاختلال والانحلال، ويتعرض النوع الإنساني تدريجا في مختلف الأقطار للفناء والانقراض، وذلك خلاف مراد اللّه ونقيض حكمته، من حمل الإنسان للأمانة والجلوس على عرش خلافته ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١] ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[٢].

ومن هذه النبذة القصيرة يتبين السر في التشهير بعمل قوم لوط والتنفير منه في كتاب اللّه، والتعبير عنه في ثلاث سور مختلفة بلفظ الفاحشة معرفا بالألف واللام، إبرازا لشدة قبحه، وتنبيها إلى أنه أم الفواحش وأكبرها وأخطرها جميعًا، لما فيه إذا استفحل أمره من أخطار بالغة على نظام المجتمع، ومصير النوع الإنساني الذي يرتبط به عمران العالم. أضف إلى ذلك ما هو مركوز في العقول والفطر من قبحه وشناعته والنفور منه، حتى أصبح لفظ الفاحشة أصدق تعريف له، ولذلك خاطبهم لوط عليه السلام كما حكى عنه كتاب اللّه قائلا لهم في سورة الأعراف: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وفي سورة الشعراء: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ وهنا في سورة النمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وواضح أن من انحرف عن طريق الفطرة السوي، ولم يستجب لداعي الميل الطبيعي المركوز في الذكر نحو الأنثى والأنثى نحو الذكر، وكرس حياته لمجرد قضاء الشهوة البهيمية من دون تحقيق أي هدف إنساني نبيل من ورائها، يكون قد بلغ الغاية في الإسراف والغاية في العدوان والغاية في الجهل بكلا معنييه معناه المضاد للعلم، ومعناه المنافي لمكارم الأخلاق والإسراف في الشيء هو الزيادة المفسدة للغرض المقصود منه»[٣].

* * *

(١) البقرة الآية (٣٠).

(٢) الأحزاب الآية (٧٢).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٤٦-٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغابرين: الهالكين الباقين في العذاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: يتحرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم. فعزموا على ذلك، فدمر اللَّه عليهم وللكافرين أمثالها.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردءا لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي اللَّه ﷺ لا كرامة لها وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ أي: حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد؛ ولهذا قال: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم»[1].

قال السعدي: «فقبحهم اللَّه جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به حتى وصلوا إلى إخراجه، والبلاء موكل بالمنطق فهم قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. ومفهوم هذا الكلام: وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقتضي لنزول العقوبة بقريتكم ونجاة من

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٠).

خرج منها»[١].

قال المكي الناصري: «فقد جعل اللّه أرحام النساء بالنسبة للرجال هي مقر البذر والإخصاب، وبدونها لا يستمر النسل ولا يحصل الإنجاب، وهذه الأرحام طاهرة من الأذى في أغلب الأوقات، فالبذر فيها ممكن متيسر من دون أدنى ضرر ولا خطر، اللهم إلا في فترة الحيض المحدودة، طبقا لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[٢] ومن تعود على الطهارة والنظافة في الجوارح والملابس والأنفاس يربأ بنفسه أن يقرب مواقع الأقذار والخبائث والأنجاس ولا يعرض نفسه للأورام والأسقام التي تتولد من ذلك فيتعرض لها المنحرفون من الناس.

من أجل ذلك كله حرم عمل قوم لوط وشهر به في جميع الأعصار، ولو كان قليل الوقوع محدود الانتشار، كما حرم قليل الخمر ولو لم يكن مثل كثيره مفضيا إلى الإسكار، لأن المعصية تدفع إلى مثلها، والعدوى تضاعف من فعلها، وسد الذرائع من أحكم وأوجب الشرائع.

وقد عرفت الشريعة الإسلامية من عقوبات هذه الفاحشة في الحالات القليلة التي واجهتها عقوبة الإحراق والرجم والقتل والجلد والتعزير، وهذه العقوبات كلها طبقت عليها أيضًا خارج العالم الإسلامي في فترات مختلفة، حسبما تؤكده المصادر الأجنبية، ولا تزال القوانين الوضعية في كثير من أقطار العالم تدينها وتعاقب عليها حتى اليوم.

أما العقاب الإلهي الذي عوقب به قوم لوط على فاحشتهم الكبرى وما كانوا يعملونه من مختلف السيئات، فقد فصله كتاب اللّه في سورة هود إذ قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[٣] وفي سورة الحجر إذ قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٥٨٨).
(٢) البقرة الآية (٢٢٢).
(٣) هود الآيتان (٨٢و٨٣).

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾[(١)] وأجمله كتاب اللَّه في هذه السورة بعد أن تحدث عن لوط والناجين من أهله إذ قال: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٥٧﴾ لأنها كانت متواطئة معهم وبقيت بجانبهم فكانت من الهالكين ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾»[(٢)].

قال ابن عطية: «وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرجم في اللوطية، وبها تأنس لأن اللَّه تعالى عذبهم على كفرهم به وأرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم ولم يقس هذا القول على الزنا فيعتبر الإحصان.

بل قال مالك وغيره يرجمان في اللوطية أحصنا أو لم يحصنا»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حد اللوطي

* عن ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[(٤)].

وعنه ﵄ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه، ملعون من ذبح لغير اللَّه، ملعون من غير تخوم الأرض، ملعون من كمه أعمى عن طريق، ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط**»[(٥)].

* عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ في الذي يعمل عمل قوم لوط قال: «**ارجموا الأعلى والأسفل، ارجموهما جميعًا**»[(٦)].

---

(١) الحجر الآيات (٧٣-٧٥).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٥٠-٤٥١).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٢٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٠) وأبو داود (٤/ ٦٠٧-٦٠٨/ ٤٤٦٢) والترمذي (٤/ ٤٧/ ١٤٥٦) وابن ماجه (٢/ ٨٥٦/ ٢٥٦١) والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٥) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد» ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧) وذكره الترمذي بعد حديث رقم (١٤٥٦) والحاكم (٤/ ٣٩٦) وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ٨٥٦/ ٢٥٦٢) أبو يعلى (١٢/ ٤٢-٤٣/ ٨٤٧) وحسنه الشيخ الألباني ﵀ في صحيح سنن ابن ماجه.

★ غريب الأحاديث:

تخوم الأرض: أعلام الأرض وحدودها.

كمَّه أعمى: أضله عن الطريق.

★ فوائد الأحاديث:

دلت الأحاديث على عظم جرم اللِّواط. وهو لغة: مصدر، والنسبة إليه لوطي، والمراد به من يعمل بعمل قوم لوط. والأصل في معنى هذه المادة: الإلصاق. ويقال: لاط ولاوَط أي: عمل عمل قوم لوط. وهو إتيان الرجلِ الرجلَ.

أما في الاصطلاح: إيلاج ذكر في دبر ذكر أو أنثى[1]. فيشمل اللوطيتين الصغرى (إتيان النساء في أدبارهن) وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة (الآية ٢٢٣) بما يغني عن الإعادة في هذا الموضع، والكبرى (إتيان الذكران في أدبارهم) وهو المراد في هذا الباب.

وجه الدلالة من هذه الأحاديث نصية قتل مرتكب جريمة اللواط فاعلا كان أو مفعولا. وليس فيه تفصيل لمن أحصن أولم يحصن، فدلت بعمومها على قتله مطلقا. كما أن الإجماع منعقد على ذلك حكاه ابن قدامة -كما سيأتي- وابن القصار نقله عنه ابن القيم[2]وحكاه أيضًا ابن الطلاع نقله عنه ابن حجر[3]رحم اللَّه الجميع.

وهذا الحكم **يقول القاضي عبد الوهاب**: لأنه أغلظ من الزنا، ولأن المزني بها جنس مباح وطؤها، وإنما أُتِيَت على خلاف الوجه المأذون فيه، والذكر ليس بمباح وطؤه فكان فيه أغلظ من حد الزنى[4].

وقال ابن القيم: «وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها أعظم من عقوبة الزنا كما أن عقوبته في الآخرة أشد.

الثاني: أنها مثلها.

---

(١) نهاية المحتاج (٧/ ٤٠٣) نقلا عن الموسوعة الكويتية.

(٢) انظر زاد المعاد (٥/ ٤٠).

(٣) انظر: تلخيص الحبير (٤/ ٥٤).

(٤) المعونة على مذهب عالم المدينة (٣/ ١٤٠٠) ولابن القيم إشارة تضارع كلام القاضي في زاد المعاد (٥/ ٤١).

الثالث: أنها دونها. وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزاني، وعقوبة المفعول به الجلد مطلقا بكرا كان أو ثيبا، قال لأنه لا يلتذ بالفعل به بخلاف الفاعل. وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا حد على واحد منهما، قال: لأن الوازع عن ذلك ما في الطباع من النفرة عنه واستقباحه، وما كان كذلك لم يحتج إلى أن يزجر الشارع عنه بالحد كأكل العذرة والميتة والدم وشرب البول، ثم قال هؤلاء: إذا أكثر منه اللوطي فللإمام قتله تعزيرا صرح بذلك أصحاب أبي حنيفة»[1].

قال ابن قدامة: «أجمع أهل العلم على تحريم اللواط وقد ذمه اللّه تعالى في كتابه وعاب من فعله وذمه رسول اللّه ﷺ فقال اللّه تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾[2]. وقال النبي ﷺ: **«لعن اللّه من عمل عمل قوم لوط، لعن اللّه من عمل عمل قوم لوط، لعن اللّه من عمل عمل قوم لوط»**[3].

واختلفت الرواية عن أحمد رحمه الله في حده، فروي عنه أن حده الرجم بكرا كان أو ثيّبا، وهذا قول علي وابن عباس وجابر بن زيد وعبداللّه ابن معمر والزهري وأبي حبيب وربيعة ومالك وإسحاق وأحد قولي الشافعي وقتادة والأوزاعي وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وأبي ثور، وهو المشهور من قولي الشافعي، لأن النبي ﷺ قال: **«إذا أتى الرجلُ الرجلَ فهما زانيان»**[4]. ولأنه إيلاج فرج آدمي في فرج آدمي لا ملك له فيه ولا شبهة ملك، فكان زنا كالإيلاج في فرج المرأة. إذا ثبت كونه زنا دخل في عموم الآية والأخبار فيه، ولأنه فاحشة، فكان زنا كالفاحشة بين الرجل والمرأة. وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه أمر بتحريق اللوطي، وهو قول ابن الزبير لما روى صفوان بن سليم عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر، فاستشار أبو بكر رضي الله عنه الصحابةَ فيه، فكان علي أشدهم قولا فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل اللّه بها، أرى أن يحرق بالنار. فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك فحرقه. وقال الحكم وأبو حنيفة: لا حد عليه لأنه ليس بمحل الوطء أشبهَ غيرَ الفرجِ.

---

(١) روضة المحبين (ص٢٦٧).
(٢) سورة الأعراف الآيتان (٨٠و٨١).
(٣) تقدم تخريجه قريبا.
(٤) سيأتي تخرجه قريبا.

ووجه الرواية الأولى قول النبي ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**» رواه أبو داود وفي لفظ: فارجموا الأعلى والأسفل. ولأنه إجماع لأصحابه فإنهم أجمعوا على قتله، وإنما اختلفوا في صفته. واحتج أحمد رضي الله عنه بقول علي عليه السلام[(١)] وأنه كان يرى رجمه، ولأن اللَّه تعالى عذب قوم لوط بالرجم فينبغي أن يعاقب من فعل فعلهم بمثل عقوبتهم، وقول من أسقط الحد عنه يخالف النص والإجماع. وقياس الفرج على غيره لا يصح لما بينهما من الفرق إذا ثبت هذا فلا فرق بين أن يكون في مملوك له أو أجنبي ولا حد فيه لأن الذكر ليس بمحل لوطء الذكر فلا يؤثر ملكه له»[(٢)].

قال ابن القيم: «أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره، ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[(٣)] وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد، فإن تاب وإلا قتل وضرب عنقه. وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم»[(٤)].

عرض أدلة القائلين: (إن عقوبة اللواط والزنى سواء) ومناقشتها:

استدل القائلون بتساوي عقوبة اللواط والزنى بحديث: «**إذا أتى الرجلُ الرجلَ فهما زانيان، وإذا أتت المرأةُ المرأةَ فهما زانيتان**».

الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٧٥/ ٥٤٥٨) وفي السنن الكبرى له (٨/ ٢٣٣) والطبراني في الأوسط (٥/ ٩٢/ ٤١٦٩) من حديث أبي موسى.

قال الحافظ بعد أن عزاه للبيهقي: وفيه محمد بن عبدالرحمن القشيري كذبه أبو حاتم، ورواه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء، والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى، وفيه بشر بن الفضل البجلي وهو مجهول، وقد أخرجه أبو داود

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: «قد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال: عليه السلام من دون سائر الصحابة، أو كرم اللَّه وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحًا، لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين». تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٧٨-٤٧٩).

(٢) المغني (١٢/ ٣٤٨-٣٥٠).

(٣) المؤمنون: الآية (٦).

(٤) الداء والدواء (ص٣٠٤ - ٣٠٥).

الطيالسي في مسنده عنه[١].

فتبين أن الحديث بهذا الإسناد ضعيف، وما بني على فاسد فهو فاسد.

وقد استدلوا أيضًا بقياس اللواط على الزنى بجامع أن كلا منهما إيلاج فرج حرم شرعا مشتهى طبعا فيكون حكمه حكم حد الزنى.

وهذا القياس متعقب بما يلي:

أن القياس لا يكون في الحدود، لأن الحدود تدرأ بالشبهة، لكن هذا متعقب بأن الأكثر على جوازه في الحدود[٢].

وجه آخر في رد هذا القياس، يقول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والثيب على فرض شمولها اللوطي، ومبطلة للقياس المذكور على فرض عدم الشمولية لأنه يصير فاسد الاعتبار»[٣].

قلت: لأنه قياس في مقابلة النص لا يجوز الالتفات إليه ولذلك قيل: إذا ورد الأثر بطل النظر، وإذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل.

عرض أدلة القائلين: (إن عقوبة اللائط التعزير بالضرب والسجن) ونحو ذلك ومناقشتها:

هذا القول كما تقدم مذهب أبي حنيفة وابن حزم[٤]. إلا أن أصحاب أبي حنيفة صرحوا بأن اللُّوطي إذا أكثر منه قُتِل تعزيرا كما تقدم.

أما أدلة أصحاب هذا القول فهي:

الأول: لم يرد في الشرع للواط عقوبة مقدرة فصار فيه التعزير.

الثاني: إن التلوط وطء في محل لا تشتهيه الطباع، والمعصية إذا كان الوازع فيها طبيعيا اكتفي بالوازع عن الحد كما في وطء الأتان والميتة والبهيمة ونحو ذلك.

الثالث: قياس تلوط الرجل بآخر على مساحقة النساء، فكما لا يجب الحد في

---

(١) تلخيص الحبير (٤/ ٥٥).
(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٣٩) بتصرف.
(٣) نيل الأوطار (٧/ ١١٨).
(٤) انظر: المحلى (١١/ ٣٨٠ المسألة ٢٢٩٩).

المساحقة فكذلك في التلوط .

الرابع : إن اللواط لا يدخل في مسمى الزنى لا لغة ولا شرعًا ، فلا يجب على اللوطي حد الزنى .

قال ابن القيم : «أما قولهم إنها معصية لم يجعل اللّه فيه حدا معينا فجوابه من وجوه :

أحدها : إن المبلغ عن اللّه جعل حد صاحبها القتل حتما ، وما شرعه رسوله فإنما يشرعه عن اللّه ، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل . وإن أردتم إنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

الثاني : إن هذا ينتقض عليكم بالرجم فإنه إنما ثبت بالسنة . فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه . قلنا فننتقض عليكم بحد شارب الخمر .

الثالث : أن نفي دليل معين لا يلزم نفي مطلق الدليل ، ولا نفي المدلول ، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتَفٍ . وأما قولكم : أنه وطء لا تشتهيه الطباع بل ركب اللّه الطباع على النفرة منه ، فهو كوطء الميتة والبهيمة ، فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار ، مردود بسنة رسول اللّه ، وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه .

الثاني : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذي تربو فتنته على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس ، وهل تعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة ، أو يسيء ذلك عقل عاشق ، أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه ، فليس في القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت ، فإن النفرة الطبيعية عنه كاملة ، مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود في أحد القولين ، وهو القتل بكل حال محصنا كان أو غير محصن»[1] .

وقال أيضًا : «وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المرأتين فمن أفسد القياس إذ لا إيلاج هناك ، وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج ، على أنه

---

(١) الداء والدواء (ص٣٠٠-٣٠١) .

قد جاء في بعض الأحاديث المرفوعة إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان[١]. ولكن لا يجب الحد بذلك لعدم الإيلاج. وإن أطلق عليهما اسم الزنا العام كزنا العين واليد والرجل والفم»[٢].

أما الاستدلال الرابع: فهو تعليل في مقابلة النص لمن يرى أن حد اللوطي كحد الزاني، والنصوص ثبتت عن النبي ﷺ بقتله مطلقا على أن نفي تسمية اللواط (زنى) يحتاج إلى مدرك تام بالاستقراء والتتبع للغة العرب.

ولو كان القياس في اللغة جائزا لأمكن القول بأنه قد ثبت في اللغة تسمية ما هو دون الزنى زنا كتسمية النظر المحرم (زنى العين) وهكذا، فيكون تسمية اللواط «زنا» من باب قياس الأولى، لكن القياس في اللغة ممتنع والله أعلم[٣].

قال ابن حزم رحمه الله: «أما فعل الله تعالى في قوم لوط، فإنه ليس كما ظنوا، لأن الله تعالى قال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾[٦] الآية. فنص تعالى نصًّا جليًّا على أن قوم لوط كفروا فأرسل عليهم الحاصب فصح أن الرجم الذي أصابهم لم يكن للفاحشة وحدها، ولكن للكفر ولها.. وأيضًا فإن الله تعالى أخبر أن امرأة لوط أصابها ما أصابهم وقد علم كل ذي مسكة عقل أنها لم تعمل عمل قوم لوط فصح أن ذلك حكم لم يكن لذلك العمل وحده بلا مرية»[٧].

وأما المفعول به قال الشرواني: فإن كان صغيرا أو مجنونا أو مكرها فلا حد عليه ولا مهر له لأن منفعة بضع الرجل غير متقومة[٨].

خلاصة:

تبين مما تقدم أن عقوبة اللوطي القتل بكل حال لدلالة السنة والإجماع وقاعدة الشريعة المطردة، وهو اختيار جمهور أهل العلم، لقوة أدلته، وسلامة دلالتها على

---

(١) تقدم الكلام على هذا الحديث.
(٢) الداء والدواء (ص٣٠٤).
(٣) أفاده الشيخ بكر أبو زيد في كتابه «الحدود والتعزيرات» (ص١٨٨).
(٤) القمر: الآية (٣٧).
(٥) العنكبوت: الآية (٣٣).
(٦) هود: الآية (٨١).
(٧) المحلى (١١/ ٣٨٤).
(٨) حاشية تحفة المحتاج (٦/ ١٠٤).

ما سيقت لأجله، وأن أدلة المخالفين لا تنهض على مقاومتها.

أما صفة قتله فقد أثر عن الصحابة ﷺ أقوال في ذلك على ما يلي:

- إحراق اللوطي بالنار، وهو قول أبي بكر وعلي وابن الزبير ﷺ وهشام بن عبد الملك رحمه الله. وهو مردود لورود النهي عن التعذيب بالنار، عن ابن عبَّاسٍ: أن النبي ﷺ قال: «**لا تُعذِّبُوا بعذاب اللَّه ﷻ**»[1].

- الرجم بالحجارة حتى الموت، وهو قول عمر وابن عباس وجماعة من الصحابة.

- الرمي من أعلى بناء في البلد ثم يتبع بالحجارة وهو مروي عن أبي بكر وابن عباس ﷺ وهو وجه قريب مما قبله.

- يلقى عليه حائط، وهذا مروي عن عمر وعثمان وعلي ﷺ.

- القتل بالسيف وذلك لكونه أحسن القتلات، وأسرعها إزهاقا للنفس، ولأن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء، وإذا أطلق القتل في الحد فلا ينصرف إلا إلى القتل بالسيف، واللَّه أعلم.

فهذه أقاويل الصحابة ﷺ وأحكامهم في عقوبة اللوطي وهي كما يراها الناظر اختلاف في كيفية العقوبة لا في أصل إيقاع العقوبة بالقتل. وهذا الاختلاف في صفة القتل يقول الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «عائد إلى رأي الإمام من القتل بالسيف أو رجمًا بالحجارة ونحو ذلك حسب مصلحة الردع والزجر، واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧) والبخاري (١٢/ ٣٣١/ ٦٩٢٢) وأبو داود (٤/ ٥٢٠-٥٢٢/ ٤٣٥١) والترمذي (٤/ ٤٨/ ١٤٥٨) والنسائي (٧/ ١٢٠/ ٤٠٧١). وأخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٥) مختصرًا.

(٢) الحدود والتعزيرات (ص١٨٩).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما تم بهذه القصص استنتاج ما أراد سبحانه من الدليل على حكمته وعلمه ومباينته للأصنام في قدرته وحلمه، أمر بأن يحمده شكرا على ما علم ويقررهم بعجز أصنامهم ردا لهم عن الجهل بأوضح طريق وأقرب متناول»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد اللَّه الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام، عليهم من اللَّه الصلاة والسلام، هكذا قال عبدالرحمن ابن زيد بن أسلم، وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى: هم الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٢].

وقال الثوري، والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ رضي الله عنهم أجمعين، وروي نحوه عن ابن عباس.

ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد اللَّه الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن اللَّه تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار»[٣].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: قل يا

(١) نظم الدرر (١٤/ ١٨٤).
(٢) الصافات الآيات (١٨٠-١٨٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٠).

محمد لهؤلاء الذين زينا لهم أعمالهم من قومك فهم يعمهون: آلله الذي أنعم على أوليائه هذه النعم التي قصها عليكم في هذه السورة، وأهلك أعداءه بالذي أهلكهم به من صنوف العذاب التي ذكرها لكم فيها خير، أما تشركون من أوثانكم التي لا تنفعكم ولا تضركم، ولا تدفع عن أنفسها، ولا عن أوليائها سوءا، ولا تجلب إليها ولا إليهم نفعا؟ يقول: إن هذا الأمر لا يشكل على من له عقل، فكيف تستجيزون أن تشركوا عبادة من لا نفع عنده لكم، ولا دفع ضر عنكم في عبادة من بيده النفع والضر، وله كل شيء؟ ثم ابتدأ تعالى ذكره تعديد نعمه عليهم، وأياديه عندهم، وتعريفهم بقلة شكرهم إياه على ما أولاهم من ذلك، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾»[١].

قال ابن عاشور: «فعبر بـ﴿خَيْرٌ﴾ لإيهام أن المقام لإظهار رجحان إلهية اللّٰه تعالى على أصنامهم استدراجا لهم في التنبيه على الخطأ مع التهكم بهم إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة اللّٰه. والعاقل لا يؤثر شيئًا على شيء إلا لداع يدعو إلى إيثاره، ففي هذا الاستفهام عن الأفضل في الخير تنبيه لهم على الخطأ المفرط والجهل المورط لتنفتح بصائرهم إلى الحق إن أرادوا اهتداء»[٢].

قال الزمخشري: «أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب، فحمدوا اللّٰه ﷻ وصلوا على رسول اللّٰه ﷺ أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن»[٣].

قال ابن القيم: «والمقصود أنه على هذا القول يكون اللّٰه ﷻ قد سلم على

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩).
(٣) الكشاف (٣/ ١٥٤).

المصطفين من عباده، والرسل أفضلهم، وقد أخبر ﷻ أنه أخلصهم بخالصة ذكرى الدار، وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، ويكفي في فضلهم وشرفهم أن اللّٰه ﷻ اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته؛ فمنهم من اتخذه خليلا، ومنهم من كلمه تكليما، ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولا إليه إلا من طريقهم، ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحدا منهم بكرامة إلا على أيديهم؛ فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه. وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف اللّٰه، وبهم عبد وأطيع، بهم حصلت محابه تعالى في الأرض. وأعلاهم منزلة أولو العزم، منهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[1] وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم»[2].

* * *

(١) الشورى الآية (١٣).

(٢) طريق الهجرتين (ص٣٥٠).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

★ غريب الآية:

حدائق: جمع حديقة. وهي البستان الذي عليه حائط.

بهجة: حسن اللون وظهور السرور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: تلك السماوات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافي والقفار، والأشجار والزروع، والثمار والبحور والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك. وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: جعله رزقا للعباد، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حسن وشكل بهي، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق

(١) الزخرف الآية (٨٧).
(٢) العنكبوت الآية (٦٣).

ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع اللَّه يعبد. وقد تبين لكم، ولكل ذي لب مما يعرفون به أيضًا أنه الخالق الرازق. ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع اللّه فعل هذا. وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[1].

وقوله هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق، وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون لله عدلا ونظيرا. وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[2] أي: أمّن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4]، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[5] أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾[6]، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها»[7].

قال الزمخشري: «فإن قلت: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته، والإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد. لا يقدر عليه إلا هو وحده. ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء.

---

(١) النحل: الآية (١٧). (٢) الزمر: الآية (٩). (٣) الزمر: الآية (٩).
(٤) الزمر: الآية (٢٢). (٥) الرعد: الآية (٣٣). (٦) الرعد: الآية (٣٣).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٢-٢١٣).

أراد أن تأتي ذلك محال من غيره، وكذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ بعد الخطاب: أبلغ في تخطئة رأيهم»[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن؛ وهو قول مجاهد. ويعضده قوله ﷺ: «قال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة» رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة[٢]؛ قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «قال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ» فذكره؛ فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه اللَّه وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع هذا واضح. وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به. وقد قال ابن عباس للذي سأل أن يصنع الصور: إن كنت لا بد فاعلًا فاصنع الشجر وما لا نفس له خرجه مسلم أيضًا[٣]. والمنع أولى واللَّه أعلم لما ذكرنا»[٤].

* * *

---

(١) الكشاف (٣/ ١٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢و٣٩١) والبخاري (١٠/ ٤٧١/ ٥٩٥٣) ومسلم (٣/ ١٦٧١/ ٢١١١).

(٣) أخرجه: البخاري (٤/ ٥٢٣-٥٢٤/ ٢٢٢٥)، ومسلم (٤/ ١٦٧٠/ ٢١١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٢١-١٢٢).

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قرارًا: مكان استقرار وثبات.

رواسي: يقال: رسا الشيء يرسو ثبت وأرساه غيره. والرواسي الجبال ترسي الأرض وتثبتها.

حاجزًا: الحاجز: الفاصل والمانع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهادا بساطا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[1].

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، سير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالا شامخة ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا؛ أي: مانعا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس. والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها.

---

(١) غافر الآية (٦٤).

والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحا أجاجا، لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾[1]؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: فعل هذا؟ أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره»[2].

قال ابن جرير: «بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة اللَّه، وما عليهم من الضر في إشراكهم في عبادة اللَّه غيره، وما لهم من النفع في إفرادهم اللَّه بالألوهة، وإخلاصهم له العبادة، وبراءتهم من كل معبود سواه»[3].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض أمورا أربعة:

المنفعة الأولى: كونها قرارا وذلك لوجوه:

الأول: أنه دحاها وسواها للاستقرار.

الثاني: أنه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الذي يتألم الإنسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه.

الثالث: أنه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور، ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها، ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات.

الرابع: أنه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس، ولولا ذلك لما اختلفت الفصول، ولما حصلت المنافع.

الخامس: أنه ﷻ جعلها ساكنة فإنها لو كانت متحركة لكانت إما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة، وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الأرض.

---

(١) الفرقان الآية (٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٢).

(٣) جامع البيان (٢٠/ ٣-٤).

السادس: أنه سبحانه جعلها كفاتا للأحياء والأموات وأنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح.

المنفعة الثانية للأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ فاعلم أن أقسام المياه المنبعثة عن الأرض أربعة:

الأول: ماء العيون السيالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الأرض بقوة، ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزءا.

الثاني: ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها.

الثالث: مياه القنى والأنهار وهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة على أن تشق الأرض، فإذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذا تندفع إليه بأدنى حركة.

الرابع: مياه الآبار وهي نبعية كمياه الأنهار إلا أنه لم يجعل له سيل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون السيالة إلى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها إذ لولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها.

المنفعة الثالثة للأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ والمراد منها الجبال، فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما تكون في الجبال أو فيما يقرب منها، أما العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به، فإذن هذه الأبخرة لا تجتمع إلا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرض، فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوءا ماء، ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئًا من البخار يتحلل ونفس الأرض التي تحته كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالقوابل، ولذلك فإن أكثر العيون إنما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري، وذلك الأقل لا يكون إلا إذا كانت الأرض صلبة. وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة: أحدها: أن في باطن الجبال من النداوات مالا يكون في باطن الأرضين الرخوة وثانيها: أن

الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الأرضين وثالثها: أن الأبخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل، وإذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لأن المادة فيها ظاهرا وباطنا أكثر، والاحتقان أشد السبب المحلل وهو الحر أقل، فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر. وأما المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة يكون اختلاطها بالأرضية أكثر وإلى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شيء لها في هذا المعنى كالجبال.

المنفعة الرابعة للأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط، وأيضًا فلينتفع بذلك الحاجز، وأيضًا المؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكي لا يفسد أحدهما بالآخر، وقال بعض الحكماء في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾[1] قال عند عدم البغي ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾[2] فعند عدم البغي في القلب يخرج الدين والإيمان بالشكر، فإن قيل ولم جعل البحر ملحا؟ قلنا لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته في الأرض وأحدث الوباء العام»[3].

* * *

(١) الرحمن الآيتان (١٩و٢٠).

(٢) الرحمن الآية (٢٢).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٠٧-٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾(٢). وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.. وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قرنا لقرن قبلهم وخلفا لسلف، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٥)؛ أي: قوما يخلف بعضهم بعضًا كما قدمنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، وقوما بعد قوم. ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب. ولو شاء أن يجعل بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قرونا بعد قرون، وأمما بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما

---

(١) الإسراء الآية (٦٧).
(٢) النحل الآية (٥٣).
(٣) الأنعام الآية (١٣٣).
(٤) الأنعام الآية (١٦٥).
(٥) البقرة الآية (٣٠).

أحصاهم وعدهم عدًّا، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: يقدر على ذلك، أو إله مع اللَّه يعبد، وقد علم أن اللَّه هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم»[١].

قال القرطبي: «ضمن اللَّه تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٢] وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٣] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤] فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه»[٥].

قال الرازي: «فإن قيل قد عم المضطرين بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب؟ جوابه: قد بينا في أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية، وأيضًا فإنه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال»[٦].

قال ابن القيم: «واذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتا من أوقات الإجابة.. وصادف خشوعا في القلب، وانكسارا بين يدي الرب، وذلا له وتضرعا ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى اللَّه تعالى، وبدأ بحمد اللَّه والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٢-٢١٥).
(٢) يونس الآية (٢٢).
(٣) العنكبوت الآية (٦٥).
(٤) العنكبوت الآية (٦٥).
(٥) جامع أحكام القرآن (١٣/ ٢٢٣).
(٦) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٠٩-٢١٠).

على محمد عبده ورسوله، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على اللَّه وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم..

وكثيرا ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على اللَّه، أو حسنة تقدمت منه جعل اللَّه سبحانه إجابة دعوته شكرا لحسنته، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك، فأجيبت دعوته؛ فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجردا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي، وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء مجردا كاف في حصول المطلوب كان غالطا، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس، ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل أن السر للقبر، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجاء إلى اللَّه فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت اللَّه كان أفضل وأحب الى اللَّه لم يحصل الأثر»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء المضطر

* عن رجل من بلهجيم قال: «**قلت: يا رسول اللَّه إلامَ تدعو؟ قال: أدعو إلى اللَّه وحده الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن ضللت بأرض قفر دعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت عليك**»[2].

★ **غريب الحديث:**

قفر: الأرض الخالية التي لا ماء بها.

---

(١) الداء والدواء (ص٢٧ - ٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٦٤) من طريق خالد الحذاء عن أبي تميمة الهجيمي عن رجل من بلهجيم. وأخرجه: أبو داود (٤/ ٣٤٤-٣٤٥/ ٤٠٨٤) وأخرجه مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد: الترمذي (٥/ ٦٨/ ٢٧٢٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص٢٨٠,-٢٨١/ رقم٣١٧-٣١٨)، والحاكم (٤/ ١٨٦) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

سنة: الجدب: يقال أخذتهم السنة إذا أجدبوا وأقحطوا وهي من الأسماء الغالبة نحو الدابة في الفرس والمال في الإبل.

★ **فوائد الحديث:**

قال خليل السهار: «فدعوته: فعلى الأول بصيغة الخطاب أي دعوت اللَّه بتضرع وافتقار، وعلى الثاني بصيغة المتكلم، أي فدعوت اللَّه أن يكشف الضر عنك، كشفه: أي دفعه، عنك: بعد نزوله، وإن أصابك عام سنة: وهي عام القحط الذي لا تنبت الأرض فيه شيئًا، فدعوته أنبتها لك: ما زرعته بفضله وإنعامه، وإذا كنت بأرض: بالتنوين، قفر: وهي الأرض الخالية من الأنيس ولا ماء بها، أو: أرض فلاة: وهي الأرض التي لا ماء فيها، فضلت راحلتك: في تلك الأرض، فدعوته ردها عليك: قال العلماء لاستجابة الدعاء شروط لا بد منها، فمنها أن يكون الداعي عالما بأن لا قادر على حاجته إلا اللَّه تعالى وحده، وإن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو باضطرار أو افتقار، فإن اللَّه لا يقبل الدعاء من قلب غافل»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وبالجملة فقد علم المسلمون كلهم أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة والرهبة مثل دعائهم عند الاستسقاء لنزول الرزق، ودعائهم عند الكسوف، والاعتداد لرفع البلاء، وأمثال ذلك إنما يدعون في ذلك اللَّه وحده لا شريك له، لا يشركون به شيئًا، لم يكن للمسلمين قط أن يرجعوا بحوائجهم إلى غير اللَّه ﷻ؛ بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم اللَّه، أفتراهم بعد التوحيد والإسلام لا يجيب دعاءهم إلا بهذه الواسطة التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان؟ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ

---

(١) بذل المجهود (١٦/ ٤٠٩-٤١٠).

(٢) يونس الآية (١٢).

(٣) الإسراء الآية (٦٧).

فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[١] وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[٢].

والنبي استسقى لأصحابه بصلاة وبغير صلاة، وصلى بهم للاستسقاء، وصلاة الكسوف، وكان يقنت في صلاته فيستنصر على المشركين، وكذلك خلفاؤه الراشدون بعده، وكذلك أئمة الدين ومشايخ المسلمين، وما زالوا على هذه الطريقة»[٣].

وقال أيضًا: «ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتحرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم؛ لا في مغيبهم، ولا عند قبورهم، وكذلك العكوف.

ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب، ويستغيث به عند المصائب يقول: يا سيدي فلان! كأنه يطلب منه إزالة ضره أو جلب نفعه، وهذا حال النصارى في المسيح وأمه وأحبارهم ورهبانهم، ومعلوم أن خير الخلق وأكرمهم على اللَّه نبينا محمد، وأعلم الناس بقدره وحقه أصحابه، ولم يكونوا يفعلون شيئًا من ذلك؛ لا في مغيبه، ولا بعد مماته. وهؤلاء المشركون يضمون إلى الشرك الكذب؛ فإن الكذب مقرون بالشرك»[٤].

وقال أيضًا: «فأما لفظ (الغوث) و(الغياث) فلا يستحقه إلا اللَّه فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا بملك مقرب ولا نبي مرسل.

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث، فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر اللَّه تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٥]، وقال ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

---

(١) الأنعام الآيتان (٤٠و٤١).

(٢) الأنعام الآيتان (٤٢و٤٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٩٨-٩٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٨١-٨٢).

(٥) الإسراء الآية (٦٧).

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب؟ وهو القائل تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[١]، وقال إبراهيم عليه السلام داعيًا لأهل مكة: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾[٢]. . وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى اللَّه حوائجهم لا ظاهرًا ولا باطنًا بهذه الوسائط والحجّاب، فتعالى اللَّه عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علوًّا كبيرًا»[٣].

وقال أيضًا: «ولهذا كان المسلمون لا يستغيثون بالنبي ﷺ ويستسقون به ويتوسلون به، كما في صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس، وقال: «**اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا فيسقون**»[٤]. . وأما من قال: ما لا يقدر عليه إلا اللَّه لا يستغاث فيه إلا به، فقد قال الحق، بل لو قال كما قال أبو يزيد: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وكما قال الشيخ أبو عبداللَّه القرشي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون لكان قد أحسن»[٥].

وقال أيضًا: «واللَّه هو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل، وهو سبحانه مسبب الأسباب ورب كل شيء ومليكه. والأسباب التي يفعلها العباد مما أمر اللَّه به وأباحه فهذا يسلك، وأما ما ينهى عنه نهيًا خالصًا أو كان من البدع التي لم يأذن اللَّه بها فهذا لا يسلك. قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[٦] بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم المبين أن المخلوقين لا يملكون

---

(١) البقرة الآية (١٨٦).
(٢) إبراهيم الآيات (٣٧-٣٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣٧-٤٣٩).
(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٦٢٨/ ١٠١٠).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٣-١٠٦).
(٦) سبأ الآيتان (٢٢و٢٣).

مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ثم بين أنه لا شركة لهم ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير؛ لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق. كما يقول بعضهم: إذا كانت لك حاجة استوصي الشيخ فلان فإنك تجده، أو توجه إلى ضريحه خطوات وناده: يا شيخ. يقضي حاجتك؛ وهذا غلط لا يحل فعله، وإن كان من هؤلاء الداعين لغير اللَّه من يرى صورة المدعو أحيانا فذلك شيطان تمثل له. كما وقع مثل هذا لعدد كثير.

ونظير هذا قول بعض الجهال من أتباع الشيخ عدي وغيره: كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده. والعجب من ذي عقل سليم يستوصي من هو ميت يستغيث به، ولا يستغيث بالحي الذي لا يموت، ويقوى الوهم عنده أنه لولا استغاثته بالشيخ الميت لما قضيت حاجته. فهذا حرام فعله»[١].

وقال أيضًا: «وأما ما حكي عن بعض المشائخ من قوله: إذا نزل بك حادث أو أمر تخافه فاستوحني، فيكشف ما بك من الشدة حيًا كنت أو ميتًا، فهذا الكلام ونحوه إما أن يكون كذبا من الناقل أو خطأ من القائل؛ فإنه نقل لا يعرف صدقه عن قائل غير معصوم، ومن ترك النقل المصدق عن القائل المعصوم واتبع نقلا غير مصدق عن قائل غير معصوم، فقد ضل ضلالًا بعيدًا. ومن المعلوم أن اللَّه لم يأمر بمثل هذا، ولا رسله أمروا بذلك، بل قال اللَّه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾[٢]. ولم يقل: ارغب إلى الأنبياء والملائكة، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾[٣]، قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون العزير، والمسيح، والملائكة، فأنزل اللَّه هذه الآية.

وهذا رسول اللَّه ﷺ، لم يقل لأحد من أصحابه: إذا نزل بك حادث فاستوحني، بل قال لابن عمه عبداللَّه بن عباس وهو يوصيه: «**احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده أمامك، تعرف إلى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت**

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٦-٥٢٧).
(٢) الشرح الآيتان (٧و٨).
(٣) الإسراء الآيتان (٥٦و٥٧).

فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن بالله»[(١)].

وما يرويه بعض العامة من أنه قال: «**إذا سألتم اللَّه فاسألوه بجاهي؛ فإن جاهي عند اللَّه عظيم**»، فهو حديث كذب موضوع، لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة في الدين؛ فإن كان للميت فضيلة، فرسول اللَّه ﷺ أولى بكل فضيلة وأصحابه من بعده. وإن كان منفعة للحي بالميت، فأصحابه أحق الناس انتفاعا به حيًا وميتًا. فعلم أن هذا من الضلال، وإن كان بعض الشيوخ قال ذلك فهو خطأ منه، واللَّه يغفر له إن كان مجتهدًا مخطئًا. وليس هو بنبي يجب اتباع قوله، ولا معصوم فيما يأمر به وينهى عنه. وقد قال اللَّه تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله: «وقال الشيخ صنع اللَّه الحلبي الحنفي في كتابه الذي ألفه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفًا في الحياة، وبعد الممات على سبيل الكرامة..

قال: وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله، وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾[(٤)]، وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، والقادر على إيصال الخير، فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره، خرج غيره من ملك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه، كقولهم: يا لزيد، يا لقومي يا للمسلمين. كما ذكروا ذلك في كتب النحو، بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض وخوف الغرق، والضيق، والفقر، وطلب الرزق، ونحوه، فمن خصائص اللَّه، فلا يطلب فيها غيره. قال:

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) والحاكم (٣/ ٥٤٢).

(٢) النساء: الآية (٥٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٢٥-١٢٦).

(٤) الأنعام: الآية (٦٣).

وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية والجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم، فهذا من المنكرات، إلى أن قال: فمن اعتقد أن لغير اللَّه من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربه أو قضاء حاجته تأثيرًا، فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير. وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشى لله أن يكون أولياء اللَّه بهذه المثابة، فهذا ظن أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[1]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[2]، ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾[3]، فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه إشراك مع اللَّه، إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره. قال: وأما ما قالوه: من أن منهم أبدالًا ونقباء، وأوتادًا ونجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، فهذا من موضوعات إفكهم، كما ذكره القاضي المحدث ابن العربي في «سراج المريدين»، وابن الجوزي، وابن تيمية، انتهى باختصار.

ومثل هذا يوجد في كلام غيره من العلماء، والمقصود أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور ويبينون أنها شرك، وإن كان بعض المتأخرين ممن ينتسب إلى العلم والدين، ممن أصيب في عقله ودينه قد يرخص في بعض هذه الأمور، وهو مخطئ في ذلك، ضال مخالف لكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين فكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا قول ربنا وقول رسوله ﷺ، فإن ذلك لا يتطرق إليه الخطأ بحال، بل واجب على الخلق اتباعه في كل زمان، على أنه لو أجمع المتأخرون على جواز هذا لم يعتد بإجماعهم المخالف لكلام اللَّه وكلام رسوله في محل النزاع؛ لأنه إجماع غير معصوم، بل هو من زلة العالم التي حذرنا من اتباعها، وأما الإجماع المعصوم، فهو إجماع الصحابة والتابعين وما وافقه، وهو السواد الأعظم الذي ورد الحث على اتباعه، وإن لم يكن عليه إلا الغرباء الذين أخبر بهم ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**»[4]، رواه

---

(١) يونس الآية (١٨). (٢) الزمر الآية (٣).
(٣) يس الآية (٢٣).
(٤) أخرجه: مسلم (١/ ١٣٠/ ١٤٥).

مسلم. لا ما كان عليه العوام والطغام، والخلف المتأخرون، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون»[١].

* عن أبي بكرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ في دعاء المضطر: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»[٢].

★ غريب الحديث:

رحمتك أرجو: تأخير الفعل للاختصاص؛ أي: نخصك برجاء الرحمة، فغيرك لا يرحم.

فلا تكلني: من باب ضرب الوكل والوكول أي لا تتركني ولا تفوتني.

طرفة عين: خارج مخرج المبالغة، يعني: لا تكلني إلى نفسي أصلًا في حالة من الأحوال.

★ فوائد الحديث:

قال فضل اللَّه الجيلاني: «والتوكل هو الاعتماد على اللَّه، والصدق في ذلك الاعتماد حيث لا يركن إلى ما سواه، ويقع بتيسيره ويصبر منتظرا فرجه، ولا يدع محاسن الأخلاق عند الشدة وتتابع البلاء، ولا يختار سفساف الأمور ورذالها»[٣].

قوله: «**لا إله إلا أنت**» **قال المناوي**: «ختمه بهذه الكلمات الحضورية الشهودية، إشارة إلى أن الدعاء إنما ينفع المكروب ويزيل كربه إذا كان مع حضور وشهود، ومن شهد لله بالتوحيد والجلال مع جمع الهمة وحضور البال فهو حري بزوال الكرب في الدنيا والرحمة ورفع الدرجات في العقبى»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**»[٥].

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٢٢٧ - ٢٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٢) وأبو داود ٥/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٥٠٩٠) والطيالسي (٨٦٩) واللفظ له، وحسنه الشيخ الألباني (صحيح الأدب المفرد ٥٣٩).

(٣) فضل اللَّه الصمد (٢/ ١٦٦).

(٤) فيض القدير (٣/ ٥٢٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٨) وأبو داود (٢/ ١٨٧/ ١٥٣٦) والترمذي (٤/ ٢٧٧/ ١٩٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٧٠/ ٣٨٦٢) وصححه ابن حبان (٦/ ٤١٦/ ٢٦٩٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «**«دعوة المظلوم مستجابة»**؛ أي: يستجيبها اللَّه تعالى. يعني فاجتنبوا جميع أنواع الظلم لئلا يدعو عليكم المظلوم فيجاب، (وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه)، ولا يقدح ذلك في استجابة دعائه؛ لأنه مضطر، ونشأ من اضطراره صحة التجائه إلى ربه، وقطعه قلبه عما سواه، وللإخلاص عند اللَّه موقع وقد ضمن إجابة المضطر بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، ويحتمل أن يريد بالفاجر الكافر، ويحتمل أن يريد الفاسق»[1].

* * *

(١) فيض القدير (٣/ ٥٢٦).

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ الآية[2]. ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المجدبين الأزلين[3] القنطين، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»[4].

قال ابن عاشور: «ذكر الهداية في ظلمات الليل في البر والبحر. وإضافة الظلمات إلى البر والبحر على معنى (في). والهدى في هذه الظلمات بسير النجوم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾. فاللَّه الهادي للسير في تلك الظلمات بأن خلق النجوم على نظام صالح للهداية في ذلك، وبأن ركب في الناس مدارك للمعرفة بإرصاد سيرها وصعودها وهبوطها، وهداهم أيضًا بمهاب الرياح، وخولهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها، وحرارتها وبردها.

وبهذه المناسبة أدمج الامتنان بفوائد الرياح في إثارة السحاب الذي به المطر وهو المعني برحمة اللَّه»[5].

* * *

---

(١) النحل الآية (١٦).

(٢) الأنعام الآية (٩٧).

(٣) أزلين: الأزل: بفتح فسكون: الضيق والشدة.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾[(١)]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٢)].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾[(٣)]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[(٤)]، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركًا فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾[(٥)]؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا. وعلى القول الآخر: يعبد؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال الله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[(٦)]»[(٧)].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لأن نعم الآخرة بالثواب لا تتم إلا بالإعادة بعد الابتداء والإبلاغ إلى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم، ومعلوم أنها لا تتم

---

(١) البروج الآيتان (١٢و١٣).
(٢) الروم الآية (٢٧).
(٣) الطارق الآيتان (١١و١٢).
(٤) الحديد الآية (٤).
(٥) طه الآية (٥٤).
(٦) المؤمنون الآية (١١٧).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٥).

إلا بالأرزاق فلذلك قال: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ منكرا لما هم عليه، ثم بين بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن لا برهان لكم فإذن هم مبطلون، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوى من [برهان][1] وعلى فساد التقليد»[2].

قال ابن عاشور: «وفيه تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد»[3].

* * *

(١) ما بين المعقوفتين غير موجود بالأصل، زيدت ليستقيم الكلام ويتضح المعنى.
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ٢١١-٢١٢).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما أبطلت الآيات السابقة إلهية أصنام المشركين بالأدلة المتظاهرة فانقطع دابر عقيدة الإشراك ثُني عنانُ الإبطال إلى أثر من آثار الشرك وهو ادعاء علم الغيب بالكهانة وإخبار الجن، كما كان يزعمه الكهان والعرافون وسدنة الأصنام. ويؤمن بذلك المشركون. وفي «معالم التنزيل» وغيره نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة فما كان سؤالهم عن ذلك إلا لظنهم أن ادعاء العلم بوقتها من شأن النبوءة توصلا لجحد النبوءة إن لم يعين لهم وقت الساعة فأبطلت الآية هذه المزاعم إبطالا عاما معياره الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهو عام مراد به الخصوص أعني خصوص الكهان وسدنة بيوت الأصنام. وإنما سلك مسلك العموم لإبطال ما عسى أن يزعم من ذلك، ولأن العموم أكثر فائدة وأوجز، فإن ذلك حال أهل الشرك من بين من في السماوات والأرض. فالقصد هنا تزييف آثار الشرك وهو الكهانة ونحوها. وإذ قد كانت المخلوقات لا يعدون أن يكونوا من أهل السماوات أو من أهل الأرض لانحصار عوالم الموجودات في ذلك كان قوله: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾ في قوة لا يعلم أحد الغيب، ولكن أطنب الكلام لقصد التنصيص على تعميم المخلوقات كلها فإن مقام علم العقيدة مقام بيان يناسبه الإطناب»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يقول معلما لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع؛ أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآية[2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩).

(٢) الأنعام الآية (٥٩).

عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[١]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة، كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[٢]؛ أي: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض»[٣].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أنه المختص بالقدرة فكذلك بين أنه هو المختص بعلم الغيب، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه هو الإله المعبود، لأن الإله هو الذي يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن زعم أنه يعلم شيئًا من الغيب من غير طريق الوحي والنبوة فقد كفر وخرج عن الملة بإجماع الأمة

* عن مسروق قال: «**كنت متكئًا عند عائشة. فقالت: يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظمَ على اللَّه الفِرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا** ﷺ رأى ربه فقد أعظم على اللَّه الفِرية. قال: وكنت متكئًا فجلست. فقلت: يا أم المؤمنين! أنظريني ولا تَعجليني. ألم يقل اللَّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾[٥] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾[٦] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول اللَّه ﷺ. فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيتُه منهبطًا من السماء، سادًّا عِظَمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض. فقالت: أو لم تسمع أن اللَّه يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٧] أو لم تسمع أن اللَّه يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[٨] قالت: ومن زعم أن رسول اللَّه ﷺ كتم شيئًا من كتاب اللَّه فقد

---

(١) لقمان الآية (٣٤).
(٢) الأعراف الآية (١٨٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٦).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ٢١٢).
(٥) التكوير الآية (٢٣).
(٦) النجم الآية (١٣).
(٧) الأنعام الآية (١٠٣).
(٨) الشورى الآية (٥١).

أعظم على اللَّه الفرية. واللَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾[١] قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على اللَّه الفرية. واللَّه يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾»[٢].

★ فوائد الحديث:

فيه أن الغيب مما استأثر اللَّه به، فلا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا اللَّه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، لذلك جزمت عائشة رضي الله عنها أن من زعم أن النبي ﷺ يعلم ما في غد فقد كذب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٣] والغيب الذي يؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة، ويدخل في ذلك الإيمان باللّه وأسمائه وصفاته، وملائكته والجنة، والنار. فالإيمان باللّه وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب؛ فإن وصف الرسالة هو من الغيب، وتفصيل ذلك هو الإيمان باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، كما ذكر اللّه تعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٤]، وقال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[٥]». اهـ[٦]

قال السعدي: «حقيقة الإيمان هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر اللَّه وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر اللَّه به أو

---

(١) المائدة الآية (٦٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٨٠/ ٤٨٥٥) ومسلم (١/ ١٥٩-١٦٠/ ١٧٧) والترمذي (٥/ ٢٤٥-٢٤٦/ ٣٠٦٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧١/ ١١٥٣٢).

(٣) البقرة الآيات (١-٣).

(٤) البقرة الآية (١٧٧).

(٥) النساء الآية (١٣٦).

(٦) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٣٢-٢٣٣).

أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى اللَّه.

ويدخل في الإيمان بالغيب: الإيمان بجميع ما أخبر اللَّه به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف اللَّه وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات اللَّه ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها»[1].

* * *

(١) تفسير السعدي (١/ ٤١-٤٢).

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها.

وقرأ آخرون: «بل أدرك علمهم»؛ أي: تساوى علمهم في ذلك، .. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي: غاب.

وقال قتادة: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ يعني: بجهلهم ربهم، يقول: لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم، هذا قول.

وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس: «بل أدرك علمهم في الآخرة» حين لم ينفع العلم، وبه قال عطاء الخراساني، والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾[1].

وقال سفيان عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقرأ: «بل أدرك علمهم» قال: اضمحل علمهم في الدنيا، حين عاينوا الآخرة.

وقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾[2] أي: الكافرون منكم. وهكذا قال هاهنا: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ أي: شاكون في وجودها ووقوعها، ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ أي: في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها»[3].

(١) مريم الآية (٣٨)

(٢) الكهف الآية (٤٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٦).

قال الشنقيطي: «أظهر أقوال أهل العلم عندي في هذه الآية الكريمة أن المعنى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾: أي تكامل علمهم في الآخرة، حين يعاينونها أي يعلمون في الآخرة علما كاملا ما كانوا يجهلونه في الدنيا، وقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي في دار الدنيا، فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل، يعلمونه في الآخرة علما كاملا لا يخالجه شك، عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث، والجزاء.

وإنما اخترنا هذا القول دون غيره من أقوال المفسرين في الآية لأن القرآن دل عليه دلالة واضحة في آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ فقوله: أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا بمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم للحق الذي كانوا ينكرونه يوم يأتوننا: أي يوم القيامة، وهذا يوضح معنى قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ أي تكامل علمهم فيها لمبالغتهم في سمع الحق وإبصاره في ذلك الوقت. وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يوضح معنى قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ لأن ضلالهم المبين اليوم: أي في دار الدنيا، هو شكهم في الآخرة، وعماهم عنها. وكقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] أي: علمك اليوم بما كنت تنكره في الدنيا مما جاءتك به الرسل حديد: أي قوي كامل.

وقد بينا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة الشورى، في الجواب عما يتوهم من التعارض بين قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾؛ أن المراد بحدة البصر في ذلك اليوم: كمال العلم وقوة المعرفة. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[3] فقوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: أي يوم القيامة، يوضح معنى قوله هنا: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾[4] فعرضهم على ربهم صفا يتدارك به علمهم، لما كانوا ينكرونه. وقوله:

(١) ق الآية (٢٢).
(٢) الشورى الآية (٤٥).
(٣) السجدة: الآية (١٢).
(٤) الكهف: الآية (٤٨).

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ ... ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ صريح في أنهم في الدنيا كانوا في شك وعمى عن البعث والجزاء، كما ترى إلى غير ذلك من الآيات»[(١)].

قال مكي الناصري: «إشارة إلى أن المشركين والكافرين والجاحدين في كل عصر اختلط عليهم الحابل بالنابل في شأن النشأة الأخرى والحياة الآخرة، وكثر منهم الخوض فيها من دون جدوى، وطال جدالهم في أمرها دون علم، فنفاها بعضهم، وشك فيها بعضهم، واستبعدها بعضهم، والعلم هنا بمعنى: الحكم والقول؛ أي: تتابع منهم القول والحكم في شأن الآخرة من دون الوصول إلى نتيجة، وأصل ادارك تدارك، أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل، وإنما تكرر في هذه الآية لفظ بل وهو للإضراب، ثلاث مرات تبعا لتقلب أحوالهم، وتناقض مواقفهم، ودرجات عنادهم، وحيرتهم الناشئة عن الشرك والكفر والجحود»[(٢)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: هذه الإضرابات الثلاث ما معناها؟ قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم: وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض: كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه، لا يخطر بباله حقًّا ولا باطلا. ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عداه بـ(من) دون عن؛ لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن علم الساعة لا يعلمه إلا الله

* عن عمر بن الخطاب ﷺ: أن رسول اللّه ﷺ قال لجبريل -وقد سأله عن وقت الساعة-: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[(٤)].

---

(١) الأضواء (٦/ ٤١٣-٤١٤).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٥٧-٤٥٨). (٣) الكشاف (٣/ ١٥٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٦) ومسلم (١/ ٣٩/ ٩) وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «علم الخلق كلهم في وقت الساعة سواء، وهذا إشارة إلى أن اللَّه تعالى استأثر بعلمها، ولهذا في حديث أبي هريرة: قال النبي ﷺ في خمس لا يعلمهن إلا اللَّه تعالى، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾[١]». اهـ[٢]

قال القرطبي: «مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[٣] و﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[٤] وهو كثير في الكتاب والسنة، فلما أجابه النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلا اللَّه، يئس السائلون من معرفتها، فانكفوا عن السؤال عنها»[٥].

* * *

(١) لقمان الآية (٣٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٥).

(٣) الأعراف الآية (١٨٧).

(٤) الأحزاب الآية (٦٣).

(٥) المفهم (١/ ١٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قال الذين كفروا بالله: أئنا لمخرجون من قبورنا أحياء، كهيئتنا من بعد مماتنا بعد أن كنا فيها ترابا قد بلينا؟ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ يقول: لقد وعدنا هذا من قبل محمد واعدون، وعدوا ذلك آباءنا، فلم نر لذلك حقيقة، ولم نتبين له صحة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: قالوا: ما هذا الوعد إلا ما سطر الأولون من الأكاذيب في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحدثوا به من غير أن يكون له صحة»[(١)].

قال السعدي: «فانتقل في الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه؛ أي: وبسبب هذه الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم فأقدموا على معاصي الله وسهل عليهم تكذيب الحق والتصديق بالباطل واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات فخسروا دنياهم وأخراهم»[(٢)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: قدم في هذه الآية ﴿هَٰذَا﴾ على ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وفي آية أخرى قدم ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ على ﴿هَٰذَا﴾؟ قلت: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سيق لأجله، ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٨-٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٩٦).
(٣) الكشاف (٣/ ١٥٨).

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما تكلم في حال المبدأ تكلم بعده في حال المعاد، وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة، أو في كمال العلم، فإذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات، وعالما بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها وإذا ثبت إمكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر»[1].

قال المكي الناصري: «والغريب في الأمر أن مزاعمهم تكاد تأتي بنفس الصيغة ونفس المعنى، رغما عن تباعد العصور، ويغلب عليها طابع السطحية والسذاجة والتقليد الأعمى، كأن من أبدع النشأة الأولى عاجز عن إبداع النشأة الثانية، لا أنه الخالق الذي يبدئ ويعيد، والقادر على أن يأتي بخلق جديد، أو كأن عمر النوع الإنساني على وجه الأرض يقف عند حد عمرهم وعمر آبائهم ولا يمتد وراء ذلك، أو كأن عمر النوع الإنساني كله منذ ظهوره على سطح الأرض إلى أن يأذن اللَّه بانقراضه يعتبر أمدا بعيدا؛ بينما هو بالنسبة للأرض نفسها فضلا عن بقية الأكوان المنتشرة في الملأ الأعلى يعد أمدا قصيرا إلى أقصى الحدود، ولذلك كان الأنبياء صلوات اللَّه عليهم وسلامه يقربون لأقوامهم أمد البعث، مبالغة في التحذير وكل آت قريب»[2].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٢١٤).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٥٨-٤٥٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين ما جئتهم به من الأنباء من عند ربك: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين رسل اللَّه ومساكنهم كيف هي، ألم يخربها اللَّه، ويهلك أهلها بتكذيبهم رسلهم، وردهم عليهم نصائحهم فخلت منهم الديار وتعفت منهم الرسوم والآثار، فإن ذلك كان عاقبة إجرامهم، وذلك سنة ربكم في كل من سلك سبيلهم في تكذيب رسل ربهم، واللَّه فاعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا الإنابة من كفركم وتكذيبكم رسول ربكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يقول: ولا يضق صدرك من مكرهم بك، فإن اللَّه ناصرك عليهم، ومهلكهم قتلا بالسيف»[1].

قال الشوكاني: «ومعنى النظر هو: مشاهدة آثارهم بالبصر فإن في المشاهدة زيادة اعتبار. وقيل: المعنى: فانظروا بقلوبكم، وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم، والأول أولى لأمرهم بالسير في الأرض»[2].

قال الزمخشري: «وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفا للمسلمين في ترك الجرائم وتخوف عاقبتها ألا ترى إلى قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾[3] وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾[4]»[5].

قال ابن عاشور: «كانت الرحمة غالبة على النبي ﷺ والشفقة على الأمة من

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩).
(٢) فتح القدير (٤/ ٢١٠).
(٣) الشمس الآية (١٤).
(٤) نوح الآية (٢٥).
(٥) الكشاف (٣/ ١٥٨).

خلاله، فلما أنذر المكذبون بهذا الوعيد تحركت الشفقة في نفس الرسول -عليه الصلاة والسلام- فربط اللَّه على قلبه بهذا التشجيع أن لا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أنذروا به. وكان من رحمته ﷺ حرصه على إقلاعهم عما هم عليه من تكذيبه والمكر به، فألقى اللَّه في روعه رباطة جأش بقوله: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾

★ **غريب الآية:**

ردف: دنا واقترب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ قال اللّه مجيبا لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾. قال ابن عباس أن يكون قرب -أو: أن يقرب -لكم بعض الذي تستعجلون. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[1]، وقال تعالى ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾[2].

وإنما دخلت «اللام» في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾؛ لأنه ضمن معنى «عجل لكم» كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عجل لكم»[3].

قال الرازي: «قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دل على أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية فأجاب اللّه تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾»[4].

قال السعدي: «وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم فإن وقوعه ووقته قد أجله اللّه بأجله وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم»[5].

---

(١) الإسراء الآية (٥١).
(٢) العنكبوت الآية (٥٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٨).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ٢١٥).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾

⋆ غريب الآية:

تُكِنُّ: تُخْفِي وتسر، من أكننت الشيء: إذا سَتَرْته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتركه معاجلتهم بالعقوبة على معصيتهم إياه، وكفرهم به، وذو إحسان إليهم في ذلك وفي غيره من نعمه عندهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ على ذلك من إحسانه وفضله عليهم، فيخلصوا له العبادة، ولكنهم يشركون معه في العبادة ما يضرهم ولا ينفعهم ومن لا فضل له عندهم ولا إحسان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾ يقول: وإن ربك ليعلم ضمائر صدور خلقه، ومكنون أنفسهم، وخفي أسرارهم، وعلانية أمورهم الظاهرة، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو محصيها عليهم حتى يجازي جميعهم بالإحسان إحسانا وبالإساءة جزاءها»[1].

قال الألوسي: «وفي الآية إيذان بأن لهم قبائح غير ما حكى عنهم، وتقديم الاكتنان ليظهر المراد من استواء الخفي والظاهر في علمه -جل وعلا-، أو لأن مضمرات الصدور سبب لما يظهر على الجوارح، وإلى الرمز إلى فساد صدورهم التي هي المبدأ لسائر أفعالهم أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال: وإن ربك ليعلم ما يكنون وما يعلنون»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١١).

(٢) روح المعاني (٢٠/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المكي الناصري: «وبعد أن كشف كتاب اللَّه الستار عن أعداء الإسلام، وأكد أن اللَّه يعلم سرهم ونجواهم ولا تلتبس عليه أحوالهم، عمم القول بأن اللَّه تعالى يعلم كل المغيبات لا يخفى عليه منها شيء لا في الأرض ولا في السماء، وأن ما قد ينكشف منها للخلق لا ينكشف ويبرز إلى الوجود، إلا في وقته المحدود، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا مِنْ﴾ مكتوم سر وخفي أمر يغيب عن أبصار الناظرين ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وهو أم الكتاب الذي أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من لدن ابتدأ خلق خلقه إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أنه يبين لمن نظر إليه، وقرأ ما فيه مما أثبت فيه ربنا جل ثناؤه»[(٢)].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٦١).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ١١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان: إنه يقص على بني إسرائيل -وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد اللَّه وأنبيائه ورسله الكرام، -عليه الصلاة والسلام-، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[(١)]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم في العمليات»[(٢)].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما تمم الكلام في إثبات المبدإ والمعاد، ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة، ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن، لا جرم بين اللَّه تعالى أولا كونه معجزة من وجوه:

أحدها: أن الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل مع العلم بأنه -عليه الصلاة والسلام- كان أميا، وأنه لم يخالط أحدا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم، فإذن لا يكون ذلك إلا من قبل اللَّه تعالى، واختلفوا فقال بعضهم: أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا، وقال آخرون: أراد به ما حرفه بعضهم، وقال بعضهم: بل أراد به أخبار الأنبياء، والأول أقرب.

وثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وذلك لأن بعض الناس قال إنا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة، وشرح صفات اللَّه تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب، ووجدنا ما فيه

(١) مريم الآية (٣٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٩).

من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها، وجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت، فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة على جمع كتاب على هذا الوجه، فعلمنا أنه ليس إلا من عند اللَّه تعالى، فكان القرآن معجزا من هذه الجهة.

وثالثها: أنه هدى ورحمة للمؤمنين، لبلوغه في الفصاحة إلى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز»[١].

قال المكي الناصري: «ولما كان من الأمر الثابت في القديم والحديث ما تعرضت له كتب اليهود والنصارى المنزلة، من تبديل وتغيير، وتحريف وتزوير، وحمى اللَّه من ذلك كله كتابه الكريم والذكر الحكيم، إذ تعهد اللَّه بحفظه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[٢] جعل سبحانه هذا الكتاب الإلهي المحفوظ حكما على الكتب الأخرى ورقيبا عليها، يبين لأهلها الحق من الباطل، والحالي من العاطل، ويفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فقال تعالى فيما سبق من سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٣] وقال تعالى هنا في سورة النمل، التي قص فيها على نبيه عدة قصص لها علاقة وثيقة بتاريخ بني إسرائيل وكتبهم المحرفة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾»[٤].

قال الألوسي: «وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أنه رحمة للعالمين لأنهم المنتفعون به»[٥].

قال السعدي: «وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كل خلاف وفصل كل مشكل كان أعظم نعم اللَّه على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهداه مختص بالمؤمنين»[٦].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٢١٦-٢١٧).
(٢) فصلت الآية (٤٢).
(٣) المائدة الآية (٤٨).
(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٦١-٤٦٢).
(٥) روح المعاني (٢٠/ ١٨).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٩٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ يقول: إن ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم، فينتقم من المبطل منهم، ويجازي المحسن منهم المحق بجزائه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يقول: وربك العزيز في انتقامه من المبطل منهم ومن غيرهم، لا يقدر أحد على منعه من الانتقام منه إذا انتقم العليم بالمحق المحسن من هؤلاء المختلفين من بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، ومن غيرهم من المبطل الضال عن الهدى»[١].

قال المكي الناصري: «ولما كان القضاء المفهوم من قوله تعالى: ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ﴾ يقتضي العلم بما يحكم به، وتنفيذ ما يقضى به، جاءت عقبه الصفتان الملائمتان لذلك، وهما صفة العلم للوصول إلى معرفة الحكم وصفة العزة التي هي الغلبة والقدرة، للتمكن من تنفيذه فقال تعالى في نفس السياق: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٢).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٦٢).

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المكي الناصري: «وإمدادا للرسول الأعظم بمدد إلهي جديد، وهو في خضم المعركة مع قوى الشرك والإلحاد، والشر والفساد، وتثبيتا لفؤاده حتى يتخطى جميع العقبات والمزالق، وجه إليه كتاب الله هذا الخطاب الرقيق الرفيق: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾»[1].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ففوض إلى الله يا محمد أمورك، وثق به فيها، فإنه كافيك. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ لمن تأمله، وفكر ما فيه بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحق، دون ما عليه اليهود والنصارى، المختلفون من بني إسرائيل، ودون ما عليه أهل الأوثان، المكذبوك فيما أتيتهم به من الحق، يقول: فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك، وامض لأمر ربك الذي بعثك به»[2].

قال الزمخشري: «أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشك والظن. وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل»[3].

* * *

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٦٢).

(٢) جامع البيان (٢٠/ ١٢).

(٣) الكشاف (٣/ ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: إنك يا محمد لا تقدر أن تفهم الحق من طبع اللَّه على قلبه فأماته، لأن اللَّه قد ختم عليه أن لا يفهمه: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يقول: ولا تقدر أن تسمع ذلك من أصم اللَّه عن سماعه سمعه: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ يقول: إذا هم أدبروا معرضين عنه، لا يسمعون له لغلبة دين الكفر على قلوبهم، ولا يصغون للحق، ولا يتدبرونه، ولا ينصتون لقائله، ولكنهم يعرضون عنه، وينكرون القول به، والاستماع له»[1].

قال المكي الناصري: «فمن كان ميت القلب أصم الأذن أعمى البصر والبصيرة، لا شفاء له من دائه العياء، ولا أمل في هدايته ولا رجاء ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2]»[3].

قال الزمخشري: «فإن قلت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يشبه أن يكون تعليلا آخر للتوكل، فما وجه ذلك؟ قلت: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسببا عما كان يغيظ رسول اللَّه ﷺ من جهة المشركين وأهل الكتاب: من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة، فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله، بأن اتباعهم أمر قد يئس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم، وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات اللَّه -فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع-: كانت حالهم -

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٣).

(٢) القصص الآية (٥٦).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٦٣).

لانتفاء جدوى السماع- كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع؛ وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. . فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصم، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولي عنه مدبرا كان أبعد عن إدراك صوته»[1].

قال أبو السعود: «فإن كونهم كالموتى والصم والعمي موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسا وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعني بالتوكل عليه تعالى وإنما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع. وإطلاق الإسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشيء من المسموعات، ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور، فإن القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعري الأذن والعين كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[2] وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمي مزيد مزية»[3].

قال ابن عاشور: «وللقرآن أثران:

أحدهما: ما يشتمل عليه من المعاني المقبولة لدى أهل العقول السليمة وهي المعاني التي يدركها ويسلم لها من تبلغ إليه ولو بطريق الترجمة بحيث يستوي في إدراكها العربي والعجمي وهذا أثر عقلي.

والأثر الثاني: دلالة نظمه وبلاغته على أنه خارج عن مقدرة بلغاء العرب. وهذا أثر لفظي وهو دليل الإعجاز وهو خاص بالعرب مباشرة، وحاصل لغيرهم من أهل النظر والتأمل إذا تدبروا في عجز البلغاء من أهل اللسان الذي جاء به القرآن، فهؤلاء يوقنون بأن عجز بلغاء أهل ذلك اللسان عن معارضته دال على أنه فوق مقدرتهم؛ فالمشركون شبهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول، وشبهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني، فحصلت استعارتان. ونفي الإسماع فيهما ترشيحان للاستعارتين وهما مستعاران لانتفاء معالجة إبلاغهم»[4].

---

(١) الكشاف (٣/ ١٥٩).
(٢) الأعراف الآية (١٧٩).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٠).
(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سماع الأموات

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «اطّلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما قال النبي ﷺ: «**إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حق وقد قال اللَّه تعالى:** ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾»[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

قال القرطبي: «اعلم رحمك اللَّه أن عائشة قد أنكرت هذا المعنى، واستدلت بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٣] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[٤]، ولا تعارض بينهما؛ لأنه جائز أن يكونوا يسمعون في وقت ما أو في حال ما، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص»[٥].

اختلف أهل العلم في مسألة سماع الموتى لاختلاف الأحاديث والآثار الواردة في ذلك.

فذهب جمهور الأحناف إلى نفي سماع الميت كلام الأحياء:

قال ابن عابدين: «أما الكلام فلأن المقصود منه الإفهام، والموت ينافيه، ولا يرِد ما في الصحيح من قوله ﷺ لأهل قليب بدر: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فقال عمر رضي اللَّه تعالى عنه: أتكلم الميت يا رسول الله؟ فقال -عليه الصلاة والسلام-: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم، أو من هؤلاء. فقد أجاب عنه المشايخ بأنه غير ثابت يعني من جهة المعنى. وذلك لأن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها ردته بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، و ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وأنه إنما قاله على وجه الموعظة للأحياء، وبأنه مخصوص بأولئك تضعيفًا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١) والبخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٧٠) ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢).
(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٧٠) ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢).
(٣) الروم الآية (٥٢). (٤) فاطر الآية (٢٢).
(٥) التذكرة (ص١٤٥).

للحسرة عليهم، وبأنه خصوصية له -عليه الصلاة والسلام- معجزة. لكن يشكل عليهم ما في مسلم: «**إن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا**»[١]، إلا أن يخصوا ذلك بأول الوضع في القبر مقدمة للسؤال، جمعًا بينه وبين الآيتين، فإنه شبه فيهما الكفار بالموتى لإفادة بُعد سماعهم وهو فرع عدم سماع الموتى»[٢].

وقال الطحاوي في حاشيته على «الدر المختار»: «الميت لا يسمع ولا يفهم، وأورد أنه -عليه الصلاة والسلام- قال لأهل القليب قليب بدر: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فقال عمر: يا رسول اللّه ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**».

وأجيب عنه بأنه غير ثابت يعني من جهة المعنى، وإلا فهو في الصحيح وذلك أن عائشة -رضي اللّه تعالى عنها- ردّته بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ و﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾. وقوله: (من جهة المعنى) ينظر ما المراد به؟ فإن ظاهره يقتضي ورود اللفظ عن الشارع وأن المعنى لا يستقيم! وفيه ما فيه»[٣].

قال الألوسي: «فتبين من «تنوير الأبصار» وشرحه «الدر المختار» و«حاشيته» للطحاوي ولابن عابدين، ومن «فتح القدير» و«الهداية» ومن «مراقي الفلاح» و«حاشيته» و»شروح الكنز»، ومن سائر المتون المبنية على المفتى به من قول الإمام أبي حنيفة، وصاحبيه ومشايخ المذهب: أن الميت لا يسمع بعد خروج روحه، كما قالت عائشة، وتبعها طائفة من أهل العلم والمذاهب الأخرى، وأن الحنفية لم يحكوا خلافًا في حكمهم هذا عن أحد من علماء المذهب»[٤].

واختار هذا القول المازري من المالكية. قال النووي: «قوله: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»، قال المازري: قال بعض الناس: الميت يسمع عملًا بظاهر هذا الحديث، ثم أنكره المازري وادعى أن هذا خاص في هؤلاء»[٥].

وقال الشيخ الألوسي: «وقال الشيخ محمد السفاريني في كتابه «البحور الزاخرة

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٣) ومسلم (٢/ ٦٢٤/ ٩٠٥).
(٢) الآيات البينات في عدم سماع الأموات (ص٥٦).
(٣) الحاشية على الدر المختار (٢/ ٣٨١-٣٨٢).
(٤) الآيات البينات في عدم سماع الأموات (ص٦١ - ٦٢).
(٥) شرح مسلم (١٧/ ١٦٩).

في أحوال الآخرة» ما عبارته: وأنكرت عائشة رضي الله عنها سماع الموتى، وقالت: ما قال رسول اللَّه -صلى اللَّه تعالى عليه وسلم-: «**إنهم ليسمعون الآن ما أقول**» إنما قال: «**لَيَعلمون الآن ما كنت أقول لهم أنه حق**»، ثم قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، و ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، قال الحافظ ابن رجب[١]: (وقد وافق عائشة على نفي سماع الموتى كلام الأحياء طائفة من العلماء، ورجحه القاضي أبو يعلى من أكابر أصحابنا في كتابه «الجامع الكبير»، واحتجوا بما احتجت به، وأجابوا عن حديث قليب بدر بما أجابت به عائشة رضي اللَّه تعالى عنها، وبأنه يجوز أن يكون ذلك معجزة مختصة بالنبي صلى اللَّه تعالى عليه وسلم دون غيره، وهو سماع الموتى لكلامه، وفي صحيح البخاري: قال قتادة: أحياهم اللَّه تعالى -يعني أهل القليب- حتى أسمعهم قوله صلى اللَّه تعالى عليه وسلم توبيخًا وتصغيرًا ونقمة وحسرة وندمًا)[٢]. وذهب طوائف من أهل العلم إلى سماع الموتى كلام الأحياء في الجملة. انتهى ما هو المقصود منه.

فتبين منه أن طائفة من العلماء وافقوا عائشة -رضي اللَّه تعالى عنها أيضًا- على عدم السماع، وأن منهم القاضي أبو يعلى الذي هو من أكابر العلماء الحنبلية، كما هو مذهب أئمتنا الحنفية رحمهم اللَّه تعالى»[٣].

وذهب آخرون إلى سماع الميت كلام الحي مستدلين بحديث ابن عمر في كلامه ﷺ مع القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، وبحديث أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم**»[٤].

وبقوله ﷺ: «**ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد اللَّه عليه روحه حتى يرد** عليه السلام». وهذا حديث لا مستند لهم فيه لضعفه؛ قال الحافظ ابن رجب: «إنه ضعيف بل منكر»[٥].

---

(١) عزاه الشيخ الألباني إلى كتاب «أهوال القبور» (ق٧٦/ ١-٢ مخطوطة الظاهرية). انظر حاشية الآيات البينات (ص٦٨،-٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩)، والبخاري (٧/ ٣٨٢/ ٣٣٧٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤/ ٢٨٧٥)، وأبو داود (٣/ ١٤٣-١٤٤/ ٢٦٩٥)، والترمذي (٤/ ١٠٣/ ١٥٥٩).

(٣) الآيات البينات (ص٦٨،-٦٩).

(٤) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٣) ومسلم (٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١/ ٢٨٧٠) وأبو داود (٥/ ١١٢-١١٤/ ٤٧٥).

(٥) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٤٩٣).

قال الشيخ الألوسي في «روح المعاني»: «واحتج من أجاز السماع في الجملة بما رواه البيهقي والحاكم وصححه، وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على مصعب بن عمير وعلى أصحابه حين رجع من أحد فقال: أشهد أنكم أحياء عند اللَّه تعالى فزوروهم وسلموا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم أحد عليهم إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة»[١].

قال الشيخ الألباني متعقبًا لهذا الحديث: «مال الذهبي إلى أنه موضوع، وهو غلو، وأعله الحافظ ابن رجب بالاضطراب والإرسال، وقد بينت ذلك في «الضعيفة» (٥٢٢٠)[٢]. ومثله حديث أبي رزين أن أهل القبور يسمعون السلام عليكم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا. فهو منكر كما بينته في المصدر المذكور (رقم٥٢٢٥»)[٣].

والقول بسماع الميت كلام الأحياء هو ما انتصر له ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الروح»[٤] وشيخ الإسلام في مجموع الفتاوى[٥]، وأيّد كلامهما الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في بحث طويل من كتابه «الأضواء»[٦] فقال: «فكلام ابن القيم هذا الطويل الذي ذكرنا بعضه جملة وبعضه تفصيلًا فيه من الأدلة المقنعة ما يكفي في الدلالة على سماع الأموات وكذلك الكلام الذي نقلنا عن شيخه أبي العباس ابن تيمية رحمهما اللَّه تعالى، وفي كلامهما الذي نقلنا عنهما أحاديث صحيحة وآثار كثيرة ومرائي متواترة وغير ذلك»[٧].

وقال: «وبجميع ما ذكرنا في هذا المبحث في الكلام على آية (النمل) هذه تعلم أن الذي يرجحه الدليل: أن الموتى يسمعون سلام الأحياء وخطابهم سواء قلنا: إن اللَّه يردّ عليهم أرواحهم حتى يسمعوا الخطاب ويردّوا الجواب، أو قلنا: إن الأرواح أيضًا تسمع وتردّ بعد فناء الأجسام، لأنا قد قدّمنا أن هذا ينبني على مقدّمتين، ثبوت سماع الموتى بالسنة الصحيحة، وأن القرآن لا يعارضها على التفسير الصحيح الذي تشهد له القرائن القرآنيّة، واستقراء القرآن، وإذا ثبت ذلك

---

(١) الآيات البينات (ص٦٩).

(٢) قلت: بل هو برقم (٥٢٢١).

(٣) المصدر السابق (ص٦٩، هامش)

(٤) الروح (ص٤٥ - ٤٦).

(٥) (٤/ ٢٩٥-٢٩٩).

(٦) (٦/ ٤٣٤).

(٧) أضواء البيان (٦/ ٤٣٤).

بالسنة الصحيحة من غير معارض من كتاب ولا سنّة، ظهر بذلك رجحانه على تأوّل عائشة ﵂، ومن تبعها بعض آيات القرآن، كما تقدّم إيضاحه. وفي الأدلّة التي ذكرها ابن القيّم في كتاب «الروح» على ذلك مقنع للمنصف».

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير آية الروم: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] وقد ذكر حديث ابن عمر في القليب وحديث سماع الميت قرع النعال وغيرها وختم ذلك بمجموعة من المرائي والمنامات، قال: «وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «**سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون، يرحم اللّه المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل اللّه لنا ولكم العافية**»[2]، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلِّم الرد، واللّه أعلم»[3].

الترجيح:

قال الشيخ الألباني ﵀: «من المعلوم أن الاعتقاد بأن الموتى يسمعون هو السبب الأقوى لوقوع كثير من المسلمين اليوم في الشرك الأكبر، ألا وهو دعاء الأولياء والصالحين وعبادتهم من دون اللّه ﷿، جهلًا وعنادًا، ولا ينحصر ذلك في الجهال منهم، بل يشاركهم في ذلك كثير ممن ينتمي إلى العلم، بل وقد يظن الجماهير أنه من كبار العلماء! فإنهم يبررون لهم ذلك خطابة وكتابة بمختلف التبريرات التي ما أنزل اللّه بها من سلطان، والأحزاب الإسلامية كلها مع الأسف لا تعير لذلك اهتمامًا يذكر؛ لأنه يؤدي بزعم بعضهم إلى الاختلاف والتفرقة! مع أنهم يعلمون أن الأنبياء إنما كان أول دعوتهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[4]، وخيرهم من يسكت عن قيام غيره بهذا الواجب.. فإني لا أكاد

---

(١) الروم الآية (٥٢).

(٢) هذا الحديث مركب من حديثي عائشة وبريدة، أما حديث عائشة فلفظه: «**السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم اللّه المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء اللّه بكم للاحقون**» أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٩-٦٧١/ ٩٧٤(١٠٣)). وحديث بريدة ولفظه: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء اللّه بكم للاحقون، نسأل اللّه لنا ولكم العافية**» أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١/ ٩٧٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤٣).

(٤) النحل الآية (٣٦).

أتصور ولا غيري يتصور مسلمًا يعتقد أن الميت لا يسمع دعاء داعيه، ثم هو مع ذلك يدعوه ومن دون اللَّه يناديه، إلا أن يكون قد تمكنت منه عقيدة باطلة أخرى، هي أضل من هذه وأخزى، كاعتقاد بعضهم في الأولياء، أنهم قبل موتهم كانوا عاجزين، وبالأسباب الكونية مقيدين، فإذا ماتوا انطلقوا وتفلتوا من تلك الأسباب، وصاروا قادرين على كل شيء كربِّ الأرباب! ولا يستغربن أحد هذا ممن عافاهم اللَّه تعالى من الشرك على اختلاف أنواعه، فإن في المسلمين اليوم من يصرح بأن في الكون متصرفين من الأولياء دون اللَّه تعالى»[1].

وقال: «فاعلم أخي المسلم! أن كل ما أعطاه اللَّه تعالى للبشر -وفيهم الأنبياء والأولياء- من قدرات وصفات، أن كل ذلك يذهب بالموت، كالسمع والبصر، والبطش، والمشي، ونحو ذلك، فما يبقى منها شيء كما هو مشاهد، اللهم إلا الروح باتفاق المسلمين، وأجساد الأنبياء كما في الحديث الصحيح، فمن زعم أن الموتى يسمعون فهو كالذي يزعم أنهم يبصرون ويبطشون ويتصرفون! فكل هذا -مع كونه خلاف المشاهد- إنما هو تحدث عما وراء العقل والمادة، وذلك مما لا يجوز شرعًا؛ لأنه من الغيب، ولا يعلم الغيب إلا اللَّه تعالى، وإذا كان الأمر كذلك -وهو كذلك يقينًا لا شك فيه- فلا يجوز نسبة شيء مما ذكر إلى الموتى جميعًا إلا بنص من الشارع الحكيم»[2].

وقال تحت عنوان: (تحقيق أن الموتى لا يسمعون): «هذا، واعلم أن كون الموتى يسمعون أو لا يسمعون، إنما هو أمر غيبي من أمور البرزخ التي لا يعلمها إلا اللَّه ﷻ، فلا يجوز الخوض فيه بالأقيسة والآراء، وإنما يوقف فيه مع النص إثباتًا ونفيًا، وسترى المؤلف -رحمه اللَّه تعالى- ذكر في الفصل الأول كلام الحنفية في أنهم لا يسمعون، وفي الفصل الثاني نقل عن غيرهم مثله، وحكى عن غير هؤلاء أنهم يسمعون، وليس يهمني أن هؤلاء قلة، وأولئك كثرة، فالحق لا يعرف بالكثرة ولا بالقلة، وإنما بدليله الثابت في الكتاب والسنة، مع التفقه فيهما، وهذا ما أنا بصدده إن شاء اللَّه تعالى، فأقول:

---

(١) مقدمة كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» (ص١٠-١١).

(٢) الآيات البينات في عدم سماع الأموات (ص٢٠).

استدل الأولون بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[١] وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٨٠﴾ وأجاب الآخرون بأن الآيتين مجاز، وأنه ليس المقصود بـ(الموتى) وبـ(من في القبور) الموتى حقيقة في قبورهم، وإنما المراد بهم الكفار الأحياء، شبّهوا بالموتى، (والمعنى من هم في حال الموتى، أو في حال من سكن القبر) كما قال الحافظ ابن حجر. .

فأقول: لا شك عند كل من تدبر الآيتين وسياقهما أن المعنى هو ما ذكره الحافظ -رحمه اللّٰه تعالى-، وعلى ذلك جرى علماء التفسير لا خلاف بينهم في ذلك فيما علمت، ولكن ذلك لا يمنع من الاستدلال بهما على ما سبق؛ لأن الموتى لما كانوا لا يسمعون حقيقة، وكان ذلك معروفًا عند المخاطبين، شبه اللّٰه تعالى بهم الكفار الأحياء في عدم السماع، فدل هذا التشبيه على أن المشبه بهم -وهم الموتى في قبورهم- لا يسمعون، كما يدل مثلًا تشبيه زيد في الشجاعة بالأسد على أن الأسد شجاع، بل هو في ذلك أقوى من زيد، ولذلك شبه به، وإن كان الكلام لم يسق للتحدث عن شجاعة الأسد نفسه، وإنما عن زيد، وكذلك الآيتان السابقتان، وإن كانتا تحدثتا عن الكفار الأحياء وشبهوا بموتى القبور، فذلك لا ينفي أن موتى القبور لا يسمعون، بل إن كل عربي سليم السليقة، لا يفهم من تشبيه موتى الأحياء بهؤلاء إلا أن هؤلاء أقوى في عدم السماع منهم كما في المثال السابق، وإذا الأمر كذلك فموتى القبور لا يسمعون. ولما لاح هذا بعض المخالفين لم يسعه إلا أن يسلم بالنفي المذكور، ولكنه قيده بقوله: (سماع انتفاع)! يعني أنهم يسمعون، ولكن سماعًا لا انتفاع فيه! وهذا في نقدي قلب للتشبيه المذكور في الآيتين حيث جعل المشبَّه به مشبهًا، فإن القيد المذكور يصدق على موتى الأحياء من الكفار، فإنهم يسمعون حقيقة، ولكن لا ينتفعون من سماعهم! كما هو مشاهد، فكيف يجوز جعل المشبه بهم من موتى القبور مثلهم في أنهم يسمعون ولكنهم لا ينتفعون من سماعهم! مع أن المشاهد أنهم لا يسمعون مطلقًا، ولذلك حسن التشبيه المذكور في الآيتين الكريمتين، فبطل القيد المذكور.

ولقد كان من الممكن القول بنحو القيد المذكور في موتى القبور، لو كان هناك

---

(١) فاطر الآية (٢٢).

نص قاطع على أن الموتى يسمعون مطلقًا، إذن لوجب الإيمان به والتوفيق بينه وبين ما قد يعارضه من النصوص كالآيتين مثلًا، ولكن مثل هذا النص مما لا وجود له، بل الأدلة قائمة على خلافه، وإليك البيان:

الدليل الأول: قوله تعالى في تمام الآية الثانية: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾، فقد شبههم اللَّه تعالى -أعني موتى الأحياء من الكفار بالصم أيضًا، فهل هذا يقتضي في المشبه بهم (الصم) أنهم يسمعون أيضًا، ولكن سماعًا لا انتفاع فيه أيضًا! أم أنه يقتضي أنهم لا يسمعون مطلقًا، كما هو الحق الظاهر الذي لا خفاء فيه. وفي التفسير المأثور ما يؤيد هذا الذي نقول فقال ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٣٦) لهذه الآية: (هذا مثل معناه: فإنك لا تقدر أن تُفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم اللَّه على أسماعهم، فسلبهم فهم ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله، كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين قد سلبهم اللَّه أسماعهم بأن تجعل لهم أسماعا. وقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يقول: كما لا تقدر أن تسمع الصم الذين سلبوا السمع الدعاء إذا هم ولوا عنك مدبرين، كذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم اللَّه فهم آيات كتابه لسماع ذلك وفهمه).

ثم روى بإسناده الصحيح عن قتادة قال: (هذا مثل ضربه اللَّه للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء كذلك لا يسمع الكافر، ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ يقول: لو أن أصم ولّى مدبرًا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع؛ ولا ينتفع بما سمع). وعزاه في «الدر»[١] لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم دون ابن جرير!

وقد فسر القرطبي (١٣/ ٢٣٢) هذه الآية بنحو ما سبق عن ابن جرير، وكأنه اختصره منه.

فثبت من هذه النقول عن كتب التفسير المعتمدة أن الموتى في قبورهم لا يسمعون، كالصم إذا ولوا مدبرين!

وهذا هو الذي فهمته السيدة عائشة ﵂، واشتهر ذلك عنها في كتب السنة وغيرها». وذكر: «أنه هو الذي فهمه عمر ﵁ وغيره من الصحابة، لما نادى النبي ﷺ أهل القليب، على ما يأتي بيانه قريبًا إن شاء اللَّه تعالى.

---

(١) (٥/ ١١٤).

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[1].

قلت: فهذه الآية صريحة في نفي السمع عن أولئك الذين كان المشركون يدعونهم من دون اللَّه تعالى، وهم موتى الأولياء والصالحين الذين كان المشركون يمثلونهم في تماثيل وأصنام لهم، يعبدونهم فيها، وليس لذاتها، كما يدل على ذلك آية سورة (نوح) عن قومه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣﴾[2]، ففي التفسير المأثور عن ابن عباس وغيره من السلف: أن هؤلاء الخمسة أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم (أي: علم تلك الصور بخصوصها) عُبدت. رواه البخاري وغيره[3]. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[4]، فإنها صريحة في أن المشركين كانوا يعبدون الصالحين، ولذلك اتخذوهم وسائط بينهم وبين اللَّه تعالى قائلين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، ولاعتقادهم بصلاحهم كانوا ينادونهم ويعبدونهم من دون اللَّه، توهمًا منهم أنهم يسمعون، ويضرون وينفعون، ومثل هذا الوهم لا يمكن أن يقع فيه أيّ مشرك مهما كان سخيف العقل لو كان لا يعتقد فيمن يناديه الصلاح والنفع والضر. . ومما يؤيد أن المقصود بقوله في الآية المتقدمة: ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾[5] إنما هم المعبودون من دون اللَّه أنفسهم، وليست ذوات الأصنام تمام الآية: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾، والأصنام لا تبعث لأنها جمادات غير مكلفة كما هو معلوم، بخلاف العابدين والمعبودين فإنهم جميعًا محشورون؛ قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ۝١٨﴾[6]

---

(١) فاطر الآيتان (١٣و١٤).
(٢) نوح الآية (٢٣).
(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٦٢/ ٤٩٢٠).
(٤) الزمر الآية (٣).
(٥) فاطر الآية (١٤).
(٦) الفرقان الآيتان (١٧و١٨).

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾[1]. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾[2] وخير ما فسر به القرآن، إنما هو القرآن والسنة، وليس فيهما -فيما أعلم- ما يدل على أن اللّه يحشر الجمادات أيضًا، فوجب الوقوف عند هذه الآية الصريحة فيما ذكرنا.

وقد يقول قائل: إن هذا الذي بينته قوي متين، ولكنه يخالف ما جرى عليه كثير من المفسرين في تفسير آية سورة (فاطر)، وما في معناها من الآيات الأخرى، فقالوا: إن المراد بها الأصنام نفسها، وبناءً على ذلك عللوا قوله تعالى فيها: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ بقولهم: (لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع).

فأقول: لا شك أن هذا بظاهره ينافي ما بينت، ولكنه لا ينفي أن يكون لهم قول آخر يتماشى مع ما حققته، فقد قال القرطبي (١٤/ ٣٣٦) عقب التعليل المذكور آنفًا، وتبعه الشوكاني (٤/ ٣٣٣) وغيره ما معناه: (ويجوز أن يرجع . . ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين، والمعنى أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقًّا وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى ﷺ بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾. وقد ذكرا نحوه في تفسير آية (الزمر) المتقدمة.

قلت: وهو أولى من تفسيرهما السابق؛ لأنه مدعم بالآيات المتقدمة بخلاف تفسيرهما المشار إليه، فإنه يستلزم القول بحشر الأصنام ذاتها؛ وهذا مع أنه لا دليل عليه فإنه يخالف الآيات المشار إليها، ولهذا قال الشيخ عبدالرحمن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب -رحمهما الله- في كتابه «قرة عيون الموحدين» (ص١٠٧-١٠٨) في تفسير آيتي (فاطر) ما نصه:

(ابتدأ تعالى هذه الآيات بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ﴾، يخبر الخبير أن الملك له وحده، والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره، ولهذا قال:

---

(١) سبأ الآيتان (٤٠و٤١).

(٢) المائدة الآية (١١٦).

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع، أو دفع ضر إلى أحد سوى اللّٰه تعالى وتقدس، بل يجب إخلاص الدعاء -الذي هو أعظم أنواع العبادة- له، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئًا، وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم، ولو فُرض أنهم يسمعون، فلا يستجيبون لداعيهم، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم، أي ينكرونه، ويتبرؤون ممن فعله معهم. فهذا الذي أخبر به الخبير الذي ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1] وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به، وأنه لا يغفره لمن لقيه، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع، بل قالوا: إن الميت يسمع، ومع سماعه ينفع، فتركوا الإسلام والإيمان رأسًا، كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة).

فتبين مما تقدم وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ على أن الصالحين لا يسمعون بعد موتهم، وغيرهم مثلهم بداهة، بل ذلك من باب أولى كما لا يخفى، فالموتى كلهم إذن لا يسمعون، واللّٰه الموفق.

الدليل الثالث: حديث قليب بدر، وله روايات مختصرة ومطولة، أجتزئ هنا على روايتين منها:

الأولى: حديث ابن عمر قال:

وقف النبي ﷺ على قليب بدر، فقال: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟**» ثم قال: «**إنهم الآن يسمعون ما أقول**»، فذُكر لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: «**إنهم الآن يعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق**»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية[2].

والأخرى: حديث أبي طلحة أن نبي اللّٰه ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فقذفوا في طَوِيّ من أطواء بدر خبيث مُخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث، أمر براحلته فشد عليها

(١) آل عمران الآية (٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١)، والبخاري (٧/ ٢٤٢)، والنسائي (١/ ٦٩٣).

رحلها ثم مشى، واتبعه أصحابه وقالوا: ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الرَّكيّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟**» قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**». قال قتادة: أحياهم اللَّه حتى أسمعهم قوله توبيخًا، وتصغيرًا، ونقمة، وحسرة، وندمًا[1]. أخرجه الشيخان وغيرهما..

ووجه الاستدلال بهذا الحديث يتضح بملاحظة أمرين:

الأول: ما في الرواية الأولى منه من تقييده ﷺ سماع موتى القليب بقوله: «**الآن**»، فإن مفهومه أنهم لا يسمعون في غير هذا الوقت. وهو المطلوب. وهذه فائدة هامة نبّه عليها العلامة الألوسي -والد المؤلف رحمهما الله- في كتابه «روح المعاني» (٦/ ٤٥٥)، ففيه تنبيه قوي على أن الأصل في الموتى أنهم لا يسمعون، ولكن أهل القليب في ذلك الوقت قد سمعوا نداء النبي ﷺ وبإسماع اللَّه تعالى إياهم خرقًا للعادة ومعجزة للنبي ﷺ.. وفي تفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٢): (قال ابن عطية[2]: فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد ﷺ في أن رد اللَّه إليهم إدراكًا سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول اللَّه ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين).

قلت: ولذلك أورده الخطيب التبريزي في (باب المعجزات) من «المشكاة» (ج ٣ رقم ٥٩٣٨ بتخريجي).

والأمر الآخر: أن النبي ﷺ أقر عمر وغيره من الصحابة على ما كان مستقرًا في نفوسهم واعتقادهم أن الموتى لا يسمعون، بعضهم أومأ إلى ذلك إيماءً، وبعضهم ذكر ذلك صراحة، لكن الأمر بحاجة إلى توضيح فأقول:

أما الإيماء فهو في مبادرة الصحابة لما سمعوا نداءه ﷺ لموتى القليب بقولهم:

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩) والبخاري (٧/ ٣٨٢/ ٣٩٧٦) ومسلم (٤/ ٢٢٠٤/ ٢٨٧٦) وأبو داود (٣/ ١٤٣-١٤٤/ ٢٦٩٥) والترمذي (٤/ ١٠٣/ ١٥٥١).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٧٠).

«ما تُكلم أجسادًا لا أرواح فيها؟»، فإن في رواية أخرى عن أنس نحوه بلفظ: «قالوا»، بدل: «قال عمر». . فلولا أنهم كانوا على علم بذلك سابق تلقوه منه ﷺ، ما كان لهم أن يبادروه بذلك. وهب أنهم تسرعوا، وأنكروا بغير علم سابق، فواجب التبليغ حينئذ يوجب على النبي ﷺ أن يبين لهم أن اعتقادهم هذا خطأ، وأنه لا أصل له في الشرع، ولم نر في شيء من روايات الحديث مثل هذا البيان، وغاية ما قال لهم: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**». وهذاكما ترى- ليس فيه تأسيس قاعدة عامة بالنسبة للموتى جميعًا تخالف اعتقادهم السابق، وإنما هو إخبار عن أهل القليب خاصة، على أنه ليس ذلك على إطلاقه بالنسبة إليهم أيضًا إذا تذكرت رواية ابن عمر التي فيها: «**إنهم الآن يسمعون**» كما تقدم شرحه، فسماعهم إذن خاص بذلك الوقت، وبما قال لهم النبي ﷺ فقط، فهي واقعة عين لا عموم لها؛ فلا تدل على أنهم يسمعون دائمًا وأبدًا، وكل ما يقال لهم، كما لا تشمل غيرهم من الموتى مطلقًا، وهذا واضح -إن شاء الله- تعالى. ويزيده وضوحًا ما يأتي.

وأما الصراحة فهي فيما رواه أحمد (٣/ ٢٨٧) من حديث أنس ﷺ قال: «. . فسمع عمر صوته، فقال: يا رسول اللّه أتناديهم بعد ثلاث؟ وهل يسمعون؟ يقول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾، فقال: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا**»[١]. وسنده صحيح على شرط مسلم. فقد صرح عمر ﷺ أن الآية المذكورة هي العمدة في تلك المبادرة، وأنهم فهموا من عمومها دخول أهل القليب فيه، ولذلك أشكل عليهم الأمر، فصارحوا النبي بذلك ليزيل إشكالهم؟ وكان ذلك ببيانه المتقدم.

ومنه يتضح أن النبي ﷺ أقر الصحابة -وفي مقدمتهم عمر- على فهمهم للآية على ذلك الوجه العام الشامل لموتى القليب وغيرهم؛ لأنه لم ينكره عليهم، ولا قال لهم: أخطأتم فالآية لا تنفي مطلقًا سماع الموتى، بل إنه أقرهم على ذلك ولكن بين لهم ما كان خافيًا عليهم من شأن القليب، وأنهم سمعوا كلامه حقًا، وأن ذلك أمر خاص مستثنى من الآية، معجزة له ﷺ كما سبق.

هذا، وإن مما يحسن التنبيه عليه وإرشاد الأريب إليه، أن استدلال عائشة

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٧) وأصله عند مسلم (٤/ ٢٢٠٣/ ٢٨٧٤).

المتقدم بالآية يشبه تمامًا استدلال عمر بها، فلا وجه لتخطئتها اليوم بعد تبيُّن إقرار النبي ﷺ لعمر عليه، اللهم إلا في ردها على ابن عمر في روايته لقصة القليب بلفظ السماع وتوهيمها إياه، فقد تبين من اتفاق جماعة من الصحابة على روايتها كروايته هو، أنها هي الواهمة، وإن كان من الممكن الجمع بين روايتهم وروايتها . . فخطؤها ليس في الاستدلال بالآية، وإنما في خفاء القصة عليها على حقيقتها، ولولا ذلك لكان موقفها موقف سائر الصحابة منها، ألا وهو الموقف الجازم بها، على ما أخبر به النبي ﷺ، واعتبارها مستثناة من الآية.

فتنبه لهذا، واعلم أن من الفقه الدقيق الاعتناء بتتبع ما أقره النبي ﷺ من الأمور، والاحتجاج به، لأن إقراره ﷺ حق كما هو معلوم، وإلا فبدون ذلك قد يضل الفهم عن الصواب في كثير من النصوص، ولا نذهب بك بعيدًا، فهذا هو الشاهد بين يديك، فقد اعتاد كثير من المؤلفين وغيرهم أن يستدلوا بهذا الحديث -حديث القليب- على أن الموتى يسمعون متمسكين بظاهر قوله ﷺ: «**ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم**»، غير منتبهين لإقراره ﷺ الصحابة على اعتقادهم بأن الموتى لا يسمعون وأنه لم يرده عليهم، إلا باستثناء أهل القليب منه، معجزة له ﷺ، فعاد الحديث بالتنبه لما ذكرنا حجة على أن الموتى لا يسمعون، وأن هذا هو الأصل. فلا يجوز الخروج عنه إلا بنص، كما هو الشأن في كل نص عام. والله تعالى الموفق.

وقد يجد الباحث من هذا النوع أمثلة كثيرة».

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالين وقال: «فقد تبين مما سبق أنه دليل صريح على أن الموتى لا يسمعون، وذلك من ملاحظتنا إقرار النبي لاستنكار عمر سماعَهم واستدلاله عليه بالآية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فلا يجوز لأحد بعد هذا أن يلتفت إلى أقوال المخالفين القائلين بأن الموتى يسمعون، فإنه خلاف القرآن الذي بينه الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

الدليل الرابع: قول النبي ﷺ: «**إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام**»[1].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٤١) والنسائي (٣/ ٥٠/ ١٢٨١) وصححه ابن حبان (٣/ ١٩٥/ ٩١٤) الإحسان).

أقول: ووجه الاستدلال به أنه صريح في أن النبي ﷺ لا يسمع سلام المسلمين عليه، إذ لو كان يسمعه بنفسه، لما كان بحاجة إلى من يبلغه إليه، كما هو ظاهر لا يخفى على أحد -إن شاء اللَّه تعالى-. وإذا كان الأمر كذلك، فبالأولى أنه ﷺ لا يسمع غير السلام من الكلام، وإذا كان كذلك فلأن لا يسمع السلام غيرُه من الموتى أولى وأحرى.

ثم إن الحديث مطلق يشمل حتى من سلم عليه ﷺ عند قبره، ولا دليل يصرح بالتفريق بينه وبين من صلى عليه بعيدًا عنه، والحديث المروي في ذلك موضوع..

وهذا الاستدلال لم أره لأحد قبلي، فإذا كان صوابًا -كما أرجو- فهو فضل من اللَّه ونعمة، وإن كان خطأ فهو من نفسي، واللَّه تعالى أسأل أن يغفره لي وسائر ذنوبي.

أدلة المخالفين:

فإن قيل: يظهر من النقول التي ستأتي في الرسالة عن العلماء أن المسألة خلافية، فلا بد أن للمخالفين فيها أدلة استندوا إليها.

فأقول: لم أر فيها من صرح بأن الميت يسمع سماعًا مطلقًا عامًا، كما كان شأنه في حياته، ولا أظن عالمًا يقول به، وإنما رأيت بعضهم يستدل بأدلة يثبت بها سماعًا لهم في الجملة، وأقوى ما استدلوا به سندًا حديثان:

الأول: حديث قليب بدر المتقدم، وقد عرفت مما سبق بيانه أنه خاص بأهل القليب من جهة، وأنه دليل على أن الأصل في الموتى أنهم لا يسمعون من جهة أخرى، وأن سماعهم كان خرقًا للعادة، فلا داعي للإعادة.

والآخر: حديث: «**إن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا**»[١]. وفي رواية: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان..**»[٢] الحديث.

وهذا كما ترى خاص بوقت وضعه في قبره ومجيء الملكين إليه لسؤاله، فلا عموم فيه، وعلى ذلك حمله العلماء كابن الهمام وغيره..

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وأغرب ما رأيت من الأدلة قول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الروح» (ص٨) تحت المسألة الأولى: هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا؟ فأجاب بكلام طويل جاء فيه ما نصه: (ويكفي في هذا تسمية المسلم عليهم زائرًا، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائرًا، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال: زاره، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك السلام عليهم أيضًا؛ فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلّم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار..»[1]، وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب، ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلّم الرد).

أقول وباللَّه تعالى التوفيق: رحم اللَّه ابن القيم، فما كان أغناه عن الدخول في مثل هذا الاستدلال العقلي، الذي لا مجال له في أمر غيبي كهذا، فواللَّه لو أن ناقلًا نقل هذا الكلام عنه ولم أقف أنا بنفسي عليه لما صدقته لغرابته، وبعده عن الأصول العلمية، والقواعد السلفية، التي تعلمناها منه ومن شيخه الإمام ابن تيمية، فهو أشبه شيء بكلام الآرائيين والقياسيين الذين يقيسون الغائب على الشاهد، والخالق على المخلوق، وهو قياس باطل فاسد، طالما رد ابن القيم أمثاله على أهل الكلام والبدع. ولهذا وغيره فإني في شك كبير من صحة نسبة «الروح» إليه، أو لعله ألفه في أول طلبه للعلم. واللَّه أعلم.

ثم إن كلامه مردود في شطريه بأمرين:

الأول: ما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يزور البيت في الحج[2]، وأنه كان وهو في المدينة يزور قباء راكبًا وماشيًا[3]، ومن المعلوم تسمية طواف الإفاضة بطواف الزيارة. فهل من أحد يقول: بأن البيت وقباء يشعر كل منهما بزيارة الزائر، أو أنه يعلم بزيارته؟!

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٧) والبخاري معلقا بصيغة التمريض ووصله الحافظ في تعليق التعليق، والنسائي (٣/ ١٥٠-١٥١/ ٢٦٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤-٥) والبخاري (٣/ ٨٩/ ١١٩٤) ومسلم (٢/ ١٠١٦/ ١٣٩٩).

وأما الآخر: فهو مخاطبة الصحابة للنبي ﷺ في تشهد الصلاة بقولهم: «**السلام عليك أيها النبي**..»[١] وهم خلفه، أو قريبًا منه، وبعيدًا عنه، في مسجده وفي غير مسجده، أفيقال: إنه كان يسمعهم ويشعر بهم حين يخاطبونه به، وإلا فالسلام عليه محال؟! اللهم غفرًا..

ويكفي في رد ذلك أن يقال: إنه استدلال مبني على الاستنباط والنظر، فمثله قد يمكن الاعتداد به، إذا لم يكن مخالفًا للنص والأثر، فكيف وهو مخالف لنصوص عدة، واحد منها فقط فيه كفاية وغنية، كما سلف، وبخاصة منها حديث قليب بدر، وفيه إقرار النبي ﷺ لعمر أن الموتى لا يسمعون، فلا قيمة إذن للاستنباط المذكور، فإن الأمر كما قيل: (إذا جاء الأثر بطل النظر، وإذا جاء نهر اللَّه بطل نهر معقل)..

وخلاصة البحث والتحقيق: أن الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أئمة الحنفية وغيرهم على أن الموتى لا يسمعون، وأن هذا هو الأصل، فإذا ثبت أنهم يسمعون في بعض الأحوال، كما في حديث خفق النعال، أو أن بعضهم سمع في وقت ما، كما في حديث القليب، فلا ينبغي أن يجعل ذلك أصلًا، فيقال إن الموتى يسمعون كما فعل بعضهم كلا، فإنها قضايا جزئية، لا تشكل قاعدة كلية، يعارض بها الأصل المذكور، بل الحق أنه يجب أن تستثنى منه، على قاعدة استثناء الأقل من الأكثر، أو الخاص من العام، كما هو المقرر في علم أصول الفقه، ولذلك قال العلامة الألوسي في «روح المعاني» بعد بحث مستفيض في هذه المسألة (٦/ ٤٥٥): (والحق أن الموتى يسمعون في الجملة، فيقتصر على القول بسماع ما ورد السمع بسماعه).

وهذا مذهب طوائف من أهل العلم كما قال الحافظ ابن رجب الحنبلي، وما أحسن ما قاله ابن التين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الموتى لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد اللَّه تعالى إسماع ما ليس من شأنه السماع لم يمتنع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[٢] الآية، وقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[٣] الآية...

فإذا علمت أيها القارئ الكريم! أن الموتى لا يسمعون، فقد تبين أنه لم يبق

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢) والبخاري (١١/ ١٥/ ٦٢٣٠) ومسلم (١/ ٣٠١-٣٠٢/ ٤٠٢).

(٢) الأحزاب الآية (٧٢).

(٣) فصلت الآية (١١).

هناك مجال لمناداتهم من دون الله تعالى، ولو يطلب ما كانوا قادرين عليه وهم أحياء، بحكم كونهم لا يسمعون النداء، وأن مناداة من كان كذلك والطلب منه سخافة في العقل، وضلال في الدين، وصدق الله العظيم، القائل في كتابه الكريم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾[(1)]». اهـ[(2)]

مسألة:

قال الشيخ نعمان الألوسي: «فإن قيل: إذا كان مذهب الحنفية وكثير من العلماء المحققين على عدم السماع، فما فائدة السلام على الأموات وكيف صحة مخاطبتهم عند السلام؟

قلت: لم أجد فيما بين يدي الآن من كتبهم جوابهم عن ذلك، ولا بد أن تكون لهم أجوبة عديدة فيما هنالك، والذي يخطر في الذهن ويتبادر إلى الخاطر والفهم أنهم لعلهم أجابوا بأن ذلك أمر تعبدي، وبأنا نسلم سرًّا في آخر صلاتنا إذا كنا مقتدين وننوي بسلامنا الحفظة والإمام وسائر المقتدين، مع أن هؤلاء القوم لا يسمعونه لعدم الجهر به، فكذا ما نحن فيه. على أن السلام هو الرحمة للموتى، وننزلهم منزلة المخاطبين السامعين، وذلك شائع في العربية كما لا يخفى على العارفين، فهذه العرب تسلم على الديار، وتخاطبها على بعد المزار[(3)]»[(4)].

وأضاف ابن عطية حكمة أخرى في السلام على الموتى فقال: «لأن السلام على القبور إنما هو عبادة وعند الله الثواب عليها وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم»[(5)].

* * *

(١) الأحقاف الآيتان (٥و٦).

(٢) الآيات البينات (ص٢١ - ٤١).

(٣) قال الشيخ الألباني: «ومن ذلك مخاطبة النبي ﷺ الهلال حين يراه بقوله: «.. ربنا وربك الله» ونحوه مما جاء في عدة أحاديث». قال: «وفي ذلك كله رد قوي على ابن القيم في «الروح» (ص٨).

(٤) الآيات البينات (ص٩٥).

(٥) المحرر الوجيز (٤/ ٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه اللَّه وفرض وقته. ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ خارجة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء. وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون؛ أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات اللَّه، فإظهار اللَّه هذه الدابة من آيات اللَّه العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث ولم يأت دليل يدل على كيفيتها ولا من أي: نوع هي وإنما دلت الآية الكريمة على أن اللَّه يخرجها للناس وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر اللَّه به في كتابه واللَّه أعلم. لم يذكر اللَّه ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها، والمقصود منها، وأنها من آيات اللَّه تكلم الناس كلاما خارقا للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات اللَّه، فتكون حجة وبرهانا للمؤمنين وحجة على المعاندين»[1].

قال ابن عاشور: «والتعبير عن وقوعه بصيغة الماضي لتقريب زمن الحال من المضي، أي أشرف وقوعه، على أن فعل المضي مع (إذا) ينقلب إلى الاستقبال.. وإخراج الدابة من الأرض ليريهم كيف يحي اللَّه الموتى إذ كانوا قد أنكروا البعث. ولا شك أن كلامها لهم خطاب لهم بحلول الحشر. وإنما خلق اللَّه الكلام لهم على لسان دابة تحقيرا لهم وتنديما على إعراضهم عن قبول أبلغ كلام وأوقعه من أشرف إنسان وأفصحه، ليكون لهم خزيا في آخر الدهر يعيرون به في المحشر. فيقال: هؤلاء الذين أعرضوا عن كلام رسول كريم فخوطبوا على لسان حيوان بهيم. على

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٦٠١-٦٠٢).

نحو ما قيل: استفادة القابل من المبدإ تتوقف على المناسبة بينهما.

وجملة ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تعليل لإظهار هذا الخارق للعادة حيث لم يوقن المشركون بآيات القرآن فجعل ذلك إلجاء لهم حين لا ينفعهم»[١].

قال القاسمي عند قوله تعالى: . . ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾: «اعلم أن في هذا الوعيد وجوهًا من التأويل:

الأول: أنه دنيوي، عنى به نصر الرسول -صلوات اللَّه عليه- عليهم. والمعنى أن أولئك الصم عن سماع الآيات، العمي عن النظر فيها، الجاحدين لها، سيأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعي وهو الرسول وأتباعه، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئيهم، ويظهروا على عدوهم. وذلك بأن تدبّ إليهم من المؤمنين دابة عظمى تملأ السهل والربى، تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتدكّ أعلامهم، فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد، وسعيهم في الأرض الفساد، فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح، وقائد الفلاح والنجاح، وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون، وإن جنده لهم الغالبون. وقد صدق اللَّه وعده، وأعزّ جنده»[٢]. ثم ذكر وجوه الآية الأخرى.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خروج الدابة

* عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: **إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٣٨-٣٩). (٢) محاسن التأويل (١٣/ ٨٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٦-٧) ومسلم (٤/ ٢٢٢٥-٢٢٢٦/ ٢٩٠١) وأبو داود (٤/ ٤٩١-٤٩٢/ ٤٣١١) والترمذي (٤/ ٤١٤/ ٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٤/ ١١٣٨٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٤٧/ ٤٠٥٥).

★ **غريب الحديث:**

خسف: خسف المكان يخسف خسوفًا: ذيب في الأرض.

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**»(١).

* عن عبداللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول اللَّه ﷺ حديثًا لم أنسه بعد: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا**»(٢).

* عن أبي أمامة مرفوعا قال: «**تخرج الدابة فَتَسِمُ الناس على خراطيمهم، ثم يُغْمَرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير، فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول: اشتريته من أحد المخَطَّمين**»(٣).

★ **غريب الأحاديث:**

تَسِمُ: يقال: وَسَمَهُ يَسِمُهُ وَسْمًا: إذا أثّر فيه بكيّ. والميسم هي الحديدة التي يكوى بها.

يُغْمَرون: الغَمْر: بفتح الغين وسكون الميم: الكثير؛ أي: يغمر من دخله ويغطيه.

المخَطَّمين: الخطم: الوسم: من خطمت البعير: إذا كويته خطًا من الأنف إلى أحد خديه وتسمى تلك السمة: الخطام.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٤، ٣٣٧، ٤٠٧) ومسلم (٤/ ٢٢٦٧/ ٢٩٤٧) وابن حبان (الإحسان ١٥/ ١٩٩-٢٠٠/ ٦٧٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٤-٢٠١) ومسلم (٤/ ٢٢٦٠/ ٢٩٤١) وأبو داود (٤/ ٤٩٠-٤٩١/ ٤٣١٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٥٣/ ٤٠٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٨) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٨٨-٨٩) والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٧٢/ ٢٠٧١)، من طرق عن عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون عن عمر بن عبدالرحمن بن عطية بن دلاف المزني عن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عمر بن عبدالرحمن بن عطية وهو ثقة».

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القرطبي: «قوله: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى**» يعني -واللَّه أعلم- أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأن ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه، بدليل ما رواه أبو داود من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»[1]. ومعنى قوله: «**إذا طلعت ورآها الناس آمن مَنْ عليها**» أي: حصل لجميع من على الأرض التصديق الضروري بأمور القيامة الذي لا يكلَّف به ولا ينفع صاحبه، لكون أمور الآخرة معاينة، وإنما كان طلوع الشمس مخصوصًا بذلك؛ لأنه أول تغيير هذا العالم العلوي الذي لم يشاهد فيه تغيير منذ خلقه اللَّه تعالى، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبله من الآيات فقد شوهد ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك وطُبع على كل قلب بما فيه من كفر أو إيمان أخرج اللَّه الدابة معرفة لما في بواطن الناس من إيمان أو كفر فتكلمهم بذلك. أي تعرف المؤمن من الكافر بالكلام، وتسم وجوه الفريقين بالنفح، فينتقش وصفه في جبهته مؤمن أو كافر، حتى يتعارف الناس بذلك، فيقول المؤمن للكافر: بكم سلعتك يا كافر؟ ويقول الكافر: بكذا يا مؤمن، ثم يبقى الناس على ذلك ما شاء اللَّه، ثم يرسل اللَّه ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرة إيمان إلا قبضته»[2].

قال القرطبي: «واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها.. اختلافًا كثيرًا.. فأول الأقوال إنه فصيل ناقة صالح.. وروي أنها دابة مزغبة شعراء. وقيل: إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة. وقال بعض المتأخرين من المفسرين: إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنسانًا متكلمًا يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا فيهلك من هلك عن بينة

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣١)، والبخاري (٨/ ٣٧٧/ ٤٦٣٦)، ومسلم (١/ ١٣٧/ ١٥٧)، وأبو داود (٤/ ٤٩٢/ ٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣-٣٤٤/ ١١١٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٢/ ٤٠٦٨).

(٢) المفهم (٧/ ٢٤٢-٢٤٣).

ويحيى من حيي عن بينة»[١].

قال القرطبي في المفهم: «وإنما كان هذا عند هذا القائل الأقرب لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير. فلا آية خاصة، فلا ينبغي أن تُذكر مع العشر. وترتفع خصوصية وجودها، فإذا وقع القول ثم: فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي يحتج على أهل الأرض باسم الإنسان، أو بالعالم، أو بالإمام إلى أن يسمى بدابة، وهذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلماء، وليس ذلك دأب العقلاء، فالأولى ما قاله أهل التفسير. وأما كيفية صفتها وخلقتها، وبماذا تكلمهم، فاللَّه أعلم بذلك»[٢].

قال الشيخ أحمد شاكر: «والآية صريحة بالقول العربي أنها دابة، ومعنى الدابة في لغة العرب معروف واضح لا يحتاج إلى تأويل». اهـ[٣].

قال القرطبي: «وقد اختلف في صورتها، وفي أي موضع تخرج منه على أقوال كثيرة»[٤].

فقيل: «تخرج من جبل الصفا بمكة يتصدع فتخرج منه. وقيل: تخرج ثلاث خرجات: خرجة في بعض البوادي ثم تكمن، وخرجة في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها. وقيل: من تهامة، وقيل: من أرض الطائف، وقيل: من صخرة من شعب أجياد»[٥].

قال القرطبي: «وليس في شيء من ذلك خبر صحيح مرفوع». اهـ[٦]

قال البغوي: «واختلفوا في كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحد: هذا مؤمن، وتقول

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٥٦-١٥٧) باختصار شديد.

(٢) المفهم (٧/ ٢٤٠-٢٤١).

(٣) حاشية أحمد شاكر على المسند (٥/ ٨٢).

(٤) المفهم (٧/ ٢٤٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٥٧) بتصرف واختصار شديد.

(٦) المفهم (٧/ ٢٤٠).

لآخر: هذا كافر. وقيل: كلامها ما قال اللَّه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. قال مقاتل تكلمهم بالعربية، فتقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث. قرأ أهل الكوفة: أن الناس بفتح الألف؛ أي: بأن الناس، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف؛ أي: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر. وقرأ سعيد بن جبير، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي: تكلمهم بفتح التاء وتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح. قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية: تَكْلِمهم أو تُكَلِّمهم؟ قال: كل ذلك تفعل، تكلم المؤمن، وتكلم الكافر»[1].

قال ابن كثير: «وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. ويروى هذا عن علي، واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نظر لا يخفى واللَّه أعلم. وقال ابن عباس في رواية: تجرحهم. وعنه رواية قال: كلا تفعل يعني هذا وهذا، وهو قول حسن ولا منافاة. واللَّه أعلم»[2].

* * *

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٦٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فوجا: الفوج الجماعة من الناس.

يوزعون: أي محتبسون للعقاب، وأصل الوزع: المنع والكف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ﷻ، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعا وتوبيخا، وتصغيرا وتحقيرا، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: من كل قوم وقرن فوجا؛ أي: جماعة، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾[2].

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون. وقال قتادة: وزعة ترد أولهم على آخرهم»[3].

قال الزمخشري: «وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك. وكذلك قوله: ﴿فَوْجًا﴾ فإن الفوج الجماعة الكثيرة. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[4]»[5].

قال الشنقيطي: «هذه الآية يدل ظاهرها على أن الحشر خاص بهؤلاء الأفواج المكذبة، وقوله بعد هذا بقليل: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ يدل على أن الحشر عام كما صرحت به الآيات القرآنية عن كثرة.

---

(١) الصافات الآية (٢٢).
(٢) التكوير الآية (٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٢٤).
(٤) النصر الآية (٢).
(٥) الكشاف (٣/ ١٦٠-١٦١).

والجواب عن هذا: هو ما بينه الألوسي في تفسيره من أن قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ يراد به الحشر العام وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي بعد الحشر العام يجمع اللَّه المكذبين للرسل من كل أمة، لأجل التوبيخ المنصوص عليه بقوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالمراد بالفوج من كل أمة الفوج المكذب للرسل يحشر للتوبيخ حشرًا خاصًا. فلا ينافي حشر الكل لفصل القضاء. وهذا الوجه أحسن من تخصيص الفوج بالرؤساء كما ذهب إليه بعضهم»[1].

قال الألوسي: «وهذه الآية من أشهر ما استدل بها الإمامية على الرجعة.

قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان: واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية بأن قال: إن دخول (من) في الكلام يوجب التبعيض فدل بذلك على أنه يحشر قوم دون قوم، وليس ذلك صفة يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[2]، وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ في أن اللَّه تعالى سيعيد عند قيام المهدي قوما ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ويبتهجوا بظهور دولته، ويعيد أيضًا قوما من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقونه من العقاب بالقتل على أيدي شيعته أو الذل والخزي بما يشاهدون من علو كلمته. ولا يشك عاقل أن هذا مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه وقد فعل اللَّه تعالى ذلك من الأمم الخالية ونطق القرآن بذلك في عدة مواضع مثل قصة عزير وغيره ﵈، وصح عن النبي ﷺ قوله: «**سيكون من أمتي كل ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه**»[3]، وتأول جماعة من الإمامية ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات، وأولوا الأخبار الواردة في ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافي التكليف وليس كذلك لأنه ليس فيها ما يلجئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح، والتكليف يصح معها كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا ثعبانا وما أشبه ذلك، ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة

---

(١) دفع إيهام الاضطراب (ص١٩٦ - ١٩٧). (٢) الكهف الآية (٤٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٤)، والبخاري (١٣/ ٣٧١/ ٧٣٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد ﵁.

فيتطرق التأويل إليها، وإنما المعول عليه في ذلك إجماع الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده انتهى.

وأقول: أول من قال بالرجعة عبدالله بن سبأ ولكن خصها بالنبي ﷺ، وتبعه جابر الجعفي في أول المائة الثانية فقال برجعة الأمير كرم الله تعالى وجهه[1] أيضًا لكن لم يوقتها بوقت، ولما أتى القرن الثالث قرر أهله من الإمامية رجعة الأئمة كلهم وأعدائهم وعينوا لذلك وقت ظهور المهدي، واستدلوا على ذلك بما رووه عن أئمة أهل البيت، والزيدية كافة منكرون لهذه الدعوى إنكارا شديدا، وقد ردوها في كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضًا تعارض روايات الإمامية، والآيات المذكورة هنا لا تدل على الرجعة حسبما يزعمون ولا أظن أن أحدا منهم يزعم دلالتها على ذلك، بل قصارى ما يقول: إنها تدل على رجعة المكذبين أو رؤسائهم فتكون دالة على أصل الرجعة وصحتها لا على الرجعة بالكيفية التي يذكرونها، وفي كلام الطبرسي ما يشير إلى هذا.

وأنت تعلم أنه لا يكاد يصح إرادة الرجعة إلى الدنيا من الآية لإفادتها أن الحشر المذكور لتوبيخ المكذبين وتقريعهم من جهته ﷻ؛ بل ظاهر ما بعد يقتضي أنه تعالى بذاته يوبخهم ويقرعهم على تكذيبهم بآياته سبحانه، والمعروف من الآيات لمثل ذلك هو يوم القيامة مع أنها تفيد أيضًا وقوع العذاب عليهم واشتغالهم به عن الجواب ولم تفد موتهم ورجوعهم إلى ما هو أشد منه وأبقى وهو عذاب الآخرة الذي يقتضيه عظم جنايتهم، فالظاهر استمرار حياتهم وعذابهم بعد هذا الحشر، ولا يتسنى ذلك إلا إذا كان حشر يوم القيامة، وربما يقال أيضًا: مما يأبى حمل الحشر المذكور على الرجعة أن فيه راحة لهم في الجملة حيث يفوت به ما كانوا فيه من عذاب البرزخ الذي هو للمكذبين كيفما كان أشد من عذاب الدنيا، وفي ذلك إهمال لما يقتضيه عظم الجناية، وأيضًا كيف تصح إرادة الرجعة منها، وفي الآيات ما يأبي ذلك، منه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] فإن آخر الآية ظاهر في عدم

(١) تقدم رد ابن كثير على هذه العبارة قبلُ في هذه السورة (ص١١٢) والله الموفق.
(٢) المؤمنون الآيتان (٩٩و١٠٠).

الرجعة مطلقًا وكون الإحياء بعد الإماتة والإرجاع إلى الدنيا من الأمور المقدورة له ﷻ مما لا ينتطح فيه كبشان إلا أن الكلام في وقوعه وأهل السنة ومن وافقهم لا يقولون به ويمنعون إرادته من الآية ويستندون في ذلك إلى آيات كثيرة. . على أن الطبرسي أشار إلى أنها ليست أدلة وأن التعويل ليس عليها، وإنما الدليل إجماع الإمامية والتعويل ليس إلا عليه، وأنت تعلم أن مدار حجية الإجماع على المختار عندهم حصول الجزم بموافقة المعصوم ولم يحصل للسني هذا الجزم من إجماعهم هذا، فلا ينتهض ذلك حجة عليه مع أن له إجماعا يخالفه وهو إجماع قومه على عدم الرجعة الكاشف عما عليه سيد المعصومين ﷺ، وكل ما تقوله الإمامية في هذا الإجماع يقول السني مثله في إجماعهم، وما ذكر من قوله ﷺ: «**سيكون في أمتي**» الحديث لا تعلم صحته بهذا اللفظ بل الظاهر عدم صحته فإنه كان في بني إسرائيل ما لم يذكر أحد أنه يكون في هذه الأمة كنتق الجبل عليهم حين امتنعوا عن أخذ ما آتاهم اللَّه تعالى من الكتاب، والبقاء في التيه أربعين سنة قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1] ونزول المن والسلوى عليهم فيه إلى غير ذلك.

وبالجملة القول بالرجعة حسبما تزعم الإمامية مما لا ينتهض عليه دليل، وكم من آية في القرآن الكريم تأباه غير قابلة للتأويل، وكأن ظلمة بغضهم للصحابة رضي اللَّه تعالى عنهم حالت بينهم وبين أن يحيطوا علما بتلك الآيات فوقعوا فيما وقعوا فيه من الضلالات»[2].

* * *

(١) المائدة: الآية (٢٤).

(٢) روح المعاني (٢٠/ ٢٦-٢٨).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: حتى إذا جاء من كل أمة فوج ممن يكذب بآياتنا فاجتمعوا قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: بحججي وأدلتي ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ يقول: ولم تعرفوها حق معرفتها، ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيها من تكذيب أو تصديق»[1].

قال أبو السعود: «وهذا نص في أن المراد بالآيات فيما سلف في الموضعين هي الآيات القرآنية لأنها هي المنطوية على دلائل الصحة وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها. وقيل: هو معطوف على كذبتم أي جمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها»[2].

قال الشوكاني: «وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ؛ لأن من كذب بشيء ولم يحط به علما فقد كذب في تكذيبه، ونادى على نفسه بالجهل وعدم الإنصاف، وسوء الفهم، وقصور الإدراك، ومن هذا القبيل من تصدى لذم علم من العلوم الشرعية، أو لذم علم هو مقدمة من مقدماتها، ووسيلة يتوسل بها إليها، ويفيد زيادة بصيرة في معرفتها، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها، وهي اثنا عشر علما، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية، وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب اللّه، وسنة رسوله، فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل طاعن على العلوم الشرعية، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه، ولا يعلم به،

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٢).

ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول، وركاك الأديان، ورعاع المتلبسين بالعلم زورًا وكذبًا»[1].

* * *

(١) فتح القدير (٤/ ٢١٦-٢١٧).

قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ووجب السخط والغضب من اللَّه على المكذبين بآياته ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ يعني بتكذيبهم بآيات اللَّه، يوم يحشرون ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ يقول: فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم ووقع عليهم من القول»(١).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن القول الذي وقع عليهم هو كلمة العذاب، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾(٢) ونحو ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾، وظاهره أن الكفار لا ينطقون يوم القيامة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾(٤) الآية، مع أنه بينت آيات أخر من كتاب اللَّه أنهم ينطقون يوم القيامة ويعتذرون، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٥) وقوله تعالى عنهم: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾(٦) وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾(٧) الآية. وقوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾(٨) وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ

---

(١) جامع البيان (٢٠/١٨).
(٢) السجدة الآية (١٣).
(٣) المرسلات الآيتان (٣٥و٣٦).
(٤) الإسراء الآية (٩٧).
(٥) الأنعام الآية (٢٣).
(٦) النحل الآية (٢٨).
(٧) السجدة الآية (١٢).
(٨) المؤمنون الآيتان (١٠٦و١٠٧).

يَمَلِكُ﴾[١] الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كلامهم يوم القيامة»[٢].

وقال أيضًا: «والجواب عن هذا من أوجه:

الأول: أن القيامة مواطن، ففي بعضها ينطقون، وفي بعضها لا ينطقون.

الثاني: أنهم لا ينطقون بما لهم فيه فائدة، وما لا فائدة فيه كالعدم.

الثالث: أنهم بعد أن يقول اللَّه لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾[٣] ينقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾ وهذا الوجه الثالث راجع للأول»[٤].

قال ابن عاشور: «والتعبير بفعل المضي على هذا الوجه لأنه محقق الحصول في المستقبل فجعل كأنه حصل ومضى.

و ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ بمعنى المصدر، والباء للسببية، أي بسبب ظلمهم، والظلم هنا الشرك وما يتبعه من الاعتداء على حقوق اللَّه وحقوق المؤمنين فكان ظلمهم سبب حلول الوعيد بهم، وفي الحديث «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[٥] فكل من ظلم سيقع عليه القول الموعود به الظالمون لأن الظلم ينتسب إلى الشرك وينتسب هذا إليه»[٦].

* * *

(١) الزخرف الآية (٧٧). (٢) أضواء البيان (٦/ ٤٤١). (٣) المؤمنون: الآية (١٠٨).

(٤) دفع إيهام الاضطراب (ص٢٥٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣٧) والبخاري (٥/ ١٢٧/ ٢٤٤٧) ومسلم (٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٧٩).

(٦) التحرير والتنوير (٢٠/ ٤٢).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما بتصييرنا هذا سكنا لهم يسكنون فيه ويهدءون، راحة أبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارا، وهذا مضيئا يبصرون فيه الأشياء ويعاينونها فيتقلبون فيه لمعايشهم، فيتفكروا في ذلك، ويتدبروا، ويعلموا أن مصرف ذلك كذلك هو الإله الذي لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء، وإحياء الأموات بعد الممات، كما لم يتعذر عليه الذهاب بالنهار والمجيء بالليل، والمجيء بالنهار والذهاب بالليل مع اختلاف أحوالهما ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في تصييرنا الليل سكنا، والنهار مبصرا لدلالة لقوم يؤمنون بالله على قدرته على ما آمنوا به من البعث بعد الموت، وحجة لهم على توحيد الله»[١].

قال أبو السعود: «وإن من تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها إلا الله ﷻ وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، قضاء متقنا، وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه، وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانا عليه، وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٣).

قال الرازي: «في الآية سؤالان:

السؤال الأول: ما السبب في أن جعل الإبصار للنهار وهو لأهله؟ جوابه: تنبيها على كمال هذه الصفة فيه.

السؤال الثاني: لما قال: ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه؟ جوابه: لأن السكون في الليل هو المقصود من الليل، وأما الإبصار في النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية.

وأما قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص المؤمنين بالذكر، وإن كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع»[1].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

داخرين: صاغرين ذليلين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: « ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفا مما هو مقدمة له. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ ممن أكرمه اللّه وثبته وحفظه من الفزع. ﴿وَكُلٌّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[١] ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرءوسون في الذل والخضوع لمالك الملك»[٢].

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم قيل: ﴿فَفَزِعَ﴾ دون فيفزع؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السماوات والأرض؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به»[٣].

قال أبو السعود: «ولعل تأخير بيان الأحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان ما يقع بعدها من حشر المكذبين من كل أمة لتثنية التهويل بتكرير التذكير إيذانا بأن كل واحد منهما طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها، ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل داهية واحدة قد أمر بذكرها»[٤].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ اختلف في هذا المستثنى من

---

(١) مريم: الآية (٩٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٦٠٤).

(٣) الكشاف (٣/ ١٦١).

(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٣-٣٠٤).

هم. ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون، إنما يصل الفزع إلى الأحياء؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش، وقال القشيري: الأنبياء داخلون في جملتهم؛ لأن لهم الشهادة مع النبوة وقيل: الملائكة. قال الحسن: استثني طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقيل: الحور العين. وقيل: هم المؤمنون، لأن اللَّه تعالى قال عقب هذا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾[1] وقال بعض علمائنا: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النفخ في الصور

* عن عبد اللَّه بن عمرو، وجاءه رجل، فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث به؟ تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا. فقال: سبحان الله! أو لا إله إلا اللَّه، أو كلمة نحوهما- لقد هممت أن لا أحدث أحدًا شيئًا أبدًا. إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا. يُحرَّق البيت، ويكون، ويكون. ثم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين (لا أدري: أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا). فيبعث اللَّه عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل اللَّه ريحًا باردة من قبل الشأم، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كَبَد جبل لدخلته عليه، حتى تقبضه**». قال: سمعتها من رسول اللَّه ﷺ. قال: «**فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا. فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان. وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسن عيشهم. ثم يُنفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتًا ورفع لِيتًا. قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله. قال: فيصعق، ويصعق الناس. ثم يرسل اللَّه -أو قال: يُنزل الله- مطرًا كأنه الطَّلّ أو الظِّلّ (نعمان الشاكّ) فتنبت**

(١) النمل الآية (٨٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٤١).

منه أجساد الناس. ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: يا أيها الناس! هلمّ إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤولون. قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: مِن كم؟ فيقال: من كل ألف، تسعمائة وتسعة وتسعين. قال: فذاك يوم يجعل الولدان شيبًا، وذلك يوم يكشف عن ساق»(١).

⋆ غريب الحديث:

في كَبَد جبل: أي: في جوفه من كهف أو شعب.

في خفة الطير وأحلام السباع: قال النووي: «قال العلماء: معناه: يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير، وفي العدوان وظلم بعضهم بعضًا في أخلاق السباع العادية».

دارّ رزقهم: أي: كثير.

أصغى لِيتًا ورفع لِيتًا: الليت، بكسر اللام وآخره مثناة فوق، وهي صفحة العنق، وهي جانبه. وأصغى: أمال.

يلوط حوضه: أي: يُطينه ويصلحه.

كأنه الطَّلُّ أو الظِّلُّ: قال القرطبي: «هذا شك، والأصح أنه الطَّلّ، بالطاء المهملة، لقوله في حديث أبي هريرة ﷺ: «**ثم ينزل من السماء ماء**»، وفي حديث آخر: «**كمنيّ الرجال**»».

قال القاضي: «الأشبه أن يكون الأصح من هذين اللفظين اللذين شك فيهما الراوي: الطل، بالطاء المهملة».

والطل: الذي ينزل من السماء في الصحو، والطل أيضًا: أضعف القطر.

هلمّوا: أي: تعالوا وأقبلوا.

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**لقد هممت أن لا أحدث أحدًا شيئًا أبدًا**»: إنما قال ذلك لأنهم نسبوا إليه ما لم يقل، فشق ذلك عليه، ثم إنه لما علم أنه لا يجوز له ذلك، ذكر

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٦) ومسلم (٤/ ٢٢٥٨/ ٢٩٤٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠١/ ١١٦٢٩).

ما عنده من علم ذلك.

وقوله: «يُحرِّق البيت» قد كان ذلك في عهد ابن الزبير، وذلك أن يزيد بن معاوية وجّه من الشام مسلم بن عقبة المدني في جيش عظيم لقتال ابن الزبير، فنزل بالمدينة، وقاتل أهلها، وهزمهم، وأباحها ثلاثة أيام، وهي وقعة الحرة، وقد قدمنا ذكرها ثم سار يريد مكة، فمات بقُدَيد، وولي الجيش الحصين بن نمير، وسار إلى مكة فحاصر ابن الزبير، وأحرقت الكعبة حتى انهدم جدارها، وسقط سقفها، وجاء الخبر بموت يزيد فرجعوا.. قوله: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار»: قد تقدم في الإيمان: أن الذي يقال له ذلك: آدم ﷺ، والجمع بينهما بأن المأمور أولًا: آدم، وهو يأمر الملائكة بالإخراج، ومعنى الإخراج هنا بتمييز بعضهم من بعض، وإلحاق كل طائفة بما أعدّ لها من الجنة أو النار»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا»: الليت هو صفحة العنق؛ أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا، فهذه (نفخة الفزع) ثم بعد ذلك (نفخة الصعق) وهو الموت، ثم بعد ذلك (نفخة القيام لرب العالمين) وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾.؛ أي: صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[3]»[4].

قال القرطبي: «تقدم أن الصحيح في النفخ إنما هو مرتان لا ثلاث، وحديث مسلم في قول الله تعالى لآدم: «ابعث بعث النار» إنما هو بعد البعث يوم القيامة ونفخة الفزع هي نفخة الصعق على ما تقدم أو نفخة البعث على ما قيل على ما يأتي لأنه لو كانت نفخة الفزع غير نفخة الصعق لاقتضى ذلك أن يكون بقاء الناس بعدها أحياء ما شاء الله ويكون هناك ليل ونهار حتى تأتي نفخة الصعق التي يموت لسماعها جميع الخلق كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وعلى هذا

---

(١) المفهم (٧/ ٣٠١-٣٠٣).
(٢) الإسراء الآية (٥٢).
(٣) الروم الآية (٢٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٢٥-٢٢٦).

لا يكون قوله: «ابعث» في أثناء اليوم الذي يكون مبدؤه نفخة الفزع على ما ذكره ابن العربي -واللَّه أعلم- ولا يلزم من زلزال الأرض أن تكون عن نفخة فإنا نشاهد تحرك الأرض وميدها بمن عليها وما عليها من جبال ومياه كالسفينة في البحر إذا تلاطمت أمواجه من غير نفخ وإنما تلك الزلزلة من أشراط الساعة ومقدمتها كسائر أشراطها، وقد قال علقمة والشعبي: الزلزلة من أشراط الساعة وهي في الدنيا، وكذلك قال أنس بن مالك والحسن البصري وقد ذكر القشيري أبو نصر عبدالرحيم ابن عبدالكريم في تفسيره أن المراد بنفخة الفزع: النفخة الثانية أي: يحيون فزعين يقولون: من بعثنا من مرقدنا؟ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم -واللَّه أعلم- ونحو ذلك ذكره الماوردي واختاره»[1].

* * *

(١) التذكرة (ص١٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

أتقن: أحكم. والإتقان: إحكام الشيء والإتيان به على أحسن صورة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب؛ أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾[1]، وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[3].

وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه»[4].

قال الرازي: «والوجه في حسبانهم أنها جامدة فلأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفية ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرًّا حثيثًا»[5].

قال الشنقيطي: «قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، وذكرنا في ترجمته أيضًا أن من أنواع البيان التي تضمنها

(١) الطور الآيتان (٩و١٠).
(٢) طه الآيات (١٠٥-١٠٧).
(٣) الكهف الآية (٤٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٥) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٢١).

الاستدلال على المعنى، بكونه هو الغالب في القرآن، لأن غلبته فيه، تدل على عدم خروجه من معنى الآية، ومثلنا لجميع ذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معا آية النمل هذه.

وإيضاح ذلك: أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يدل على أن الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة: أي واقفة ساكنة غير متحركة، وهي تمر مر السحاب، ونحوه قول النابغة يصف جيشا:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم ... وقوف لحاج والركاب تهملج

والنوعان المذكوران من أنواع البيان يبينان عدم صحة هذا القول.

أما الأول منهما: وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته، فهو أن قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾، وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1] الآية. أي ويوم ينفخ في الصور، فيفزع من في السماوات، وترى الجبال، فدلت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب كائن يوم ينفخ في الصور لا الآن.

وأما الثاني: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح، لأن جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝﴾[5] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جاء نحوه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[7] وتسيير الجبال وإيجادها ونصبها قبل تسييرها كل ذلك صنع متقن»[8].

---

(١) النمل: الآية (٨٧).
(٢) الطور: الآيتان (٩و١٠).
(٣) الكهف: الآية (٤٧).
(٤) النبأ: الآية (٢٠).
(٥) التكوير: الآية (٣).
(٦) المؤمنون: الآية (١٤).
(٧) الملك: الآية (٣).
(٨) أضواء البيان (٦/ ٤٤٢-٤٤٣).

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾

★ غريب الآية:

كُبَّتْ: ألقيت وطرحت. والكب: أصله قلب الشيء على وجهه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿مَن جَآءَ﴾ اللَّه بتوحيده والإيمان به، وقول لا إله إلا اللَّه موقنا به قلبه ﴿فَلَهُۥ﴾ من هذه الحسنة عند اللَّه ﴿خَيۡرٞ﴾ يوم القيامة، وذلك الخير أن يثيبه اللَّه ﴿مِّنۡهَا﴾ الجنة، ويؤمنه ﴿مِّن فَزَعٖ﴾ الصيحة الكبرى وهي النفخ في الصور. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يقول: ومن جاء بالشرك به يوم يلقاه، وجحود وحدانيته ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ في نار جهنم. . وقوله: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره. يقال لهم: هل تجزون أيها المشركون إلا ما كنتم تعملون، إذ كبكم اللَّه لوجوهكم في النار، وإلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا بما يسخط ربكم؛ وترك «يقال لهم» اكتفاء بدلالة الكلام عليه»[1].

قال ابن عطية: «وإذا كبت الوجوه فسائر البدن أدخل في النار إذ الوجه موضع الشرف والحواس»[2].

قال الزمخشري: «فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحدا ولأمر ما أعجز القوي وأخرس الشقاشق»[3].

قال الشنقيطي: «اعلم أن الحسنة في هذه الآية الكريمة تشمل نوعين من الحسنات.

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٢).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٧٤).

(٣) الكشاف (٣/ ١٦٢).

الأول حسنة: هي فعل خير من أفعال العبد، كالإنفاق في سبيل اللَّه، وبذل النفس والمال في إعلاء كلمة اللَّه، ونحوه ذلك ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ بالنسبة إلى هذا النوع من الحسنات، أن الثواب مضاعف، فهو خير من نفس العمل، لأن من أنفق درهما واحدا في سبيل اللَّه فأعطاه اللَّه ثواب سبعمائة درهم فله عند اللَّه ثواب هو سبعمائة درهم مثلا، خير من الحسنة التي قدمها التي هي إنفاق درهم واحد، وهذا لا إشكال فيه كما ترى.

وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[1] ومعلوم أن عشر أمثال الحسنة خير منها، هي وحدها وكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[3] الآية.

وأما النوع الثاني من الحسنة: فكقول من قال من أهل العلم: إن المراد بالحسنة في هذه الآية: لا إله إلا اللَّه، ولا يوجد شيء خير من لا إله إلا اللَّه. بل هي أساس الخير كله، والذي يظهر على هذا المعنى أن لفظة خير ليست صيغة تفضيل.

وأن المعنى فله خير عظيم عند اللَّه حاصل له منها: أي من قبلها ومن أجلها وعليه فلفظة من في الآية كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾[4] أي من أجل خطيآتهم أغرقوا، فأدخلوا نارا. وأما على الأول فخير صيغة تفضيل، ويحتمل عندي. أن لفظة خير على الوجه الثاني صيغة تفضيل أيضًا، ولا يراد بها تفضيل شيء على لا إله إلا اللَّه، بل المراد أن كلمة لا إله إلا اللَّه تعبد بها العبد في دار الدنيا، وتعبده بها فعله المحض، وقد أثابه اللَّه في الآخرة على تعبده بها، وإثابة فعله -جل وعلا-، ولا شك أن فعل اللَّه خير من فعل عبده، والعلم عند اللَّه تعالى.. وهذه الآية الكريمة تضمنت أمرين:

الأول: أن من جاء ربه يوم القيامة بالسيئة كالشرك يكب وجهه في النار.

والثاني: أن السيئة إنما تجزى بمثلها من غير زيادة، وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأول منهما: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ

(١) الأنعام الآية (١٦٠). (٢) النساء الآية (٤٠).
(٣) البقرة الآية (٢٦١). (٤) نوح الآية (٢٥).

مُجۡرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾[١] وكقوله تعالى في الثاني منهما: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[٢] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[٤].

وإذا علمت أن السيئات لا تضاعف، فاعلم أن السيئة قد تعظم فيعظم جزاؤها بسبب حرمة المكان كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٍ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥] أو حرمة الزمان كقوله تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾[٦].

وقد دلت آيات من كتاب اللَّه أن العذاب يعظم بسبب عظم الإنسان المخالف، كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٨] الآية وكقوله تعالى في أزواجه ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾[٩] الآية، قد قدمنا طرفا من الكلام على هذا في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ مع تفسير الآية، ومضاعفة السيئة المشار إليها في هاتين الآيتين، إن كانت بسبب عظم الذنب، حتى صار في عظمه كذنبين فلا إشكال، وإن كانت مضاعفة جزاء السيئة كانت هاتان الآيتان مخصصتين للآيات المصرحة بأن السيئة لا تجزى إلا بمثلها، والجميع محتمل، والعلم عند اللَّه تعالى»[١٠].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الحسنة بلا إله إلا الله والسيئة بالشرك

* عن عبداللَّه بن مسعود: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ قال: «بـ(**لا إله إلا الله**»)، ﴿وَمَن

(١) طه الآية (٧٤).
(٢) الأنعام الآية (١٦٠).
(٣) القصص الآية (٨٤).
(٤) النبأ الآية (٢٦).
(٥) الحج الآية (٢٥).
(٦) التوبة الآية (٣٦).
(٧) الإسراء الآيتان (٧٤و٧٥).
(٨) الحاقة الآيات (٤٤-٤٦).
(٩) الأحزاب الآية (٣٠).
(١٠) الأضواء (٦/ ٤٤٣-٤٤٦).

جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قال: «بالشرك»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المشهور عن السلف أن الحسنة: لا إله إلا اللّه، وأن السيئة: الشرك، وعن السدي قال: ذلك عند الحساب ألغي بدل كل حسنة عشر سيئات، فإن بقيت سيئة واحدة فجزاؤه النار إلا أن يغفر اللّه له.

قلت: تضعيف الحسنة إلى عشر وإلى سبعمائة ثابت في الصحاح، وأن السيئة مثلها، وأن الهم بالحسنة حسنة، والهم بالسيئة لا يكتب.

فأهل القول الأول قالوه؛ لأن أعمال البر داخلة في التوحيد، فإن عبادة اللّه بما أمر به كما قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٢] الآية، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾[٣] الآية.

فالكلمة الطيبة: التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، وكذلك السيئة هي العمل لغير اللّه، وهذا هو الشرك، فإن الإنسان حارث همام لابد له من عمل ولابد له من مقصود يعمل لأجله. وإن عمل للّه ولغيره فهو شرك»[٤].

وقد حكى **القرطبي** إجماع المفسرين على ذلك فقال: «وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنة: لا إله إلا اللّه، وأن السيئة: الشرك»[٥].

قال القرطبي: «فإذا أتى بـ(لا إله إلا الله) على حقيقتها وما يجب لها.. فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض»[٦].

* * *

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٢٧٦/ ١٤٢٧٢-١٤٢٧٤ تحقيق شاكر) والطبراني في الدعاء (٣/ ١٤٩٧/ ١٥٠٣) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٤٣) والحاكم (٢/ ٤٠٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٢٧٠/ ٢٠٣).

(٢) البقرة الآية (١١٢).

(٣) إبراهيم الآية (٢٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٤٠-٤٤١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٤٥).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد قل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ وهي مكة ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ على خلقه أن يسفكوا فيها دما حراما، أو يظلموا فيها أحدا، أو يصاد صيدها، أو يختلى خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون.. وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ يقول: ولرب هذه البلدة الأشياء كلها ملكا. فإياه أمرت أن أعبد، لا من لا يملك شيئًا. وإنما قال جل ثناؤه: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فخصها بالذكر دون سائر البلدان، وهو رب البلاد كلها، لأنه أراد تعريف المشركين من قوم رسول الله ﷺ الذين هم أهل مكة بذلك نعمته عليهم، وإحسانه إليهم، وأن الذي ينبغي لهم أن يعبدوه هو الذي حرم بلدهم، فمنع الناس منهم، وهم في سائر البلاد يأكل بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا، لا من لم تجر له عليهم نعمة، ولا يقدر لهم على نفع ولا ضر. وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: وأمرني ربي أن أسلم وجهي له حنيفا، فأكون من المسلمين الذين دانوا بدين خليله إبراهيم وجدكم أيها المشركون، لا من خالف دين جده المحق، ودان دين إبليس عدو الله»[1].

قال ابن كثير: «وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾[2]». اهـ[3]

قال الزمخشري: «وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، دالا على أنها موطن

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٤-٢٥).

(٢) قريش الآيتان (٣و٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٢٧).

نبيه ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١] . . واللاجىء إليها آمن. وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء: اللهم بارك لنا في سكناها، وآمنا فيها شر كل ذي شر، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك»[٢].

قال ابن المنير: «وتحت قوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فائدة أخرى سوى ذلك، وهي أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفا لها أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعا لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها وتنبيها على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف لا لأنها ملك الله تعالى خاصة والله أعلم»[٣].

قال ابن عاشور: «وفي قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تنويه بهذه الأمة إذ جعل الله رسوله من آحادها، وذلك نكتة عن العدول عن أن يقول: أن أكون مسلما»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حرمة الحرم

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها**»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «قوله: «**لا يعضد شجرها**» معناه: لا يقطع. والعضد: القطع. قلت: وسواء في ذلك ما غرسه الآدميون وما نبت من غير غرس وتنبيت، لأن العموم يسترسل على ذلك كله وهو ظاهر مذهب الشافعي، وسمعت أصحاب أبي

---

(١) الحج الآية (٢٥).
(٢) الكشاف (٣/ ١٦٣).
(٣) الانتصاف (٣/ ١٦٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٥٧).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٩، ٣١٥-٣١٦) والبخاري (٣/ ٥٧٣/ ١٥٨٧) ومسلم (٢/ ٩٨٦-٩٨٧/ ١٣٥٣) وأبو داود (٢/ ٥٢١/ ٢٠١٨) مختصرًا، والترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٩٠) والنسائي (٥/ ٢٢٣-٢٢٥/ ٢٨٧٤) وفي الكبرى (٢/ ٣٨٤/ ٣٨٥٧).

حنيفة يفرقون بين ما ينبت من الشجر في الحرم وبين ما ينبته الآدميون ويجعلون النهي مصروفًا إلى ما أنبته اللَّه تعالى دون غيره.

ويحكى عن مالك أنه قال: لا شيء على من قطع شيئًا من شجر الحرم. وهو قول داود وأهل الظاهر، وأما الشافعي فإنه يرى فيه الفدية.

وقوله: «**لا ينفر صيدها**» معناه: لا يتعرض له بالاصطياد ولا يهاج فينفر.

وحكي عن سفيان بن عيينة أنه قال: معناه: أن يكون الصيد رابضًا في ظل الشجرة فلا ينفره الرجل ليقعد فيستظل مكانه. وقوله: «**لا تحل لقطتها إلا لمنشد**» فإن المنشد هو المعرّف، تقول: نشدت الضالة: إذا طلبتها، وأنشدتها: إذا عرّفتها.

وقد اختلف الناس في حكم ضالة الحرم فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه لا فرق بينها وبين ضالة الحل. وكان عبدالرحمن بن مهدي يذهب إلى التفرقة بينها وبين ضالة سائر البقاع ويقول: ليس لواجدها منها غير التعريف أبدًا ولا يملكها بحال ولا يستنفقها ولا يتصدق بها حتى يظفر بصاحبها، وكان يحتج بقوله: «**لا تحل لقطتها إلا لمنشد**»، ويحكى عن الشافعي نحو من هذا القول»[1].

قال ابن عطية: «وأضاف في هذه الآية التحريم إلى اللَّه تعالى من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه وأضافه النبي ﷺ إلى إبراهيم في قوله: «**إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة**»[2]، من حيث كان ظهور ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأمته فليس بين الآية والحديث تعارض»[3].

هذا وقد تقدم الكلام على مسألة حرمة مكة في سورة المائدة بما أغنى عن الإعادة وباللَّه التوفيق.



---

(١) معالم السنن (٢/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ٩٩٢/ ١٣٦٢)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٧-٤٨٨/ ٤٢٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٢٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ يقول: فمن تبعني وآمن بي وبما جئت به، فسلك طريق الرشاد ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فإنما يسلك سبيل الصواب باتباعه إياي، وإيمانه بي، وبما جئت به لنفسه، لأنه بإيمانه بي، وبما جئت به يأمن نقمته في الدنيا وعذابه في الآخرة. وقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يقول: ومن جار عن قصد السبيل بتكذيبه بي وبما جئت به من عند اللَّه ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فقل يا محمد لمن ضل عن قصد السبيل، وكذبك، ولم يصدق بما جئت به من عندي: إنما أنا ممن ينذر قومه عذاب اللَّه وسخطه على معصيتهم إياه، وقد أنذرتكم ذلك معشر كفار قريش، فإن قبلتم وانتهيتم عما يكرهه اللَّه منكم من الشرك به، فحظوظ أنفسكم تصيبون، وإن رددتم وكذبتم فعلى أنفسكم جنيتم، وقد بلغتكم ما أمرت بإبلاغه إياكم، ونصحت لكم»(١).

قال أبو السعود: « ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئًا فشيئا، أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد، فيكون ذلك تنبيها على كفايته في الهداية، والإرشاد من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى. فمعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ حينئذ فمن اهتدى بالإيمان به والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام. وعلى الأول فمن اهتدى باتباعه إياي فيما ذكر من العبادة والإسلام وتلاوة القرآن فإنما منافع اهتدائه عائدة إليه لا إلي. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٥).

والإعراض عن العمل بما فيه أو بمخالفتي فيما ذكر ﴿فَقُلْ﴾ في حقه ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار فليس علي وبال ضلاله شيء وإنما هو عليه فقط»[١].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقُلْ يا محمد لهؤلاء القائلين لك من مشركي قومك ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمته علينا بتوفيقه إيانا للحق الذي أنتم عنه عمون ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون بها حقيقة نصحي كان لكم ويتبين صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد.. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وما ربك يا محمد بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون ولكن لهم أجل هم بالغوه فإذا بلغوه فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فلا يحزنك تكذيبهم إياك فإني من وراء إهلاكهم وإني لهم بالمرصاد فأيقن لنفسك بالنصر ولعدوك بالذل والخزي»[١].

قال أبو السعود: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ عنه إضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ وتخصيص الخطاب أولًا به ﷺ وتعميمه ثانيًا للكفرة تغليبا أي: وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات، وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات، فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة، وقرئ (عما يعملون) على الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم ألبتة، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٥-٢٦).
(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٣٠٧).



سورة القصص

أغراض السورة

قال المكي الناصري: «هذه السورة مكية كسابقتها، وقد جاءت فاتحتها على غرار فاتحة سورة الشعراء، مبدوءة مثلها بنفس الحروف الهجائية المقطعة، وهي في كل منهما الطاء والسين والميم ﴿طسٓمٓ﴾ فكانت ثالثة السور التي جاءت على هذا النمط في نسق واحد، تنبيها إلى أن آيات الكتاب العزيز تتألف من نفس الحروف التي يؤلف البشر منها كلامهم، لكن اللَّه الذي خلق الإنسان من طين ثم نفخ فيه روح الحياة ينفخ في تلك الحروف من جلاله وعلمه وحكمته ما يجعلها معجزة باقية أبد الدهر لا قبل بها للإنسان، على ممر الزمان، ثم جاءت أول آية من هذه السورة بنفس النمط الذي جاءت به سورة الشعراء ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، وأطلق على هذه السورة (سورة القصص) أخذًا من قوله تعالى في إحدى آياتها وهو يحكي ما دار بين موسى ﷺ وصالح مدين في أحد المواقف الحاسمة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

و(القَصص) هنا بفتح القاف لفظ بمعنى الخبر المحكي المقصوص، ويطلق لفظ القصص بمعنى رواية الخبر، أما (القِصص) بكسر القاف فهو جمع قصة، وتشغل قصة موسى مع قصة قارون من قومه أكبر جزء من هذه السورة، فلقصة موسى ثمان وأربعون آية، من الآية الثانية إلى الآية التاسعة والأربعين، ولقصة قارون من قومه سبع آيات، من الآية السادسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين، وبذلك يبلغ عدد آيات القصتين المرتبط بعضهما ببعض خمسًا وخمسين آية من مجموع آيات هذه السورة، وهي ثمانون آية.

ومن أهم ما يلاحظ في كتاب اللَّه بالنسبة للقصص التي تضمنها القرآن الكريم أن

---

(١) القصص: الآية (٢٥).

قصة موسى تردد ذكرها في سبع عشرة سورة، مختزلة أحيانا، ومختصرة أحيانا، ومتوسطة أحيانا، ومطولة أحيانا. وأطولها جميعًا هي التي سبقت في سورة الأعراف، حيث استغرقت من آياتها خمسا وخمسين ومائة آية. ويليها في الطول قصته في سورة طه حيث استغرقت من آياتها تسعين آية، ويلي قصة موسى في سورة طه قصته في سورة الشعراء، حيث استغرقت من آياتها ستين آية، وتأتي في الدرجة الأخيرة من الطول قصته هنا في سورة القصص، حيث استغرقت منها مع قصة قارون من قومه خمسا وخمسين آية.

ومن أمثلة قصة موسى عندما ترد بشكل مختزل في آية أو آيتين قوله تعالى فيما سبق من سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾[1] وقوله تعالى فيما سبق من سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦﴾[2]، وقوله تعالى فيما سيأتي من سورة الذاريات: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾[3].

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن إعادة كتاب اللّٰه لقصة من القصص في عدة سور لا يعني أن فيه شيئًا من التكرار، فبلاغة القرآن التي ميزه اللّٰه بها تعصمه من ذلك، وإنما تنصب الحكاية الجديدة للقصة على عناصر معينة منها، حيث يكون السياق يقتضي إبراز هذا العنصر بدلا من ذلك العنصر الذي سبق في مقام آخر، أو تفصيل هذا العنصر مع إجمال ذلك العنصر الذي سبق في مناسبة أخرى، وكتاب اللّٰه بوصفه كتاب هداية وتوجيه لا بد أن يلائم مقتضى الحال في كل الأحوال، يضاف إلى ذلك أن القصة عندما يتجدد ذكرها في سورة من السور لا محالة أنها تأتي بزوائد وفوائد، وفي ذلك زيادة في البيان، وإقامة للحجة والبرهان، على درجة الإعجاز التي ارتفعت إليها بلاغة القرآن.

---

(١) إبراهيم الآية (٦).

(٢) الفرقان الآيتان (٣٥و٣٦).

(٣) الذاريات الآيات (٣٨-٤٠).

وعلى ضوء هذا التنبيه نراجع الآيات التي تصدرت قصة موسى في هذه السورة، ونقارنها بما ورد في بعض السور الأخرى، ففي سورة القصص التي نحن بصدد تفسيرها نجد في الطليعة وصف المرحلة الأولى من حياة موسى عليه السلام منذ طفولته إلى أن بلغ أشده، من الآية السادسة إلى الآية الثانية عشرة، ونجد وصف الحادثة التي اشتبك فيها موسى مع عدو لقومه، نصرة لرجل من شيعته، فأدت إلى مقتل ذلك العدو، واضطرار موسى إلى التوجه نحو مدين، من الآية الثالثة عشرة إلى الآية العشرين، ونجد وصف خطوبته وزواجه بابنة صالح مدين وشيخها الكبير، وما سبق ذلك من مقدمات، وما انتهى إليه من نتائج، من الآية الواحدة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين، كل ذلك بغاية التوضيح والتفصيل، مما لم يتقدم نظيره في السور الأخرى، وإذا راجعنا قصة موسى الواردة في سورة الأعراف لا نجد فيها أي أثر لهذه الأحداث وهذه المراحل، وإنما نجد في سورة طه إشارة خفيفة إليها في سبع آيات لا غير، ونجد في سورة الشعراء إشارة خاطفة إليها في خمس آيات لا غير، ففي سورة طه سبق قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾[1]، وفي سورة الشعراء سبق قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾[2]»[3].

* * *

(١) طه الآيات (٣٦-٤١).

(٢) الشعراء الآيات (١٨-٢٢).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٧٨-٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾

⭑ **غريب الآية:**

نبأ: النبأ: الخبر ذو الفائدة العظيمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ فإنه يعني هذه آيات الكتاب الذي أنزلته إليك يا محمد، المبين أنه من عند اللَّه، وأنك لم تتقوله ولم تتخرصه.. وقوله: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ يقول: نقرأ عليك ونقص في هذا القرآن من خبر موسى ﴿وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾.. وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول لقوم يصدقون بهذا الكتاب ليعلموا أن ما نتلو عليك من نبئهم فيه نبؤهم وتطمئن نفوسهم، فإن سنتنا فيمن خالفك وعاداك من المشركين سنتنا فيمن عادى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل من فرعون وقومه أن نهلكهم كما أهلكناهم وننجيهم منهم كما أنجيناهم»[1].

قال السعدي: «﴿تِلْكَ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلاها للعباد، ووضحها.

ومن جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإن نبأهما غريب، وخبرهما عجيب.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإليهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان، ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر،

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٦).

ويزدادون به إيمانا ويقينا، وخيرا إلى خيرهم، وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه اللَّه عنهم، وجعل بينهم وبينه حجابا أن يفقهوه»[١].

قال ابن عاشور: «الغاية من تلاوة النبأ على النبي ﷺ هي أن ينتفع بذلك قوم يؤمنون، فالنبي يبلغ ذلك للمؤمنين فإن كان فريق من المؤمنين سألوا أو تشوفوا إلى تفصيل ما جاء من قصة موسى وفرعون في سورة الشعراء وسورة النمل وهو الظاهر، فتخصيصهم بالتعليل واضح وانتفاع النبي ﷺ بذلك معهم أجدر وأقوى، فلذلك لم يتعرض له بالذكر اجتزاء بدلالة الفحوى لأن المقام لإفادة من سأل، وغيرهم غير ملتفت إليه في هذا المقام. وإن لم يكن نزول هذه القصة عن تشوف من المسلمين فتخصيص المؤمنين بالتلاوة لأجلهم تنويه بأنهم الذين ينتفعون بالعبر والمواعظ لأنهم بإيمانهم أصبحوا متطلبين للعلم والحكمة متشوفين لأمثال هذه القصص النافعة ليزدادوا بذلك يقينا.

وحصول ازدياد العلم للنبي ﷺ بذلك معلوم من كونه هو المتلقي والمبلغ ليتذكر من ذلك ما علمه من قبل، ويزداد علمًا بما عسى أن لا يكون قد علمه وفي ذلك تثبيت فؤاده، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[٢] فالمراد بقوم يؤمنون قوم الإيمان شأنهم وسجيتهم. وللإشارة إلى معنى تمكن الإيمان من نفوسهم أجري وصف الإيمان على كلمة (قوم) ليفيد أن كونهم مؤمنين هو من مقومات قوميتهم كما قدمناه غير مرة. فالمراد: المتلبسون بالإيمان. وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أن إيمانهم موجود في الحال ومستمر متجدد. وفي هذا إعراض عن العبء بالمشركين في سوق هذه القصة بما يقصد فيها من العبرة والموعظة فإنهم لم ينتفعوا بذلك وإنما انتفع بها من آمن ومن سيؤمن بعد سماعها»[٣].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣-٤).

(٢) هود الآية (١٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ٦٤-٦٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شيعًا: فرقًا وأحزابًا، واحدها شيعة، وهي الطائفة يتعصب بعضها لبعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تكبر وتجبر وطغى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العتيد يستعملهم في أخس الأعمال ويكدهم ليلا ونهارا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه، أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ﷺ حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها اللّه منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم ﷺ ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل اللّه إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب»[١].

قال ابن عاشور: «وابتدأت القصة بذكر أسبابها لتكون عبرة للمؤمنين، يتخذون

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٠-٢٣١).

منها سننا يعلمون بها علل الأشياء ومعلولاتها، ويسيرون في شؤونهم على طرائقها، فلولا تجبر فرعون وهو من قبيح الخلال ما حل به وبقومه الاستئصال، ولما خرج بنو إسرائيل من ذل العبودية. وهذا مصداق المثل: مصائب قوم عند قوم فوائد، وقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1]. وصورت عظمة فرعون في الدنيا بقوله: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر. ومعنى العلو هنا: الكبر وهو المذموم من العلو المعنوي كالذي في قوله تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]. ومعناه أن يستشعر نفسه عليا على موضع غيره، ليس يساويه أحد، فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره غير محقوق لحق من دين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح وتجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلها وأنه ابن الشمس. فليس من العلو المذموم رجحان أحد في أمر من الأمور لأنه جدير بالرجحان فيه جريا على سبب رجحان عقلي، كرجحان العالم على الجاهل، والصالح على الطالح، والذكي على الغبي، أو سبب رجحان عادي ويشمل القانوني وهو كل رجحان لا يستقيم نظام الجماعات إلا بمراعاته كرجحان أمير الجيش على جنوده، ورجحان القاضي على المتخاصمين. وأعدل الرجحان ما كان من قبل الدين والشريعة كرجحان المؤمن على الكافر، والتقي على الفاسق قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3] ويترجح في كل عمل أهل الخبرة به والإجادة فيه، وفيما وراء ذلك فالأصل المساواة. وفرعون هذا هو (رعمسيس) الثاني، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للفراعنة، وكان فاتحا كبيرا شديد السطوة، وهو الذي ولد موسى ﷺ في زمانه على التحقيق»[4].

قلت: ما أشار إليه ابن عاشور رحمه الله من أنه ليس من العلو المذموم رجحان أحد من الناس على غيره بالعلم أو الرئاسة أو المال أو غير ذلك؛ أمر واضح لا ينكر؛

---

(١) البقرة الآية (٢١٦).

(٢) القصص الآية (٨٣).

(٣) الحديد الآية (١٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٦٦-٦٧).

لكن هذا التفاوت قد يتجاوز فيه كثير من الناس حدوده، ليصل به ذلك إلى درجة الفرعونية، ثم يحدث من الفساد والفتن ما اللَّه به عليم.

وقد كان السلف الصالح ﷺ يحترزون من حصول هذا الأمر، ويلزمون التواضع والعدل في خلقهم، وممن ضرب المثل الأسمى في ذلك الفاروق عمر ﷺ، فكان أميرًا للمؤمنين وفي الوقت نفسه رجلًا من الرعايا لا يتجاوز حده، فها هو في الصلاة إمام، وفي الجهاد قائد، وفي السوق بائع أو مشترٍ، لا يكاد يتميز من الناس بشيء. وهكذا كان الأئمة بعده ممن أعطوا الأنموذج الأعلى والمضرب الأسنى في خلق التواضع والسمت الحسن، فتجدهم حيث ينبغي أن يكونوا، وتفقدهم حيث ينبغي أن لا يكونوا، مما يفتح الباب لدراسة اجتماعية شاملة واعدة تحتذى.

وقال أيضًا: «قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ دال على شدة تمكن الإفساد من خلقه، ولفعل الكون إفادة تمكن خبر الفعل من اسمه، فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون، ذلك أن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته. فهذه الصفة هي أم المفاسد وجماعها ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها ثم أعقبت بأنه كان من المفسدين.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعا وفرقهم أقساما، وجعل منهم شيعا مقربين منه، ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة لأنه يثير بينهما التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين.

وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة، وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة، بمنزلة الأبناء من الأب يحب لهم الخير، ويقومهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها. والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها وتكاثروا فيها، ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة، فكان لهم من الحق في أرض المملكة ما لسائر سكانها، فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعا، وأشار بقوله: (طائفة) إلى أنه استضعف فريقا كاملا، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد لأنه يقرن الفاضل بالمفضول. من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة، دون تمييز بين مستحق وغيره، ولم يراع النوعية من ذكورة وأنوثة وهي:

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم أي: يأمر بذبحهم، فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي. والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال. وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة. وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء أي: يستبقي حياة الإناث من الأطفال فأطلق عليهن اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء، فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج. وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن، فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء

الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء، إذ كل ذلك اعتداء على الحق»[١].

قال الزجاج: «وقوله عَلَيْكَ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾. معنى نسائهم ها هنا أنه كان يستحيي بناتهم، وإنما كان يعمل ذلك لأنه قال بعض الكهنة إن مولودا يولد في ذلك الحين يكون سبب ذهاب ملكك، فالعجب من حمق فرعون، إن كان الكاهن عنده صادقًا فما ينفع القتل، وإن كان كاذبًا فما معنى القتل»[٢].

قلت: هذه الآية تشير إلى تاريخ الجبابرة والمتكبرين؛ الذين يزعمون ما ليس لهم حمقًا وادعاءً وغرورًا، ومهما يكن فإن اللَّه تعالى خلق الخلق لعبادته لا شريك له، فهم عبيده لا يتعدون ذلك مهما أتوا من المال أو الجاه، والذي يخرج عن سلك العبودية للَّه وحده يُستدْرَج فيظهر ما عنده من السذاجة والظلم والحماقة، وما عنده من الكبرياء والنظر للآخرين بعين الازدراء والاحتقار، واستعمالهم في خدمته غير مراعٍ في أحد منهم إلا ولا ذمة، ماضٍ في هذا الطريق فترة من الزمن حتى يوقع اللَّه به بأسه بما شاء وكيف شاء.

وأمثال فرعون ومن على شاكلته أو شر منه في هذا الزمان كثيرون ممن أعلن الكفر والإلحاد، مع ادعاء بعضهم الإسلام زورًا وبهتانًا، ومخالفته لأوليات الإسلام؛ فلا تجد موبقة إلا وكان سباقًا إليها؛ شركًا كانت أو فسقًا أو فجورًا، والقارئ لقصص القرآن، الناظر لتواريخ الماضين السابقين ولو بسنين، يرى رأي يقين ما حل بفرعون وقارون وهامان؛ من الهلاك والخسف والدمار مما ينتظر من على شاكلتهم في كل حين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٦٨-٧٠).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٤/ ١٣١-١٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

* **غريب الآية:**

نمن: ننعم ونتفضل.

نُمَكِّنُ: نُقَوّي ونُمَلِّك. يقال: مَكّنتُهُ وأَمْكَنْتُه: إذا جعلته متمكنًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قد قدمنا أن قوله هنا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ هو الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1] الآية، ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة جمع إمام، أي قادة في الخير، دعاة إليه على أظهر القولين. ولم يبين هنا أيضًا الشيء الذي جعلهم وارثيه، ولكنه تعالى بين جميع ذلك في غير هذا الموضع، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾[2] فالصبر واليقين هما السبب في ذلك، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين بقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ

---

(١) الأعراف الآية (١٣٧).
(٢) السجدة الآية (٢٤).
(٣) الدخان الآيات (٢٥-٢٨).
(٤) الشعراء الآيات (٥٧-٥٩).
(٥) أضواء البيان (٦/ ٤٥١).

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[2] أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السماوات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[3].

قال السعدي: « ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأهم. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة اللَّه، وجرت بها مشيئته، ﴿وَ﴾ كذلك نريد أن ﴿نُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿مِنْهُم﴾ أي: من هذه الطائفة المستضعفة. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراده اللَّه، وإذا أراد أمرا سهل أسبابه، ونهج طرقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدر وأجرى من الأسباب -التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه- ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود»[4].

قال ابن عاشور: «وخص بالذكر من المن أربعة أشياء عطفت على فعل ﴿نَّمُنَّ﴾

---

(١) الأعراف الآية (١٣٧).
(٢) الشعراء الآية (٥٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥-٦).

عطف الخاص على العام وهي: جعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، والتمكين لهم في الأرض، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم، في نعم أخرى جمة ذكر كثير منها في سورة البقرة. فأما جعلهم أئمة فذلك بأن أخرجهم من ذل العبودية وجعلهم أمة حرة مالكة أمر نفسها، لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها، وقوة تدفع بها أعداءها، ومملكة خالصة لها وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرانها بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء، فهذا معنى جعلهم أئمة أي يقتدي بهم غيرهم ويدعون الناس إلى الخير. وناهيك بما بلغه ملك بني إسرائيل في عهد سليمان عليه السلام. وأما جعلهم الوارثين فهو أن يعطيهم اللَّه ديار قوم آخرين ويحكمهم فيهم، فالإرث مستعمل مجازا في خلافة أمم أخرى، فالتعريف في ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ تعريف الجنس المفيد أنهم أهل الإرث الخاص، وهو إرث السلطة في الأرض بعد من كان قبلهم من أهل السلطان، فإن اللَّه أورثهم أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والأراميين، وأحلهم محلهم على ما كانوا عليه من العظمة حتى كانوا يعرفون بالجبابرة قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[1]. والتمكين لهم في الأرض تثبيت سلطانهم فيما ملكوه منها وهي أرض الشام إن كانت اللام عوضا عن المضاف إليه. ويحتمل أن يكون المعنى تقويتهم بين أمم الأرض إن حمل التعريف على جنس الأرض المنحصر في فرد أو على العهد أي الأرض المعهودة للناس.. و ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ هو زوال ملكهم بسبب رجل من بني إسرائيل حسبما أنذره بذلك الكهان. ومعنى إراءتهم ذلك إراءتهم مقدماته وأسبابه»[2].

* * *

(١) المائدة الآية (٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧١-٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

★ غريب الآية:

اليم: البحر. والمراد به هنا والله أعلم نهر النيل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: ألهمناها وقذفنا في قلبها، وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى إلى الرسل، وقيل: كان ذلك رؤيا في منامها، وقيل: كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك.

وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين[١] وغيرهما، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح[٢] فلم يكن بذلك نبيا.. ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو بحر النيل. وقد تقدم بيان الكيفية التي ألقته في اليم عليها في سورة طه، ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ أي: لا تخافي عليه الغرق أو الضيعة، ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد»[٣].

قال ابن القيم: «إن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٦٢٠-٦٢١/ ٣٤٦٤) ومسلم (٤/ ٢٢٧٥-٢٢٧٧/ ٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٧) ومسلم (٢/ ٨٩٩/ ١٢٢٦(١٦٧)» ولفظه: «وقد كان يسلم علي حتى اكتويت فتركت، ثم تركت الكي فعاد» من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٢٤-٢٢٥).

لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف»[١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ حين ولدت موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وكان قتادة يقول في معنى ذلك ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ قذفنا في قلبها.. إن اللّه تعالى ذكره أمر أم موسى أن ترضعه فإذا خافت عليه من عدو اللّه فرعون وجنده أن تلقيه في اليم، وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادها إياه، وأي ذلك كان فقد فعلت ما أوحى اللّه إليها فيه، ولا خبر قامت به حجة ولا فطرة في العقل لبيان أي ذلك كان من أي، فأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال جل ثناؤه. واليم الذي أمرت أن تلقيه فيه هو النيل»[٢].

قال المراغي: « ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ أي فإذا خفت عليه من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون أولاد بني إسرائيل اتباعًا لأمره، أو من الجيران أن ينموا عليه إذا سمعوا صوته، فألقيه في النيل ولا تخافي هلاكه، ولا تحزني لفراقه.. روي أن دارها كانت على الشاطئ فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وألقته في النيل، وليس هناك من دليل على الزمن الذي قضته بين الولادة والإلقاء في اليم. ثم وعدها سبحانه بما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤه غبطة وسرورًا، وهو رده إليها وجعله رسولا نبيا فقال: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي إنا رادو ولدك إليك للرضاع وتكونين أنت مرضعه، وباعثوه رسولًا إلى هذا الطاغية وجاعلو هلاكه ونجاة بني إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه»[٣].

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ٢٩-٣٠).
(٣) تفسير المراغي (٢٠/ ٣٧).

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهو تعليل لقضاء اللَّه سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدوا وحزنا. وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزنا لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار. فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه. فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر. وقد أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره»[1].

قال الشنقيطي: «اعلم أن التحقيق إن شاء اللَّه، أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[2].

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ صريح في أن اللَّه تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته بمشيئته -جل وعلا- إلى ما سبق به علمه، وقد صرف مشيئة فرعون وقومه بمشيئته -جل وعلا- إلى التقاطهم موسى، ليجعله لهم عدوا وحزنا، فكأنه يقول: قدرنا عليهم التقاطه بمشيئتنا ليكون لهم عدوا وحزنا، وهذا معنى واضح، لا لبس فيه ولا إشكال كما ترى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره هذه الآية: ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٩١-٩٢).

(٢) الإنسان الآية (٣٠) والتكوير الآية (٢٩).

تبقى اللام للتعليل، لأن معناه: أن اللَّه تعالى قيضهم لالتقاطه، ليجعله عدوا لهم وحزنا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه. انتهى محل الغرض من كلامه، وهذا المعنى هو التحقيق في الآية إن شاء اللَّه تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما بينا وجهه آنفا.

وبهذا التحقيق تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين، وينشدون له الشواهد من أن اللام في قوله: (ليكون) لام العاقبة والصيرورة خلاف للصواب، وأن ما يقوله البيانيون، من أن اللام في قوله: (ليكون) فيها استعارة تبعية، في متعلق معنى الحرف، خلاف الصواب أيضًا.. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: مرتكبين الخطيئة التي هي الذنب العظيم كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[2] الآية.

ومن إطلاق الخاطئ على المذنب العاصي قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾[4] وقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[5] والعلم عند اللَّه تعالى»[6].

قال السعدي: « ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدوا لهم وحزنا يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيض اللَّه أن يكون زعيمهم، يتربى تحت أيديهم وعلى نظرهم وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع، إنه لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو ذو الهمة

---

(١) نوح: الآية (٢٥).
(٢) البقرة: الآية (٨١).
(٣) الحاقة: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٤) العلق: الآية (١٦).
(٥) يوسف: الآية (٢٩).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٤٥١-٤٥٥).

العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف -الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص اللَّه علينا بعضه- أن صار بعض أفراده ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

وهذا مقدمة للظهور، فإن اللَّه تعالى من سنته الجارية أن جعل الأمور تمشي على التدريج شيئًا فشيئا، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ أي: مجرمين، فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم، ونكيد لهم، جزاء على مكرهم وكيدهم»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

قرت عين: مسرة وفرح، تستقر به الأعين وتطمئن به الأنفس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بني إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تحاج عنه وتذب دونه، وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال: أما لك فنعم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها اللَّه به، وأهلكه اللَّه على يديه.. وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وقد حصل لها ذلك، وهداها اللَّه به، وأسكنها الجنة بسببه. وقولها: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: أرادت أن تتخذه ولدا وتتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد اللَّه منه بالتقاطهم إياه، من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة»[1].

قال السعدي: «لما التقطه آل فرعون، حنن اللَّه عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة (آسية) بنت مزاحم ﴿وَقَالَتِ﴾ هذا الولد ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي: أبقه لنا، لتقر به أعيننا، ونستر به في حياتنا.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولدا لنا، ونكرمه، ونجله.

فقدر اللَّه تعالى أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبا شديدا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه اللَّه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٢-٢٣٣).

وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال اللَّه تعالى عن هذه المراجعات [والمقاولات] في شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا لكان لهم وله شأن آخر»[1].

قال ابن عاشور: «ويتضمن قولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأن هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه؛ لأنه لما انضم في أهلهم، وسيكون ربيهم، فإنه يرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد. فأقنعت فرعون بقياس على الأحوال المجربة في علاقة التربية والمعاشرة والتبني والإحسان، وإن الخير لا يأتي بالشر. ولذلك وقع بعده الاعتراض بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وفرعون وقومه لا يعلمون خفي إرادة اللَّه من الانتقام من أمة القبط بسبب موسى»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٩-٨٠).

قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾

★ غريب الآية:

فارغًا : خاليًا .

لتبدي به : لتظهر أمره وتقول إنه ولدها . يقال : أبدى يبدي أي أظهر .

ربطنا على قلبها : أي شددناه وقويناه بالصبر .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «يقول تعالى مخبرا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغا أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصري وقتادة وغيرهم ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن اللّه ثبتها وصبرها قال اللّه تعالى : ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[1] .

قال السعدي : «لما فقدت موسى أمه ، حزنت حزنا شديدا ، وأصبح فؤادها فارغا من القلق الذي أزعجها ، على مقتضى الحالة البشرية ، مع أن اللّه تعالى نهاها عن الحزن والخوف ، ووعدها برده .

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي : بما في قلبها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبتناها ، فصبرت ، ولم تبد به . ﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ، ازداد بذلك إيمانه ، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه»[2] .

قال ابن عاشور : «وإذ لم يذكر أن فؤاد أم موسى لماذا أصبح فارغا احتملت

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٩) .

الآية معاني ترجع إلى محتملات متعلق الفراغ ما هو. فاختلف المفسرون في ذلك قديما، ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين: ناحية تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جاشها، وناحية تؤذن بتطرق الضعف والشك إلى نفسها.

فأما ما يرجع إلى الناحية الأولى؛ فهو أنه فارغ من الخوف والحزن فأصبحت واثقة بحسن عاقبته تبعا لما ألهمها من أن لا تخاف ولا تحزن فيرجع إلى الثناء عليها. وهذا أسعد بقوله تعالى بعد ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن ذلك الربط من توابع ما ألهمها اللّٰه من أن لا تخاف ولا تحزن.

فالمعنى: أنها لما ألقته في اليم كما ألهمها اللّٰه زال عنها ما كانت تخافه عليه من الظهور عليه عندها وقتله؛ لأنها لما تمكنت من إلقائه في اليم، ولم يشعر بها أحد، قد علمت أنه نجا. وهذا المحمل يساعده أيضًا ما شاع من قولهم: فلان خلي البال: إذا كان لا هم بقلبه. وهو تفسير أبي عبيدة والأخفش والكسائي، وهذا أحسن ما فسرت به، وهو من معنى الثناء عليها بثباتها. وعن ابن عباس من طرق شتى أنه قال: فارغا من كل شئ إلا ذكر موسى. وفي هذا شيء من رباطة جاشها إذ فرغ لبها من كل خاطر يخطر في شأن موسى.

وأما زيادة ما أداه الاستثناء بقوله: إلا ذكر موسى، فلعله انتزعه من قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وإلا فليس في الآية ما يؤذن بذلك الاستثناء. وهذا التفسير يقتضي الجمع بين الثناء عليها بحسن ثقتها باللّٰه والإشارة إلى ضعف الأمومة بالتشوق إلى ولدها وإن كانت عالمة بأنه يتقلب في أحوال صالحة به وبها.

وأما الأقوال الراجعة إلى الناحية الثانية، فقال ابن عطية والقرطبي عن ابن القاسم عن مالك: الفراغ هو ذهاب العقل. قال ابن عطية: هو كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[1] أي: لا عقول فيها. وفي الكشاف: أي لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع. وقال ابن زيد والحسن وابن إسحاق: أصبح فارغا من تذكر الوعد الذي وعدها اللّٰه إذ خامرها خاطر شيطاني، فقالت في نفسها: إني خفت عليه من القتل فألقيته بيدي في يد العدو الذي أمر

(١) إبراهيم الآية (٤٣).

بقتله. قال ابن عطية: وقالت فرقة: فارغا من الصبر. ولعله يعني من الصبر على فقده. وكل الأقوال الراجعة إلى هذه الناحية ترمى إلى أن أم موسى لم تكن جلدة على تنفيذ ما أمرها اللّٰه تعالى، وأن اللّٰه تداركها بوضع اليقين في نفسها.

وجملة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ تكون بالنسبة للتفسير الأول استئنافا بيانيا لما اقتضاه فعل (أصبح) من أنها كانت على حالة غير حالة فراغ فبينت بأنها كانت تقارب أن تظهر أمر ابنها من شدة الاضطراب؛ فإن الاضطراب ينم بها. فالمعنى: أصبح فؤادها فارغا، وكادت قبل ذلك أن تبدي خبر موسى في مدة إرضاعه من شدة الهلع والإشفاق عليه أن يقتل. وعلى تفسير ابن عباس تكون جملة ﴿إِن كَادَتْ﴾ بمنزلة عطف البيان على معنى (فارغا). وهي دليل على الاستثناء المحذوف. فالتقدير: فارغا إلا من ذكر موسى فكادت تظهر ذكر موسى وتنطق باسمه من كثرة تردد ذكره في نفسها.

وأما على الأقوال الراجعة إلى الناحية الثانية فجملة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ بيان لجملة: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي: كادت لتبدي أمر موسى من قلة ثبات فؤادها»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ قال: «**خاليًا من كل شيء غير ذكر موسى**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «وهذا كثيرًا ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور: إما حب،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٨٠-٨٢).

(٢) علقه البخاري بصيغة الجزم (٦/ ٥٢٢) و(٨/ ٦٤٩)، وقال ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٢٤): «وصله سعيد بن عبدالرحمن المخزومي في تفسير ابن عيينة من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ قال: «من كل شيء إلا من ذكر موسى»، وأخرج الطبري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه. ومن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «فارغًا لا تذكر إلا موسى». ومن طريق مجاهد وقتادة نحوه. ومن طريق الحسن البصري: «أصبح فارغًا من العهد الذي عهد إليها أنه سيرد عليها»». اهـ.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٦-٤٠٧) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وحسان هو ابن أبي عباد قد احتجا جميعًا به». وهو طرف من حديث الفتون الذي أخرجه النسائي (٥/ ١٠/ ٢٦١٨).

وإما خوف، وإما رجاء؛ يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه؛ بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره»[١].

* * *

(١) العبودية (ص١١٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

★ غريب الآية:

قصيه: القص اتباع الأثر.

بَصُرَتْ به: أي رأته ببصرها.

عن جنب: عن بعد، ومنه قيل للبعيد أجنبي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي أمرت ابنتها، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ قال ابن عباس: عن جانب وقال مجاهد: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده»[١].

قال السعدي: «﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه] ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه. وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾: «أي: اتبعي أثره»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٩).
(٣) علقه البخاري (٨/ ٦٤٩) ووصله ابن أبي حاتم في التفسير (٩/ ٢٩٤٨/ ١٦٧٢٠) وأخرجه ابن جرير=

قوله تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

المراضع: جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع الطفل اللبن.

يكفلونه لكم: يرضعونه ويقومون على رعايته ويحفظونه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها ثديا، وأبى أن يقبل شيئًا من ذلك. فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: تحريما قدريا، وذلك لكرامة اللَّه له صانه عن أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن اللَّه -سبحانه جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهي آمنة، بعدما كانت خائفة. فلما رأتهم [أخته] حائرين فيمن يرضعه قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

قال ابن عباس: لما قالت ذلك أخذوها، وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤورة الملك ورجاء منفعته. فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم،

= (٢٠/ ٣٩) من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٧) من طريق الأعمش عن حسان به، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وحسان هو ابن أبي عباد قد احتجا جميعًا به». وقال الذهبي في «التلخيص»: «حسان بن أبي عباد لا يدرى من هو، وإنما يروي الأعمش عن حسان بن أبي الأشرس عن ابن جبير، ثقة خرج له النسائي فقط».

ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحا شديدا. وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها، وأعطتها عطاء جزيلا، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها. ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلا وأولادا، ولا أقدر على المقام عندك. ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت. فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوي والإحسان الجزيل. فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها اللّٰه من بعد خوفها أمنا، في عز وجاه ورزق دارّ»[١].

قال القرطبي: «هذا تحريم منع لا تحريم شرع، قال امرؤ القيس:

جالت لتصرعني فقلت لها ... اقصري إني امرؤ صرعي عليك حرام

أي: ممتنع»[٢].

قال السعدي: «ومن لطف اللّٰه بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

وهذا جل غرضهم، فإنهم أحبوه حبًّا شديدًا، وقد منعه اللّٰه من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت»[٣].

قال ابن عاشور: «والتحريم: المنع وهو تحريم تكويني، أي قدرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبل ثديها؛ لأن فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل ومن مقدمات ذلك أن جعل اللّٰه إرضاعه من أمه مدة تعود فيها بثديها. ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل التقاطه وهو إيذان بأن ذلك التحريم مما تعلق به علم اللّٰه وإرادته في الأزل. والفاء

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٧٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٩-١٠).

في قوله: ﴿فَقَالَتْ﴾ فاء فصيحة تؤذن بجملة مقدرة أي فأظهرت أخته نفسها كأنها مرت بهم عن غير قصد. وإنما قالت ذلك بعد أن فشا في الناس طلب المراضع له وتبديل مرضعة عقب أخرى حتى عرض على عدد كثير في حصة قصيرة وذلك بسرعة مقدرة آل فرعون وكثرة تفتيشهم على المراضع حتى ألفوا عددا كثيرا في زمن يسير، وأيضًا لعرض المراضع أنفسهن على آل فرعون لما شاع أنهم يتطلبون مرضعا. وعرضت سعيها في ذلك بطريق الاستفهام المستعمل في العرض تلطفا مع آل فرعون وإبعادا للظنة عن نفسها. ومعنى ﴿يَكْفُلُونَهُ﴾ يتعهدون بحفظه وإرضاعه. فيدل هذا على أن عادتهم في الإرضاع أن يسلم الطفل إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها كما كانت عادة العرب لأن النساء الحرائر لم يكن يرضين بترك بيوتهن والانتقال إلى بيوت آل الأطفال الرضعاء. كما جاء في خبر إرضاع محمد ﷺ عند حليمة بنت وهب في حي بني سعد بن بكر.. والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية في قوله: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم، ومما ثبت لهم، فلذلك لم يقل: وينصحون له كما قيل ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ قال: «**لا يؤتى بمرضع فيقبلها**»[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٨٣-٨٤).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٢٠/ ٤٠)، والحاكم (٢/ ٤٠٧) وصححه على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال الذهبي: «حسان بن أبي عباد لا يدرى من هو، وإنما يروي الأعمش عن حسان بن أبي الأشرس عن جبير، ثقة خرج له النسائي فقط».

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة أو نحوه، والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجا، وبعد كل ضيق مخرجا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي به ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي عليه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فيما وعدها من رده إليها، وجعله من المرسلين، فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعا وشرعا، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس، وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2]»[3].

قال السعدي: « ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا رأوا السبب متشوشا شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة بين يدي

---

(١) البقرة الآية (٢١٦).

(٢) النساء الآية (١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٤).

الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوه عليها.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أما، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقًا وحقًا»[1].

قال ابن عاشور: «وموضع العبرة من هذه القصة أنها تتضمن أمورا ذات شأن فيها ذكرى للمؤمنين، وموعظة للمشركين.

فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه اللَّه وقدره هو كائن لا محالة كما دل عليه قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ وإن الحذر لا ينجي من القدر.

وثانيه: إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين، وأن علو فرعون لم يغن عنه شيئًا في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة.

وثالثه: أن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشير إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه والأخذ بناصر المستضعفين ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم، وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

ورابعه: الإشارة إلى حكمة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في جانب بني إسرائيل ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ في جانب فرعون؛ إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.

وخامسه: أن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر، وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام اللَّه يكون أعظم من انتقام العدو كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٠-١١).

وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تستأصل أمة كاملة لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة، فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد فتحصل مفسدتان هما أخذ البريء وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن اللَّه بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه، ولو شاء اللَّه لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولما قدّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاء أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم إلى أن رده إلى أمه، فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين ﴿قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] وليتوسموا من بوارق ظهور النبي محمد ﷺ، وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بأخرة.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين، فإن وجود امرأة فرعون كان سببا في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي فقالت امرأته: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ كما قدمنا تفسيره.

وتاسعه: ما في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل»[2].

قلت: حفظ اللَّه وكلاءته لأوليائه وأحبابه أمر مشهور معلوم، فهو سبحانه خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، فحِفْظُه ﷻ لموسى ﵇ في البحر وإنجاؤه من عدوه المبارز له بالحرب فرعون؛ بل حفظه له من ولادته إلى وفاته، آية ناطقة من آيات اللَّه البينات بأن اللَّه هو الفعال لما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الحركات والسكنات محكومة بمشيئته وتدبيره سبحانه. وقد يظهر للإنسان أن الأمر من أسوأ

(١) الأنفال الآية (٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٨٥-٨٦).

الأحوال وهو في واقعه من أحسنها، لكونه ما أوتي من العلم إلا قليلًا، ومثال هذا قصة موسى فظاهر الأمر غرق في البحر ووقوع في يد فرعون وهلاك متحقق، لكن حقيقته نجاة ورفعة وتحقيق وعد اللَّه الحق.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

بلغ أشده واستوى: بلغ أشد قوته وتمام عقله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذا اعتراض بين أجزاء القصة المرتبة على حسب ظهورها في الخارج. وهذا الاعتراض نشأ عن جملة ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فإن وعد اللّه لها قد حكي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. فلما انتهى إلى حكاية رده إلى أمه بقوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ إلى آخره، كمل ما فيه وفاء وعد اللّه إياها بهذا الاستطراد في قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾، وإنما أوتي الحكم، أعني النبوة، بعد خروجه من أرض مدين، كما سيجيء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾[1]. وتقدم نظير هذه الآية في سورة يوسف إلا قوله: (واستوى) فقيل: إن (استوى) بمعنى بلغ أشده، فيكون تأكيدا، والحق أن الأشد كمال القوة؛ لأن أصله جمع شدة بكسر الشين بوزن نعمة وأنعم وهي هيئة بمعنى القوة ثم عومل معاملة المفرد. وأن الاستواء: كمال البنية كقوله تعالى في وصف الزرع: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[2]، ولهذا أريد لموسى الوصف بالاستواء، ولم يوصف يوسف إلا ببلوغ الأشد خاصة؛ لأن موسى كان رجلا طوالا كما في الحديث «**كأنه من رجال شَنُوءة**»[3]، فكان كامل الأعضاء، ولذلك كان وكزه القبطي قاضيا على الموكوز»[4].

---

(١) القصص: الآية (٢٩). (٢) الفتح: الآية (٢٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٢) والبخاري (٦/ ٥٨٩/ ٣٤٣٧) ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٨) والترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٣١٣٠) والنسائي (٨/ ٧١٥/ ٥٦٧٣) مختصرا من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٨٧).

قال المكي الناصري: « ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: استكمل قوته الجسمية وقوته العقلية ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: حكمة وفهما ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تلك سنة اللَّه مع عباده المكرمين، الذين اصطفاهم ليكونوا من رسله وأنبيائه، وأصفيائه وأوليائه، وقد سبق في سورة يوسف على غرار هذه الآية قوله تعالى منوها بمكانة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

ويبدأ (بلوغ الأشد) عند بلوغ الحلم، ومن توابع ذلك أن يصبح الفتى أهلا لممارسة الحياة الزوجية، وينظر لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾[2] ويشهد له قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾[3] وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾[4]. وتصل مرحلة بلوغ الأشد إلى القمة عند بلوغ سن الأربعين، حيث تهيمن القوة العقلية على القوة الجسمية، قال الرازي: (فلهذا السر اختار اللَّه تعالى هذا السن للوحي، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس الأربعين سنة). وقد اعتنى كتاب اللَّه عناية خاصة بمرحلة الأربعين من حياة كل إنسان، وما ينتظر أن يبلغ فيها من وعي ونضج واستقامة، فقال تعالى فيما سيأتي من سورة الأحقاف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[5].

ويلاحظ أن كتاب اللَّه صدر الآيات المتعلقة بمرحلة الفتوة والشباب في حياة موسى عليه السلام بذكر ما أنعم به عليه من الحكمة والفهم، وسجل اسمه في سجل المحسنين الخالدين من عباده»[6].

قال السعدي: « ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ كملت فيه تلك الأمور ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: حكما

---

(١) يوسف الآية (٢٢).
(٢) النساء الآية (٦).
(٣) الحج الآية (٥).
(٤) غافر الآية (٦٧).
(٥) الأحقاف الآية (١٥).
(٦) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٩٢-٤٩٣).

يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلما كثيرا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادة اللَّه، المحسنين لخلق اللَّه، نعطيهم علما وحكما بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما جزينا موسى على طاعته إيانا وإحسانه بصبره على أمرنا كذلك نجزي كل من أحسن من رسلنا وعبادنا، فصبر على أمرنا وأطاعنا، وانتهى عما نهيناه عنه»[٢].

قال الشوكاني: «﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الذي جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر اللَّه وألقت ولدها في البحر، وصدقت بوعد اللَّه نجزي المحسنين على إحسانهم، والمراد العموم»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١١).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ٤٣).
(٣) فتح القدير (٤/ ٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وكزه: الوكز: الدفع بجميع الكف. ومثله: اللكز واللهز.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ القبط.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثته لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغا يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثة الإسرائيلي، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: أماته من تلك الوكزة، لشدتها وقوة موسى.

فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من تزيينه ووسوسته، ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال»[(١)].

قال ابن العربي: «قوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ طلب غوثه ونصرته، ولذلك قال في الآية

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١١-١٢).

بعدها: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ وإنما أغاثه؛ لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها، وفرض في جميع الشرائع»[١].

قال ابن عاشور: «وحكاية ذلك للتنبيه على أن موسى لم يخطر بباله حينئذ إلا النظر في العاقبة الدينية.. والإشارة بهذا إلى الضربة الشديدة التي تسبب عليها الموت أو إلى الموت المشاهد من ضربته، أو إلى الغضب الذي تسبب عليه موت القبطي. والمعنى: أن الشيطان أوقد غضبه حتى بالغ في شدة الوكز. وإنما قال موسى ذلك لأن قتل النفس مستقبح في الشرائع البشرية، فإن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها. وكان موسى يعلم دين آبائه لعله بما تلقاه من أمه المرأة الصالحة في مدة رضاعه وفي مدة زيارته إياها. وجملة ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لكون شدة غضبه من عمل الشيطان إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على زجر القبطي، أو كفه عن الذي من شيعته، فلما كان الشيطان عدوا للإنسان، وكانت له مسالك إلى النفوس استدل موسى بفعله المؤدي إلى قتل نفس أنه فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان، ولولاها لكان عمله جاريا على الأحوال المأذونة. وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير، وأنه الفطرة، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري وهو تخلل نزغ الشيطان في النفس»[٢].

* * *

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ظهيرًا: عونًا ومساعدًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره مخبرا عن ندم موسى على ما كان من قتله النفس التي قتلها، وتوبته إليه منه، ومسألته غفرانه من ذلك ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتل النفس التي لم تأمرني بقتلها، فاعف عن ذنبي ذلك واستره علي، ولا تؤاخذني به فتعاقبني عليه.. وقوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ يقول تعالى ذكره: فعفا اللَّه لموسى عن ذنبه ولم يعاقبه به ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقول: إن اللَّه هو الساتر على المنيبين إليه من ذنوبهم على ذنوبهم، المتفضل عليهم بالعفو عنها، الرحيم للناس أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد ما تابوا منها وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يقول تعالى ذكره: قال موسى رب بإنعامك علي بعفوك عن قتل هذه النفس ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني المشركين، كأنه أقسم بذلك»[1].

قال ابن عاشور: «بدل اشتمال من جملة ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؛ لأن الجزم بكون ما صدر منه عملًا من عمل الشيطان وتغريره يشتمل على أن ذلك ظلم لنفسه، وأن يتوجه إلى اللَّه بالاعتراف بخطئه، ويفرع عليه طلب غفرانه. وسمى فعله ظلما لنفسه؛ لأنه كان من أثر فرط الغضب لأجل رجل من شيعته، وكان يستطيع أن يملك من غضبه، فكان تعجيله بوكز القبطي وكزة قاتلة ظلمًا جره لنفسه. وسماه في سورة الشعراء ضلالا ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾[2]. وأراد بظلمه نفسه أنه تسبب لنفسه في مضرة إضمار القبط قتله، وإنه تجاوز الحد في عقاب القبطي على مضاربته

(١) جامع البيان (٢٠/ ٤٧).

(٢) الشعراء الآية (٢٠).

الإسرائيلي. ولعله لم يستقص الظالم منهما، وذلك انتصار جاهلي، كما قال وداك ابن ثميل المازني يمدح قومه:

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأي مكان

وقد اهتدى موسى إلى هذا كله بالإلهام؛ إذ لم تكن يومئذ شريعة إلهية في القبط. ويجوز أن يكون علمه بذلك مما تلقاه من أمه وقومها من تدين ببقايا دين إسحاق ويعقوب»[1].

قال القرطبي: «ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه، قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى أنه في القيامة يقول: «**إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها**»[2]. وإنما عدده على نفسه ذنبا وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وأيضًا فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم. قال النقاش: لم يقتله عن عمد مريدا للقتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه. قال: وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة.. وكان قتله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل»[3].

قال السعدي: «استغفر ربه فـ ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وخصوصا للمخبتين المبادرين للإنابة والتوبة كما جرى من موسى عليه السلام فـ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: معينا ومساعدا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا أعين أحدًا على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منة الله عليه، أن لا يعين مجرمًا، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير، وترك الشر»[4].

قال ابن عاشور: «وقد جعل جمهور من السلف هذه الآية حجة على منع إعانة

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩١).

(٢) جزء من حديث الشفاعة الطويل أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) والبخاري (٨/ ٥٠٤-٥٠٥/ ٤٧١٢) ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤) والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٧/ ١١٢٨٦) وابن ماجه مختصرا (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٧٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٢-١٣).

أهل الجور في شيء من أمورهم. ولعل وجه الاحتجاج بها أن اللَّه حكاها عن موسى في معرض التنويه به، فاقتضى ذلك أنه من القول الحق»[١].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يترقب: ينتظر.

يستصرخه: يستغيثه. والاستصراخ: طلب الإغاثة برفع الصوت.

الغوي: هو الضال المنهمك في الضلالة لا يرده شيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فأصبح موسى في مدينة فرعون خائفا من جنايته التي جناها، وقتله النفس التي قتلها أن يؤخذ فيقتل بها ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يقول: يترقب الأخبار: أي ينتظر ما الذي يتحدث به الناس مما هم صانعوه في أمره وأمر قتيله.. وقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يقول تعالى ذكره: فرأى موسى لما دخل المدينة على خوف مترقبا الأخبار عن أمره وأمر القتيل، فإذا الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على الفرعوني يقاتله فرعوني آخر، فرآه الإسرائيلي فاستصرخه على الفرعوني يقول: فاستغاثه أيضًا على الفرعوني، وأصله من الصراخ، كما يقال: قال بنو فلان يا صباحاه. قال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يقول جل ثناؤه: قال موسى للإسرائيلي الذي استصرخه، وقد صادف موسى نادما على ما سلف منه من قتله بالأمس القتيل، وهو يستصرخه اليوم على آخر: إنك أيها المستصرخ لغوي: يقول: إنك لذو غواية مبين: يقول: قد تبينت غوايتك بقتلك أمس رجلا واليوم آخر»[1].

قال السعدي: «﴿فَـ﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿أَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعر به آل فرعون، أم لا؟ وإنما خاف لأنه قد علم أنه لا يتجرأ

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٤٧-٤٨).

أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل.

فبينما هو على تلك الحال ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ على عدوه ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ على قبطي آخر. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ موبخا له على حاله ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الغواية، ظاهر الجراءة»[1].

قال القرطبي: «قد تقدم في طه وغيرها أن الأنبياء صلوات اللّٰه عليهم يخافون؛ ردا على من قال غير ذلك، وأن الخوف لا ينافي المعرفة باللّٰه ولا التوكل عليه، فقيل: أصبح خائفا من قتل النفس أن يؤخذ بها. وقيل: خائفا من قومه أن يسلموه. وقيل: خائفا من اللّٰه تعالى»[2].

قال الرازي: «واحتج به من قدح في عصمة الأنبياء ﷺ، فقال: كيف يجوز لموسى ﷺ أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؟ الجواب من وجهين: الأول: أن قوم موسى ﷺ كانوا غلاظا جفاة، ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[3] فالمراد بالغوي المبين ذلك. الثاني: أنه ﷺ إنما سماه غويا لأن من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد»[4].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٣).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) الأعراف الآية (١٣٨).

(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٣٧).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

يبطش: البطش: الأخذ بشدة وقوة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «واختلفوا في قوله تعال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ﴾ أهو من كلام الإسرائيلي أو القبطي؟ فقال بعضهم: لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غوي، ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده، فقال هذا القول، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو، وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف، وقال آخرون: بل هو قول القبطي، وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي، والظاهر هذا الوجه لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ فهذا القول إذن منه لا من غيره وأيضًا فقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يليق إلا بأن يكون قولا للكافر»[١].

وقال بالقول الأول ابن جرير وابن كثير.

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل الإسرائيلي لموسى: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض، وكان من فعل الجبابرة: قتل النفوس ظلما بغير حق، وقيل: إنما قال ذلك لموسى الإسرائيلي لأنه كان عندهم من قتل نفسين من الجبابرة.. وقوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ يقول: ما تريد أن تكون ممن يعمل في الأرض بما فيه صلاح أهلها من طاعة الله»[٢].

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) جامع البيان (٢٠/ ٤٩-٥٠).

قال ابن كثير: «عزم -أي: موسى عليه السلام- على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الملأ: أشراف القوم وقيل القوم يجتمعون على رأي فيملؤون القلوب هيبة ثم أطلق على كل جماعة لأنهم يتمالؤون على ما يريدون أي يتعاونون.

يأتمرون: الائتمار: التشاور والارتياء. ائتمر القوم وارتأوا بمعنى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ذكر أن قول الإسرائيلي سمعه سامع فأفشاه، وأعلم به أهل القتيل، فحينئذ طلب فرعون موسى، وأمر بقتله، فلما أمر بقتله جاء موسى مخبر وخبره بما قد أمر به فرعون في أمره، وأشار عليه بالخروج من مصر بلد فرعون وقومه.. وقوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يقول جل ثناؤه: قال الرجل الذي جاءه من أقصى المدينة يسعى لموسى: يا موسى إن أشراف قوم فرعون ورؤساءهم يتآمرون بقتلك، ويتشاورون ويرتئون فيك؛ ومنه قول الشاعر:

ما تأتمر فينا فأمـ ... ـرك في يمينك أو شمالك

يعني: ما ترتئي وتهتم به، ومنه قول النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحدثوا شيمة ... وفي كل حادثة يؤتمر

أي يتشاور ويرتأى فيها.

وقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ يقول: فاخرج من هذه المدينة إني لك في إشارتي عليك بالخروج منها من الناصحين»[(١)].

قال المكي الناصري: «لما وقعت هذه الواقعة وخرجت من طي الكتمان،

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٥٠-٥٢).

وشاع أمرها بين الناس، وتردد اسم موسى بصفته مسؤولا عنها، هم آل فرعون بمؤاخذته عليها ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ والرجل الذي اطلع على هذا السر من مصدره، وتحمل مشقة الانتقال للإفضاء به إلى موسى في غفلة عن الأنظار، وسباق مع الذين يتعقبون موسى، من زبانية فرعون الأشرار، حتى يخبره الخبر، فيبادر بمغادرة مصر قبل أن تمتد إليه أيديهم، هو فيما ذهب إليه أكثر المفسرين (مومن آل فرعون) نفسه، الذي لم يكن على دين فرعون رغما عن كونه ابن عمه، والذي كان على ملة يوسف قبل أن يتنبأ موسى ويؤمن به. والوصف بالرجولة والفتوة لا يلقيه كتاب اللّٰه جزافًا، وإنما يصف به أصحاب المواقف الحاسمة في نصرة الحق والجهر به والدفاع عنه، والتمسك بحبله والثبات عليه، من أولي العزم الصادقين.

فمن الوصف بالفتوة التي هي كمال الصفات في الفتى، قوله تعالى في شأن إبراهيم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾[1] وقوله تعالى في شأن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[2].

ومن الوصف بالرجولة التي هي كمال الصفات في الرجل قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ على غرار ما سيأتي في سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[5] وفي سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[6].

ومعنى ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون في شأنك، والائتمار في الأصل التشاور، لأن من يحضر جمعا من هذا النوع لا يخلو من أن يشير على الآخرين بأمر من الأمور، في الوقت الذي يشير فيه الآخرون عليه بأمر آخر، ومن ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾[7] أي ليأمر بعضكم بعضًا بالمعروف لا بالمنكر.

---

(١) الأنبياء الآية (٦٠).
(٢) الكهف الآية (١٣).
(٣) التوبة الآية (١٠٨).
(٤) النور الآية (٣٧).
(٥) يس الآيتان (٢٠و٢١).
(٦) غافر الآية (٢٨).
(٧) الطلاق الآية (٦).

وكما دبر أعداء موسى مؤامرة للتخلص منه قبل فوات الأوان، لأنه اشتهر عنه من قبل أن ينبأ تسفيه عقائدهم الباطلة التي ليس عليها دليل ولا برهان، وتجريح تصرفاتهم الجائرة القائمة على الظلم والطغيان، فقد دبر أعداء الرسالة الإلهية التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين لرسوله الأمين نفس المؤامرة، وعنها تحدث كتاب اللّه في سورة الأنفال[١] فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾»[٢].

قال ابن عاشور: «ومحل العبرة من قصة موسى مع القبطي وخروجه من المدينة من قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إلى هنا هو أن اللّه يصطفي من يشاء من عباده، وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء هيأ له أسبابه بقدرته فأبرزه على أتقن تدبير، وأن الناظر البصير في آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول في دعوته، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣]. وإن أوضح تلك المظاهر استقامة السيرة ومحبة الحق، وأن دليل عناية اللّه بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته مما له من المكائد. وفي ذلك كله مثل للمشركين لو نظروا في حال محمد ﷺ في ذاته وفي حالهم معه. ثم (إن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآية إيماء إلى أن رسوله ﷺ سيخرج من مكة وأن اللّه منجيه من ظالميه»[٤].

* * *

(١) الأنفال الآية (٣٠).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٤٩٥-٤٩٧).

(٣) يونس الآية (١٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩٦-٩٧).

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يترقب: ينتظر ويتوقع ماذا يكون.

تلقاء: تلقاء الشيء: جهته وحذاؤه.

سواء السبيل: وسط الطريق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فخرج موسى من مدينة فرعون خائفا من قتله النفس أن يقتل به بترقب: يقول: ينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه.. وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: قال موسى وهو شاخص عن مدينة فرعون خائفا: رب نجني من هؤلاء القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بك.

وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولما جعل موسى وجهه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون وخارجا عن سلطانه.. وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: عسى ربي أن يبين لي قصد السبيل إلى مدين، وإنما قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها»[1].

قال ابن كثير: «لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه. فذكروا أن الله ﷻ بعث إليه ملكا على فرس، فأرشده إلى الطريق، فالله أعلم ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أخذ طريقا سالكا مهيعا فرح بذلك، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الأقوم. ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط

(١) جامع البيان (٢٠/ ٥٢-٥٣).

المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هاديا مهديا»[١].

قال الرازي: «قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: خائفا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ، ثم التجأ إلى اللَّه تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبا، وإلا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصا»[٢].

وقال أيضًا: «اعلم أن الناس اختلفوا في قوله: ولما توجه تلقاء مدين قال بعضهم: إنه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه إلى اللَّه تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله اللَّه تعالى إلى مدين، وهذا قول ابن عباس، وقال آخرون: لما خرج قصد مدين لأنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو كان من بني إسرائيل، لكن لم يكن له علم بالطريق، بل اعتمد على فضل اللَّه تعالى، ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام، وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدي: لما أخذ موسى عليه السلام في المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح، فقال لا تفعل واتبعني، فاتبعه نحو مدين، واحتج من قال إنه خرج وما قصد مدين بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ ولو كان قاصدا للذهاب إلى مدين لقال: ولما توجه إلى مدين، فلما لم يقل ذلك بل قال: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ علمنا أنه لم يتوجه إلا إلى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب إلى أين ينتهي. والثاني: قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا كلام شاك لا عالم، والأقرب أن يقال إنه قصد الذهاب إلى مدين وما كان عالما بالطريق»[٣].

وقال أيضًا: «أما قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[٤]، وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاما في الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام، وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات اللَّه عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٦).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٣٨).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٣٩).
(٤) الصافات الآية (٩٩).
(٥) التفسير الكبير (٢٤/ ٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

★ غريب الآية:

ورد: بلغ، أصل الورود قصد الماء ثم يستعمل في غيره اتساعا.

تذودان: تطردان وتكُفّان. يقال: ذُدْتُه أَذُودُه: إذا صرفته عني ومنعته.

خطبكما: الخطب: الشأن والأمر. يقال: ما خطبك؛ أي: ما شأنك.

يصدر: ترجع من سقيهم غنمهم، وتنصرف، الوارد هو الآتي والصادر هو الراجع.

الرعاء: جمع راعٍ، وهو الذي يرعى الغنم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: « ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: دون تلك الأمة ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة، ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء

مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

فرق لهما موسى ﷺ ورحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه اللّٰه تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحا لذلك الظلال بعد التعب.

﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مسترزقا ربه ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيا ربه متملقا. وأما المرأتان فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى.

فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصا في النساء.

ويدل على أن موسى ﷺ لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه، فـ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لا ليمن عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ مسكنا روعه، جابرا قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن اللّٰه نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان»[1].

قال ابن كثير: «﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي لما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي جماعة يسقون ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى ﷺ رق لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ أي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٥-١٧).

ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فهذا الحال الملجيء لنا إلى ما ترى. قال اللَّه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾..

لما رجعت المرأتان سريعًا بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام. فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال اللَّه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي مشي الحرائر.. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني: ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يقول: طب نفسا وقر عينا، فقد خرجت من مملكتهم، فلا حكم لهم في بلادنا. ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾»[1].

قال المكي الناصري: «ينتقل كتاب اللَّه إلى الحديث عن رحلة موسى من بدايتها إلى نهايتها عندما وافى ماء مدين وكان الوقت وقت الهاجرة، ووجد الناس محلقين حول بئرهم التي يسقون منها، إذ هي مورد شربهم وسقيهم، وهم يتناوبون على السقي منها الواحد تلو الآخر، ثم يصبون الماء في الحياض لسقي مواشيهم، وكانوا أهل ماشية، وذلك ما يشير إليه إشارة خاطفة قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، والمراد بالأمة هنا جماعة كثيرة العدد من أناس مختلفين، والظاهر أن موسى عليه السلام كان في حالة عطش من تعب الطريق وشدة الحر، فبادر إلى ماء مدين لري عطشه وغسل أطرافه. غير أنه لاحظ في نفس الوقت وقوف امرأتين معتزلتين عن الزحام، مكتفيتين بحجز غنمهما عن حياض الماء وعن الاختلاط بأغنام الرعاة الأشداء الأقوياء، في انتظار انتهائهم من سقي مواشيهم وانصرافهم، عسى أن تنالا نصيبهما من الماء الذي يفضل عن الآخرين إن أسعدهما الحظ، وذلك ما يشير إليه كتاب اللَّه هنا في إيجاز وإعجاز إذ يقول:

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٦-٢٣٨).

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ أي: تحجزان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الرعاة وتخلو لهما البئر.

واستغرب موسى أن لا يلتفت أحد من ذلك الجمع الكبير من الرجال إليهما، فيأخذ بيدهما، ويسقي لهما ما يروي غنمهما ويزيل عطشهما، كما تقضي بذلك المروءة والرجولة والنجدة، لا سيما وهما المرأتان الوحيدتان من بينهم جميعًا، إذ كان رجال مدين هم الذين يقومون بالسقي من دون النساء كما يفهم من السياق، فلم يلبث أن تقدم إليهما سائلا مستفسرا، ولم تلبثا أن عبرتا له في جواب موجز، لكنه جامع مانع، عن حالهما وعن حال كبير أسرتهما الذي بلغ من الكبر عتيا، فأصبح عاجزا عن الحضور بنفسه لسقي الماء بدلا منهما، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى حكاية عنه وعنهما: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾..

ومعنى ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ أي: ما شأنكما الغريب، والخطب هو الأمر الخطير الذي يكثر فيه التخاطب، لكونه غير مقبول ولا مألوف، ولا شك أن الوضع الذي وجد موسى عليه المرأتين، من إهمال الرعاة الرجال لإسعافهما، وعدم المبالاة بإعانتهما، يعد وضعا غريبا وخطبا عجيبا.

ومعنى ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ أي: حتى ينصرف رعاة الغنم بمواشيهم ويرجعوا من وردهم، والرعاء أحد الجموع التي يجمع عليها لفظ الراعي، ومثله الرعاة.

ومعنى ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ فارق موقع السقي المعرض لأشعة الشمس، والتجأ إلى ظل ظليل، اتقاء لشدة الحر، واستجماعا من عناء السفر الطويل.

وبعدما تنفس موسى الصعداء، من ألم الجوع وشدة الإعياء، وهو وحيد فريد، توجه مرة أخرى إلى ربه الذي نجاه من القوم الظالمين، يسأله الرِّفد والمدد، والعطاء الذي لا ينفد ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

والظاهر أن المرأتين اللتين أسعفهما موسى وسقى لهما استرق سمعهما ما تردد على لسانه من التوجه إلى الله، وكان موسى يعتقد أنه لم يسمع أحد صداه، فغلب على ظنهما أن موسى جائع يحتاج إلى ما يسد رمقه، لكنه يتعفف ولا يصرح بالسؤال، وأخبرتا والدهما بعابر السبيل الذي وفد على بلدهما، وما يبدو عليه من

جميل الخصال وتبدل الأحوال، فقال لهما أبوهما صالح مدين وشيخها الكبير: إذًا هو جائع وينبغي إطعامه.

ولو عرفتا موسى حق المعرفة لأدركتا أن همته العالية لا تهتم بالعيش الهنيء، والتمتع بأسباب الرفاهية، وإنما أراد بتوجهه إلى اللّه ومناجاته إياه إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: أن الخير الذي أسديته إلي يا إلهي عندما نجيتني من القوم الظالمين وحررتني من رق فرعون، منة كبرى طوقت بها عنقي، لا يقوم بحقها أي شكر، وما ينعم به آل فرعون من شفوف وثروة وهناء، لا يساوي عندي شربة ماء، إذ هو في الحقيقة عين الذل والفقر والشقاء، والفقر في حمى الخالق هو الغنى على وجه التحقيق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1] أما الغنى في حمى المخلوق فهو الفقر الذي لا فقر بعده.

ووجه صالح مدين إحدى بنتيه إلى موسى تدعوه لينزل ضيفا عليه ويقدم له القرى ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وإنما جاءت على استحياء لأن الحياء الذي هو عبارة عن الحشمة والانقباض عن القبائح أبرز طابع يميز الفتيات العفيفات وكرائم النساء، ولا سيما إذا كان المخاطب رجلا وليس محرما من محارمهن، وإنما قالت بنت صالح مدين: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فبينت الداعي والغرض من الدعوة، قياما منها بتبليغ رسالة أبيها كما هي، وتوضيحا لأن الدعوة صادرة منه لا منها، ورفعا لكل شبهة أو ريبة يمكن أن تحمل عليها، وكما أحسن موسى إلى بنتي صالح مدين عندما سقى لهما، وأراحهما من عناء السقي وطول الانتظار من دون سابق معرفة، ها هو أبوهما الصالح يرى من واجبه أن يقابل الإحسان بالإحسان، وأن يبادر بدعوة موسى إلى ضيافته، واستقباله في بيته مع أعضاء أسرته لمكافأته، وإن لم يكن يعرف عنه إلا مجرد الملامح التي وصفتها له بنته الكبرى وبنته الصغرى.

وأجاب موسى الدعوة التي وجهها إليه صالح مدين على لسان بنته تصديقا لخبرها، فحضر من دون تأخر إلى بيته، ولما تعرف بعضهما على بعض، وجد كل منهما في الآخر ما يحببه في الصحبة والمرافقة، نظرا لما وجداه بينهما من مشاكلة

---

(١) فاطر الآية (١٥).

وموافقة، وأفضى موسى بذات نفسه إلى صالح مدين، فما وسعه إلا أن يسليه عما فات، ويطمئنه على ما هو آت ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير القصة وما فيها من العبر

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فأخبرتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذَنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم، ورجعت المرأتان إلى أبيهما فحدثتاه، وتولى موسى عليه السلام إلى الظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، قال: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ واضعة ثوبها على وجهها، قالت: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. قال لها: امشي خلفي وصفي لي الطريق، فإني أكره أن تصيب الريح ثوبك فيصف لي جسدك. فلما انتهى إلى أبيها قص عليه، قالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. قال: يا بنية! ما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلا عشرة، وأما أمانته فقال لي: امشي خلفي وصفي لي الطريق، فإني أخاف أن تصيب الريح ثوبك فتصف جسدك. فقال عمر: فأقبلت إليه ليست بسلفع من النساء لا خراجة ولا ولاجة، واضعة ثوبها على وجهها»[٢].

★ غريب الحديث:

ذَنوبًا: الذَّنوب: الدلو العظيمة. وقيل: لا تسمى ذَنوبًا إلا إذا كان فيها ماء.

سلفع: السلفع من النساء هي الجريئة على الرجال.

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٠٣-٥٠٧).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٢٠/ ٦٠) مختصرًا، وكذا ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٦٥/ ١٦٨٣٢). وأخرجه مطولا ابن أبي شيبة (٦/ ٣٣٤/ ٢٨٨٤٢)، والحاكم (٢/ ٤٠٧) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وذكره ابن كثير في التفسير (٦/ ٢٣٧) وقال: «إسناد صحيح».

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل، قيل هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام، قالت لأبيها ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾؛ أي: لرعية هذه الغنم.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه»[١].

قال السعدي: « ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: إحدى ابنتيه ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرا عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر من جمعهما؛ أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة.

وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها. فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى»[٢].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٧-١٨).

الخليقة ومصلحة الخلطة بين الناس»[١].

قال المكي الناصري: «وحيث إن صالح مدين كانت له أغنام، ولم يكن لديه أجير يرعى غنمه، وإنما كانت بنتاه هما اللتان تسوقان الغنم مكان الرعاة، لكونه لا عون له سواهما، فقد انتهزت إحدى بنتيه فرصة وجود موسى ضيفا على أبيها، واقترحت عليه أن يستأجر موسى ليتولى رعي الغنم، وتستريح هي وأختها من عبئها المضني ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، ودعمت ترشيحها موسى لهذه المهمة بكونه يتوفر فيه وصفان اثنان قلما يجتمعان في كثير من الناس، وكل منهما له أهمية بالغة بالنسبة لأية مهمة، صغر شأنها أو كبر. الوصف الأول أنه قوي، والوصف الثاني أنه أمين. إذ قالت فجرى قولها مجرى المثل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

وسبق في سورة النمل على لسان العفريت من الجن وهو يرشح لنقل عرش ملكة سبأ من مقرها إلى بلاط سليمان قبل أن يقوم من مقامه، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[٢] فدعم ترشيحه لتلك المهمة بكونه قويا على نقل العرش، وكونه أمينا على ما فيه، والمراد بالقوة في هذا المقام ما يشمل القوة الجسمية والقوة الفكرية، من فطنة وكياسة، وسرعة بديهة، وحسن تصرف. ومن كان قوي الجسم ضعيف العقل، أو قوي العقل لكنه ضعيف الجسم لا ينهض بالمهمة الموكولة إليه، ويتسرب الخلل إلى العمل المكلف به، بقدر ما هو عليه من ضعف جسمي أو ضعف فكري.

أما الأمانة فهي بالنسبة لكل عامل صمام الأمان، الذي يحول بينه وبين الغش والكسل والإهمال، ويحميه من سوء التصرف والرشوة والاستغلال، قال أحد العلماء الحكماء: إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك»[٣].

---

(١) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٧٩).

(٢) النمل الآية (٣٩).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٠٧-٥٠٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أحكام الإجارة

الإجارة لغة: الإثابة. يقال: آجرته بالمد وغير المد إذا أثبته. واصطلاحا: تمليك منفعة رقبة بعوض[١].

والإجارة نوعان:

الإجارة على العين: وهي عقد على عين معلومة يصح بيعها للانتفاع بها. مثاله: إذا أجر زيد بيته على عمرو لمدة سنة، فالمؤجر عين.

الإجارة على عمل: وهي عقد على عمل معلوم ليقوم به هذا العامل الذي استؤجر له. مثاله: إذا أجر زيد عمرا أن يبني له بيتا، وذكر له المواصفات كقصة موسى عليه السلام لأنه استأجره ثمان سنوات للرعي[٢].

والمالك الذي يؤجر المنفعة يسمى مؤَجِّرا.

والطرف الآخر الذي يبذل الأجر يسمى مستأجرًا.

والشيء المعقود عليه المنفعة يسمى مأجورًا.

والبذل المبذول في مقابل المنفعة يسمى أجرًا وأجرة.

قال الشوكاني: «ثبوت الإجارات في هذه الشريعة قطعي، ولا يكاد ينكر أصل الجواز والصحة إلا من لا يعرف الكتاب والسنة، ولا يعرف ما كان الأمر عليه في أيام النبوة وأيام الصحابة»[٣].

* عن عائشة رضي الله عنها: استأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الديل، ثم من بني عبد بن عدي هاديا خريتا -الخريت الماهر بالهداية-، قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي، فأخذ بهم أسفل مكة، وهو طريق الساحل[٤].

---

(١) الفتح (٤/ ٥٥٤).

(٢) مذكرة فقه ابن عثيمين (٢/ ٣٨٢-٣٨٣) بتصرف.

(٣) السيل الجرار (٣/ ١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ٥٥٧/ ٢٢٦٣).

★ **غريب الحديث:**

الخريت: قال الأصمعي: إنما سمي خريتا لأنه يهدي بمثل خرت الإبرة أي شقها، وقال غيره: قيل له ذلك لأنه يهتدي لآخرات المفازة وهي طرقها الخفية.

غمس يمين حلف: أي كان حليفًا، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيمانهم في دم أو خلوق أو في شيء يكون فيه تلويث فيكون ذلك تأكيدا للحلف.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «استئجار المشركين عند الضرورة وغيرها جائز حسن؛ لأن ذلك ذلة وصغار لهم، وإنما قال البخاري في ترجمته: إذا لم يوجد أهل الإسلام، من أجل أن النبى ﷺ إنما عامل أهل خيبر على العمل في أرضها إذ لم يوجد من المسلمين من ينوب منابهم في عمل الأرض، حتى قوي الإسلام واستغني عنهم وأجلاهم عمر بن الخطاب، وعامة الفقهاء يجيزون استئجارهم عند الضرورة وغيرها..

وقال ابن المنذر: فيه استئجار المسلم الكافر على هداية الطريق، وفيه استئجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لهما»[1].

وقال ابن بطال: «قال ابن المنذر: وهذا الخبر دال على إباحة أن يستأجر الرجل الرجل على أن يدخل في العمل بعد أيام معلومة، يصح عقد الإجارة قبل وقت العمل، وقياس هذا أن يجوز أن يستأجر منزلا معلوما سنة معلومة قبل مجيء السنة بأيام، وأجاز مالك وأصحابه استئجار الأجير على أن يعمل بعد يوم أو يومين أو ما قرب وهذا إذا نقده الأجرة.

واختلفوا إذا استأجره ليعمل له بعد شهر أو سنة ولم ينقده، فأجازه مالك وابن القاسم، وقال أشهب: لا يجوز. وهذا عندهم في الأجير المعين والراحلة المعينة، وأما إذا كان كراء مضمونا فيجوز فيه ضرب الأجل البعيد وتقديم رأس المال، ولا يجوز أن يتأخر رأس المال إلا اليومين والثلاثة؛ لأنه إذا تأخر كان من باب الدين بالدين، وتفسير الكراء المضمون أن يستأجره على حمولة بعينها على غير دابة

---

(١) شرح البخاري لابن بطال (٦/ ٣٨٧).

معينة، والإجارة المضمونة أن يستأجر على بناء بيت، ولا يشترط عليه عمل يده، ويصف له طوله وعرضه وجميع آلته، على أن المؤنة فيه كله على العامل مضمونا عليه حتى يتمه، فإن مات قبل تمامه كان ذلك في ماله ولا يضره بعد الأجل فيه، ووجه قول أشهب أنه لا يدرى أيعيش المستأجر أو الدابة، وهو من باب منع التصرف في الراحلة والأجير»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث اللَّه نبيًّا إلا رعى الغنم**. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: **نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[٢].

★ غريب الحديث:

قراريط: جمع قيراط وهو جزء من الدينار أو الدرهم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «وأجمع العلماء أنه جائز أن يستأجر الراعي شهورا معلومة بأجرة معلومة. قال مالك: وليس على الراعي ضمان، وهو مصدق فيما هلك أو سرق؛ إلا أن يفرط أو يعتدي»[٣].

قال الشوكاني: «(وفي الحديث) دليل على جواز الإجارة عن رعي الغنم، ويلحق بها في الجواز غيرها من الحيوانات»[٤].

١- إثم من منع الأجير أجره:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»[٥].

★ غريب الحديث:

استوفى فلان حقه: أخذه وافيًا تامًّا، ويقال: استوفى منه ماله، لم يبق عليه شيئًا.

---

(١) شرح البخاري لابن بطال (٦/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٥٥٦/ ٢٢٦٢) وابن ماجه (٢/ ٧٢٧/ ٢١٤٩).

(٣) شرح البخاري لابن بطال (٦/ ٣٨٦). (٤) نيل الأوطار (٥/ ٢٨٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٨) والبخاري (٤/ ٥٦٤/ ٢٢٧٠) وابن ماجه (٢/ ٨١٦/ ٢٤٤٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال المهلب: هذا الحديث مصداقه في كتاب اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[(١)].. ومن منع أجيرا حقه فقد ظلمه حتى استخدمه واستحل عرقه بغير أجر، وخالف بصيرة اللَّه في عباده، لأنه استعملهم ووعدهم على عبادته جزيل الثواب وعظيم الأجر، وهو خالقهم ورازقهم»[(٢)].

قال الحافظ: «قوله: «**ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**» هو في معنى: «**من باع حرًّا وأكل ثمنه**» لأنه استوفى منفعته بغير عوض، وكأنه أكلها، ولأنه استخدمه بغير أجرة، وكأنه استعبده»[(٣)].

٢- هل يؤاجر المسلم نفسه من مشرك في أرض الحرب؟

* عن خباب قال: كنت رجلا قينا فعملت للعاص بن وائل، فاجتمع لي عنده، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا واللَّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: أما واللَّه حتى تموت ثم تبعث فلا. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: فإنه سيكون لي ثَمَّ مال وولد، فأقضيك. فأنزل اللَّه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[(٤)][(٥)].

★ **غريب الحديث:**

قينًا: قال ابن دريد: أصل القين الحداد ثم صار كل صانع عند العرب قينا، وجمعه أقيان وقيون.

أتقاضاه: أطلب منه ديني.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال المهلب: كره العلماء أن يؤاجر المسلم نفسه من مشرك في دار الحرب أو دار الإسلام؛ لأن في ذلك ذلة للمسلمين، إلا أن تدعوا إلى ذلك

---

(١) الفتح الآية (١٠).
(٢) شرح البخاري لابن بطال (٦/ ٣٩٨-٣٩٩).
(٣) الفتح (٤/ ٥٢٦).
(٤) مريم الآية (٧٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ١١٠) والبخاري (٤/ ٥٧٠/ ٢٢٧٥) ومسلم (٤/ ٢١٥٣/ ٢٧٩٥) والترمذي (٥/ ٢٩٨/ ٣١٦٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٩٥/ ١١٣٢٢).

ضرورة، فلا يخدمه فيما يعود على المسلمين بضر، ولا فيما لا يحل مثل: عصر خمر، أو رعاية خنازير، أو عمل سلاح، أو شبه ذلك، وأما في دار الإسلام فقد أغنى اللَّه بالمسلمين وبخدمتهم عن الاضطرار إلى خدمة المشركين، وقد أمر اللَّه عباده المؤمنين بالترأس على المشركين، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[1] فلا يصح لمسلم أن يهين نفسه بالخدمة لمشرك إلا عند الضرورة، فإن وقع ذلك فهو جائز؛ لأنه لما جاز لنا أن نأخذ أموالهم بالمعاوضة منهم في أثمان ما بيع منهم، كان كذلك المنافع الطارئة منا -واللَّه أعلم- ألا ترى أن خبابًا عمل للعاص بن وائل وهو كافر، وجاز له ذلك»[2].

قال الحافظ: «قال ابن المنير: استقرت المذاهب على أن الصناع في حوانيتهم يجوز لهم العمل لأهل الذمة، ولا يعد ذلك من الذلة، بخلاف أن يخدمه في منزله وبطريق التبعية له، واللَّه أعلم»[3].

* * *

(١) محمد الآية (٣٥).
(٢) شرح البخاري لابن بطال (٦/ ٤٠٣).
(٣) الفتح (٤/ ٥٧٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾﴾

★ غريب الآية:

تأجرني: أي: تكون أجيرا لي.

حجج: جمع حِجة، بكسر الحاء، وهي السنة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ﴾ أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى لموسى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ يعني بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾: على أن تثيبني من تزويجها رعي ماشيتي ثماني حجج، من قول الناس: آجرك اللّه فهو يأجرك بمعنى: أثابك اللّه. والعرب تقول: أجرت الأجيرة أجره بمعنى: أعطيته ذلك، كما يقال: أخذته فأنا آخذه. وحكى بعض أهل العربية من أهل البصرة أن لغة العرب: أجرت غلامي فهو مأجور، وآجرته فهو مؤجر يريد: أفعلته. قال: وقال بعضهم: آجره فهو مؤاجر، أراد فاعلته. وكأن أباها عندي جعل صداق ابنته التي زوجها موسى رعي موسى عليه ماشيته ثماني حجج، والحجج: السنون.

وقوله: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ يقول: فإن أتممت الثماني الحجج عشرا التي شرطتها عليك بإنكاحي إياك إحدى ابنتي، فجعلتها عشر حجج، فإحسان من عندك، وليس مما اشترطته عليك بسبب تزويجك ابنتي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ باشتراط الثماني الحجج عشرا عليك ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ في الوفاء بما قلت لك. . قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ﴾ موسى لأبي المرأتين ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: هذا الذي قلت من أنك تزوجني إحدى ابنتيك على أن آجرك ثماني حجج واجب بيني وبينك، على كل واحد منا الوفاء لصاحبه بما أوجب له على نفسه.

وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يقول: أي الأجلين من الثماني الحجج والعشر الحجج قضيت، يقول: فرغت منها فوفيتكها رعي غنمك وماشيتك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ يقول: فليس لك أن تعتدي علي فتطالبني بأكثر منه. . وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقول: واللَّه على ما أوجب كل واحد منا لصاحبه على نفسه بهذا القول شهيد وحفيظ»[1].

قال المكي الناصري: «لم يقع تعيين البنت التي يريد تزويجها هنا لأن الأمر كان ما يزال مجرد عرض لا عقد، فلما وقع قبول العرض تعينت الزوجة وتم العقد، وبهذا يتبين أن قصص الأنبياء التي يتحدث عنها كتاب اللَّه مصدر للتوجيه، ومنجم خصب للاستنباط، علاوة على النصوص الصريحة في الأحكام من آيات الذكر الحكيم، وسنة رسوله الكريم قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2] وقال تعالى في نفس السورة: ﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]»[4].

فائدة:

تعليق وتحقيق حول الرجل الذي لقيه موسى عليه السلام وبقي اسمه مبهمًا في طي الكتمان دون أن يكشف عنه القرآن:

قال شيخ الإسلام: «إن اللَّه ذكر في القرآن أنه أهلك أهل مدين بالظلة لما جاءهم شعيب، وذكر في القرآن أن موسى أتاها وتزوج ببنت واحد منها، فظن بعض الناس أنه شعيب النبي، وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس والحسن

(١) جامع البيان (٢٠/ ٦٥-٦٦).
(٢) الأنعام الآية (٩٠).
(٣) الأنعام الآية (٨٧).
(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥١٠).

البصري وابن جريج وغيرهم، كلهم ذكروا أن الذي صاهره موسى ليس هو شعيبا النبي، وحكي أنه شعيب عمن لا يعرف من العلماء، ولم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين»[١].

قال المكي الناصري: «من حق أي سائل أن يتساءل: من هو ذلك الشيخ الكبير الذي لم يصرح كتاب اللَّه باسمه، وإنما تركه مبهما؟ هل صحيح ما جرى على كثير من الألسنة والأقلام، من أن المراد به هو نفس النبي شعيب عليه السلام؟ أم ذلك مجرد تخمين أو التباس، أوقع فيه ما هو متعارف من كون (مدين) هي وطن النبي شعيب، وكون (شعيب) هو أخ مدين المرسل إلى أهلها، حتى أصبح اسم (مدين) مقرونا باسم شعيب واسم شعيب مقرونا باسم مدين، من باب تداعي الخواطر والمعاني والأفكار؟

وجوابًا على هذا السؤال الملح نقدم الملاحظات التالية التي انتهينا إليها، بعد أن أعدنا النظر في هذا الموضوع، ودققنا البحث فيه بقدر المستطاع.

أولًا: إن شعيبًا عليه السلام حسبما حكى عنه كتاب اللَّه لم يكن فريدًا ولا وحيدًا دون أتباع ولا أنصار، بل كان له كبقية الأنبياء والرسل رهط من قومه المؤمنين به يقفون بجانبه في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، حتى إن كفار مدين رغما عن مهاجمتهم إياه وتحديهم له لم يسعهم إلا الاعتراف بأن له عصبة قوية تقف في وجوههم، وتدفع عنه أذاهم، وهم يتفادون المواجهة معها، بدليل قولهم لشعيب وهم يخاطبونه: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[٢] كما حكى عنهم كتاب اللَّه في سورة هود، بينما الشيخ الكبير الذي سقى موسى لبناته يصوره كتاب اللَّه فريدا وحيدا عاجزا عن القيام بشؤونه، ولذلك لجأ إلى تكليف بناته برعي غنمه وسقيها، وعندما يرد بناته ماء مدين يقفن منتظرات، من دون أن يبادر أحد من الرعاة الأشداء إلى مساعدتهن، اللهم إلا هذا الغريب وعابر السبيل الذي وفد من مصر إلى مدين ذات يوم، قبل أن ينبأ واسمه موسى، ولو كان الشيخ الكبير، الذي لقي موسى بناته، هو نفس النبي شعيب عليه السلام لما وكله رهطه والمؤمنون برسالته إلى نفسه، ولما

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٤٩).

(٢) هود الآية (٩١).

تركوا بناته يقمن بهذا العمل المضني، ولكان نبيهم هو أول من يسقون له ويرعون غنمه، ويقومون بخدمته، ولا سيما وهم يرون أنه بلغ سن الشيخوخة والكبر، الذي يعجز فيه أغلب الناس عن كثير من الأعمال، ويحتاجون إلى المزيد من البرور والإحسان.

ثانيًا: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما بعث اللّه نبيا إلا في منعة من قومه**»[1] وفي لفظ آخر: «**ما بعث اللّه نبيا إلا وهو في عز من قومه ومنعة في بلده**» رواه الإمام أحمد في مسنده. وهذا الحديث يتفق معناه مع الآية السابقة الواردة في سورة هود، التي تثبت أن لشعيب عليه السلام رهطا ينصرونه ويقفون بجانبه، وبذلك كان شعيب عليه السلام فعلا في عز من قومه ومنعة في بلده، بينما الشيخ الكبير، الذي لقي موسى بناته لما ورد ماء مدين، يصوره كتاب اللّه في عزلة تامة لا يأخذ بيده إلا بناته المحتشمات من دون غيرهن، ولا يأخذ بيدهن أحد، لولا المفاجأة التي حصلت لهن عند حلول موسى بأرض مدين.

ثالثًا: إن كتاب اللّه وضح في سور عديدة المآل الذي آل إليه أمر شعيب عليه السلام، بعد أن بذل كل جهوده في تبليغ الرسالة إلى قومه ومحاجته لهم، ولم يبق له أمل في إيمان الكثرة الساحقة منهم، وهو أنه تولى عنهم وفارقهم بالمرة، غير آسف عليهم ولا محزون، ووكلهم إلى عقاب اللّه وعذابه، فأصاب كفار مدين من العذاب ثلاثة ألوان: عذاب يوم الظلة؛ وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، وعذاب الصيحة التي جاءتهم من فوق رؤوسهم، وعذاب الرجفة التي جاءتهم من تحت أرجلهم، فزهقت منهم الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[2]. ومعنى هذا أن قوم مدين الذين أرسل اللّه إليهم أخاهم شعيبا فكفروا به بادوا وانقرضوا. وإذن فالأمة من الناس الذين وجدهم موسى يسقون لما ورد ماء مدين لا يمكن أن يكونوا هم قوم شعيب الذين عاقبهم اللّه وقطع دابرهم، ولا يعقل أن يكونوا من الفئة القليلة التي آمنت به، إذ لو كانوا من المؤمنين برسالة شعيب، وشعيب لا يزال حيًّا يرزق بين أظهرهم، لما أهملوا أمره وأمر أهله إلى هذا الحد، بل لا شك أنهم قوم آخرون عمروا هذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٣) والترمذي (٥/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٣١١٦) وصححه الحاكم (٢/ ٥٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هود الآية (٩٤).

المكان، واستقروا به بعد ذهاب أهله وانقراضهم، وانتهاء عصر شعيب ورسالته، ودخولهما في ذمة التاريخ.

رابعًا: على فرض أن النبي شعيبًا عليه السلام عاش ولم يفارق مدين حتى أدركه موسى، وأنه هو الذي استضافه وصاهره واستأجره، فقضى موسى بجانبه عشر سنوات كاملة، هل يعقل أن لا يتحدث كتاب اللّه عن عشرتهما الطويلة، والحال أن الأول نبي ورسول، والثاني مرشح في علم اللّه للنبوة والرسالة، إلا حديثا مقتضبا لا يتجاوز سبع آيات، من الآية ٢١ إلى الآية ٢٨ في هذا الثمن، ومن دون أن يمس في الصميم أي جانب من جوانب الدين الأساسية، التي طالما حاور شعيب قومه في شأنها، والتي سيحاور موسى في شأنها فرعون وملأه بعد فترة من الزمن، عندما يفارق مدين ويبعث من ربه رسولًا. بينما نجد كتاب اللّه يطيل النفس في الحديث عن لقاء موسى، بعد نبوءته، بعبد من عباد اللّه آتاه اللّه من لدنه علما، ويفصل القول في تسجيل حوارهما الممتع والمثير، ويصف المفاجآت التي فوجئ بها موسى من طرف محاوره الصالح الحكيم أدق وصف وأغربه. وها هي سورة الكهف شاهدة على ذلك، فقد خصصت للقائهما اثنتين وعشرين آية، من الآية ٦٠ إلى الآية ٨٢، هذا وموسى وقتئذ هو الرسول، ومحاوره إنما هو رجل صالح علمه اللّه ما لم يكن يعلم، وليس في عداد الأنبياء، ألا يدل هذا كله على أن الشيخ الكبير، الذي لقيه موسى بمدين، لم يكن هو النبي شعيبًا عليه السلام؟

خامسًا: إن كتاب اللّه عندما قص في سورة الأعراف قصة آدم في ست عشرة آية، أتبعها بقصص مجموعة من الأنبياء والمرسلين على التتابع، فبدأ بقصة نوح من قومه، التي استغرقت خمس آيات أولها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾[1]، ثم ثنى بقصة هود مع عاد، التي استغرقت سبع آيات أولها: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[2]، ثم ثلث بقصة صالح مع ثمود، التي استغرقت سبع آيات أيضًا أولها: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[3]، ثم ربع بقصة لوط مع قومه، التي استغرقت أربع آيات أولها: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾[4]، ثم خمس بقصة شعيب مع مدين، التي استغرقت ثمان

(١) الأعراف الآية (٥٩).
(٢) الأعراف الآية (٦٥).
(٣) الأعراف الآية (٧٣).
(٤) الأعراف الآية (٨٠).

آيات أولها: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[١]، وعقب على قصص هذه المجموعة من الرسل بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾[٢]، إلى قوله تعالى تعقيبا على الجميع، وإلحاقا بكل ما سبق من أخبار أولئك الرسل وأقوامهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[٣] واستغرقت قصة موسى التي جاءت مستقلة عما سبقها من قصص الرسل السابقين أربعا وخمسين آية. قال الزمخشري: الضمير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ للرسل أو للأمم، يعني الأمم التي أرسلوا إليها. وقال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات اللّه وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء اللّه أجمعين، ﴿مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ودلائلنا البينة، انتهى كلام ابن كثير. وقال علاء الدين المعروف بالخازن: قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ يعني ثم بعثنا بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم، وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه. انتهى كلام الخازن.

وبشهادة هذه الآية الصريحة الواردة في سورة الأعراف وتفسيرها البين يتضح لكل ذي عينين أن شعيبا عليه السلام كان سابقا على موسى، ولم يكن معاصرا له حتى يمكن أن يتم بينهما اللقاء، وإذن فالشيخ الكبير الذي آجر موسى وصاهره ليس هو بشعيب المعروف (بخطيب الأنبياء)، لكن الظاهر من حاله ومقاله أنه أحد الصالحين الأتقياء.

قال ابن كثير ما نصه[٤]: (قد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام، الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب، وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[٥]، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد

---

(١) الأعراف الآية (٨٥).
(٢) الأعراف الآية (١٠١).
(٣) الأعراف الآية (١٠٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٣٨-٢٣٩).
(٥) هود الآية (٨٩).

على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل: إن شعيبا عاش مدة طويلة إنما هو -واللَّه أعلم- احتراز من هذا الإشكال. ثم من الـمُقَوّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده).

ثم أشار ابن كثير إلى بعض الأقوال الأخرى التي حاولت تعيين الرجل الذي لقيه موسى، رغما عن إبهام القرآن لاسمه، وختم كلامه بما انفصل عليه ابن جرير الطبري[1] في الموضوع من دون أدنى اعتراض، إذ قال: (الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك)، وإذن، فلنقف عند حدود القرآن فيما أبهمه، ولم يثبت في شأنه أي بيان، واللَّه تعالى أعلم»[2].

قال السعدي: «وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيبا عليه السلام قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟

وأيضًا، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعيبا، لذكره اللَّه تعالى، ولَسَمَّته المرأتان، وأيضًا فإن شعيبا عليه الصلاة والسلام قد أهلك اللَّه قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ اللَّه المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، واللَّه أعلم، [إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ، واللَّه أعلم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عرض الإنسان ابنته على أهل الخير

* عن عبداللَّه بن عمر رضي الله عنهما: «أن عمر بن الخطاب حين تأيّمت حفصة بنت عمر من خُنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتوفي بالمدينة،

(١) جامع البيان (٢٠/ ٦٢-٦٣).
(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥١١-٥١٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٩-٢٠).

فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان فعرضتُ عليه حفصة فقال: سأنظر في أمري. فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليّ شيئًا، وكنت أَوْجَدَ عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي. ثم خطبها رسول اللَّه ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدتَ عليّ حين عرضتَ عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضتَ عليّ إلا أني كنت علمتُ أن رسول اللَّه ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول اللَّه ﷺ، ولو تركها رسول اللَّه ﷺ قبلتُها»[1].

★ غريب الحديث:

تأيّمت: بهمزة مفتوحة وتحتانية ثقيلة؛ أي: صارت أَيِّمًا، وهي التي يموت زوجها أو تبين منه وتنقضي عدتها. وأكثر ما تطلق على من مات زوجها.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه عرض الإنسان ابنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه، وأنه لا استحياء في ذلك، وفيه أنه لابأس بعرضها عليه ولو كان متزوجا لأن أبا بكر كان حينئذ متزوجا»[2].

وقال العيني: «فيه أن من عرض عليه ما فيه الرغبة فله النظر والاختيار، وعليه أن يخبر بعد ذلك بما عنده لئلا يمنعها من غيره، لقول عثمان بعد ليال: قد بدا لي أن لا أتزوج. وفيه الاعتذار اقتداء بعثمان في مقالته هذه»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صالح مدين

* عن أنس رضي الله عنه قال: «**لما دعا موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولد، فعمد فرفع حبالًا على الماء، فلما**

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧) والبخاري (٩/ ٢١٨-٢١٩/ ٥١٢٢) والنسائي (٦/ ٣٨٦/ ٣٢٤٨).
(٢) فتح الباري (٩/ ٢٢١-٢٢٢).
(٣) عمدة القاري (١٤/ ٧٢).

رأت الحبال فزعت فجالت جولة، فولدن كلهن بُلقًا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام»[١].

★ **غريب الحديث:**

جالت: طافت ودارت.

بلقا: سواد وبياض.

* عن سعيد بن جبير قال: «**سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث ما يدل على أن موسى عليه السلام احترز في نطقه بما لو قضى معه أدنى الأجلين لم يكن مخالفا لما وعد به، ثم إنه قضى الأفضل، فجمع في ذلك بين احترازه لقوله وبين وفائه بأكمل وعديه؛ وذلك أن هذه الآيات مما تدل على أن القرآن قول فصل وليس بالهزل»[٣].

قال الحافظ: «والغرض من ذكر هذا الحديث في هذا الباب -قلت: بوب عليه البخاري -رحمه اللّه تعالى-: باب من أمر بإنجاز الوعد- بيان توكيد الوفاء بالوعد، لأن موسى ﷺ لم يجزم بوفاء العشر، ومع ذلك فوفاها فكيف لو جزم. قال

---

(١) أخرجه: أبو يعلى (٥/ ٢٨٥-٢٨٦/ ٢٩٠٧) وابن جرير الطبري (٢٠/ ٦٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٥٠) وقال: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح». وقال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٢٤٣): «هذا إسناد جيد».

(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ٣٦٢-٣٦٣/ ٢٦٨٤)، قال ابن حجر في الفتح (٥/ ٣٦٤): «كذا رواه سعيد بن جبير موقوفًا وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب..». ورواه مرفوعا: الحميدي (١/ ٢٤٥-٢٤٦/ ٥٣٥) وابن جرير (٢٠/ ٦٨) والبيهقي (٦/ ١١٧) وصححه الحاكم (٢/ ٤٠٧) وتعقبه الذهبي بقوله: «إبراهيم بن يحيى لا يعرف». قال الشيخ الألباني في الصحيحة (١٨٨٠): «لكن الحديث رواه البزار من حديث أبي ذر أيضا وعتبة بن النذر، وابن جرير من مرسل محمد بن كعب القرظي ومجاهد. فهذه طرق متعاضدة كما قال ابن كثير في نفسيره (٦/ ٣٣٥)، فالحديث بها قوي».

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ١٧٠).

ابن الجوزي: لما رأى موسى عليه السلام طمع شعيب عليه السلام[١] متعلقا بالزيادة لم يقتض كريم أخلاقه أن يخيب ظنه فيه»[٢].

* * *

(١) تقدم تحقيق القول في ذلك.
(٢) الفتح (٥/ ٣٦٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

آنس: أبصر.

الجذوة: القطعة الملتهبة من الحطب. جمعها: جُذىً.

تصطلون: تستدفئون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أن موسى ﷺ قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأتقاهما، وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي الأكمل منهما، واللَّه أعلم.. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلا، فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئًا، فتعجب من ذلك فبينما هو كذلك ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ﴾ أي: رأى نارا تضيء له على بعد ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بها من البرد»[1].

قال المكي الناصري: «ينتقل كتاب اللَّه من الحديث عن إقامة موسى بين ظهراني أهل مدين، حيث عقد مع شيخ مدين الكبير عقدا للزواج بابنته، وعقدا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٣-٢٤٤).

للإجارة والقيام بخدمته، إلى الحديث عن وفائه بكلا العقدين، وتأهبه للعودة إلى مسقط رأسه قرير العين، فها هو يغادر أرض مدين يسير بأهله في رفقته، بعدما قضى أتم الأجلين وأوفاهما في خدمة صهره ووالد زوجته، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾. ومن حكمة اللَّه وقدره العجيب أن الطقس كان باردا يتوقف على التدفئة، وأن الجو كان قاتما يتوقف على الإنارة، فاحتاج موسى إلى نور ونار، وبينما هو كذلك ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي رأى نارا تضيء على بعد، وكان في رؤيته لها نوع أنس ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾»[1].

قال ابن العربي: «دليل على أن للرجل أن يذهب بأهله حيث شاء، لما له عليها من فضل القوامية، وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم لها أمرا فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج.

قال علماؤنا: لما قضى موسى الأجل طلب الرجوع إلى أهله، وحن إلى وطنه، وفي الرجوع إلى الأوطان تقتحم الأغرار، وتركب الأخطار، وتعلل الخواطر، ويقول: لما طالت المدة لعله قد نسيت التهمة، وبليت القصة»[2].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٢-٥٢٣).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤٨١-١٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

★ غريب الآية:

شاطئ الوادي: جانبه، وهو الشط. جمعه شواطئ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[1] فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف[2] الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتا في أمرها فناداه ربه ﴿مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه»[3].

قال ابن أبي العز الحنفي: «وما أفسد استدلالهم -أي المعتزلة- بقوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾. على أن الكلام خلقه اللَّه تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها! وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن اللَّه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى ﷺ النداء من حافة الوادي، ثم قال: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أي: أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما يقول

(١) القصص الآية (٤٤).
(٢) لحف: بكسر اللام وسكون الحاء المهملة: أصل الجبل.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٤).

سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم! ولو كان الكلام مخلوقا في الشجرة، لكانت الشجرة هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهل قال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، غير رب العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدا من غير اللَّه لكان قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١] صدقا، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله! وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة: أن ذاك كلام خلقه اللَّه في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون!! فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقا غير الله»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النداء الإلهي

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل إن اللَّه قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء إن اللَّه قد أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض**»[٣].

* عن عبد اللَّه بن أنيس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة -أو قال العباد- عراة غرلا بهمًا**. قال: قلنا: وما بهما؟ قال: **ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة**. قال: قلنا: كيف؟ وإنا إنما نأتي اللَّه عز وجل عراة غرلا بهما. قال: **بالحسنات والسيئات**»[٤].

★ فوائد الحديثين:

قال البخاري: «وذكر عن النبي ﷺ أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض

---

(١) النازعات الآية (٢٤). (٢) شرح الطحاوية (١٧٤-١٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٤) والبخاري (١٣/ ٥٦٤/ ٧٤٨٥) ومسلم (٤/ ٢٠٣٠/ ٢٦٣٧) والترمذي (٥/ ٢٩٧-٢٩٨/ ٣١٦١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٦/ ٧٧٤٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٥) والبخاري (١٣/ ٥٥٥) معلقا ووصله في الأدب المفرد (٩٧٠) والحاكم (٢/ ٤٣٧) وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

الصوت ويكره أن يكون رفيع الصوت، وإن اللَّه ﷻ ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير اللَّه جل ذكره قال أبو عبدالله: وفي هذا دليل أن صوت اللَّه لا يشبه أصوات الخلق لأن صوت اللَّه جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا وقال ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[1] فليس لصفة اللَّه ند ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين»[2].

قال شيخ الإسلام: «أخبر اللَّه تعالى في القرآن بندائه لعباده في أكثر من عشرة مواضع، والنداء لا يكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة وسائر الناس، واللَّه أخبر أنه نادى موسى حين جاء الشجرة فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨﴾[3] ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾[4] ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[5] ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠﴾[6] ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾[7] ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾[8] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[9] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾[10] في موضعين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾[11] ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾[12].

فمن قال: إنه لم يزل مناديا من الأزل إلى الأبد فقد خالف القرآن والعقل، ومن قال: إنه بنفسه لم يناد، ولكن خلق نداء في شجرة أو غيرها لزم أن تكون الشجرة هي القائلة: إني أنا اللَّه. وليس هذا كقول الناس نادى الأمير إذ أمر مناديا؛ فإن المنادي عن الأمير يقول: أمر الأمير بكذا، ورسم السلطان بكذا، لا يقول أنا أمرتكم، ولو قال ذلك لأهانه الناس. والمنادي قال لموسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾[13] ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[14] وهذا لا يجوز أن يقوله ملك إلا إذا

---

(١) البقرة الآية (٢٢).
(٢) خلق أفعال العباد (١٣٧).
(٣) النمل الآية (٨).
(٤) طه الآيتان (١١و١٢).
(٥) القصص الآية (٣٠).
(٦) الشعراء الآية (١٠).
(٧) مريم الآية (٥٢).
(٨) النازعات الآيتان (١٥و١٦).
(٩) القصص الآية (٤٦).
(١٠) القصص الآية (٦٢) والآية (٧٤).
(١١) القصص الآية (٦٥).
(١٢) الأعراف الآية (٢٢).
(١٣) طه الآية (١٤).
(١٤) القصص الآية (٣٠).

بلغه عن اللّه، كما نقرأ نحن القرآن، والملك إذا أمره اللّه بالنداء قال كما ثبت في الصحيح[١] عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أحب اللّه عبدا نادى جبريل إني أحب فلانا فأحبه، ثم ينادي جبريل في السماء إن اللّه يحب فلانا فأحبوه. فجبريل إذا نادى في السماء قال: إن اللّه يحب فلانا فأحبوه، واللّه إذا نادى جبريل يقول: يا جبريل إني أحب فلانا**». ولهذا لما نادت الملائكة زكريا قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[٢] وقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾[٣].

ولا يجوز قط لمخلوق أن يقول إني أنا اللّه رب العالمين، ولا يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له. واللّه تعالى إذا خلق صفة في محل كان المحل متصفا بها، فإذا خلق في محل علما أو قدرة أو حياة أو حركة أو لونا أو سمعا أو بصرا كان ذلك المحل هو العالم به القادر المتحرك الحي المتلون السميع البصير، فإن الرب لا يتصف بما يخلقه في مخلوقاته، وإنما يتصف بصفاته القائمة به، بل كل موصوف لا يوصف إلا بما يقوم به لا بما يقوم بغيره ولم يقم به.

فلو كان النداء مخلوقا في الشجرة لكانت هي القائلة: إني أنا اللّه، وإذا كان ما خلقه الرب في غيره كلاما له وليس له كلام إلا ما خلقه لزم أن يكون إنطاقه لأعضاء الإنسان يوم القيامة كلاما له، وتسبيح الحصى كلاما له، وتسليم الحجر على الرسول كلاما له؛ بل يلزم أن يكون كل كلام في الوجود كلامه؛ لأنه قد ثبت أنه خالق كل شيء وهكذا طرد قول الحلولية الإتحادية كابن عربي فإنه قال:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ولهذا قال سليمان بن داود الهاشمي من قال: إن قوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾[٤] مخلوق فقوله من جنس قول فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٥] فإن هذا مخلوق وهذا مخلوق، يقول: إن هذا يوجب أن يكون ما خلق فيه هذا القول هو القائل له، كما كان فرعون هو القائل لما قام به»[٦].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) آل عمران الآية (٣٩).

(٣) آل عمران الآية (٤٢).

(٤) طه الآية (١٤).

(٥) النازعات الآية (٢٤).

(٦) منهاج السنة النبوية (٥/ ٤٢٣-٤٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

★ غريب الآية:

لم يعقب: لم يرجع على عقبه ولم يلتفت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: نودي موسى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها موسى فصارت حية تسعى ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ موسى ﴿تَهْتَزُّ﴾ يقول: تتحرك وتضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجان: واحد الجنان وهي نوع معروف من أنواع الحيات وهي منها عظام، ومعنى الكلام: كأنها جان من الحيات ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ يقول: ولى موسى هاربا منها.. وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ يقول تعالى ذكره: فنودي موسى: يا موسى أقبل إلي ولا تخف من الذي تهرب منه ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ من أن يضرك إنما هو عصاك»[(١)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[(٢)] والمعنى أما هذه عصاك التي تعرفها ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[(٣)] فعرف وتحقق أن الذي يخاطبه ويكلمه هو الذي يقول للشيء: (كن فيكون) كما تقدم بيان ذلك في سورة طه. وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: في حركتها السريعة.. فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك فلما قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٧٢).
(٢) طه: الآيتان (١٧و١٨).
(٣) طه: الآيتان (١٩و٢٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٤-٢٤٥).

قال السعدي: « ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تسعى سعيا شديدا، ولها سورة مهيلة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ذكر الحيات العظيم، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: يرجع، لاستيلاء الروع على قلبه، فقال اللَّه له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَامِنِينَ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿أَقْبِلْ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل في الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَامِنِينَ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنا، واثقا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه اللَّه إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون أجرأ له، وأقوى وأصلب»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢١).

قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

اسلك: أدخل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم قال اللَّه تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير برص. وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية. والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء اللَّه تعالى وبه الثقة.. وقوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة اللَّه مخالفين لدين الله»[1].

قال المكي الناصري: «ثم يدعوه الحق جل جلاله إلى أن يضبط نفسه ويتجلد، ويسلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٥).

مسلك أولي العزم من الرسل، فلا يجزع ولا يخاف، لأن العناية الإلهية ستحيطه كما أحاطتهم بخفي الألطاف، وهذا ما يشير إليه الخطاب الإلهي الموجه إلى موسى إذ يقول: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾.

ثم كشف الخطاب الإلهي عن السر فيما آتاه اللَّه لموسى الكليم، من الرعاية والتكريم، إذ قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾، إشارة إلى أن تحويل عصا موسى بأمر اللَّه إلى حية تسعى في الوقت المناسب، وتحويل يده من حالتها الطبيعية إلى يد بيضاء تتلألأ، لها شعاع وبريق، إنما هما برهانان على صدق رسالته، وصحة نبوته، أكرمه اللَّه بهما ليتغلب على عناد فرعون ومغالطته، عندما يقبل على مخاطبته، ويتوجه إليه بدعوته، وعقب كتاب اللَّه على هذا القرار الإلهي الحكيم بأن فرعون وملأه قد جاوزوا الحدود في تصرفاتهم ومعاملاتهم وحياتهم الخاصة والعامة، فلا بد من أن يوجه إليهم الإنذار الأخير، قبل الأعذار وسوء المصير ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾»[١].

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل لجملة: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾ لتضمنها أنهم بحيث يقرعون بالبراهين، فبين أن سبب ذلك تمكن الكفر من نفوسهم حتى كان كالجبلة فيهم، وبه قوام قوميتهم لما يؤذن به قوله: ﴿كَانُوٓاْ﴾. وقوله: ﴿قَوۡمٗا﴾ كما تقدم في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[٢] في سورة البقرة. والفسق: الإشراك بالله»[٣].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٤).

(٢) البقرة: الآية (١٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

رِدْءًا: أي معينًا. والرِّدْءُ في الحقيقة التابع لغيره، المعينُ له.

سنشد: سنقويك، سنعينك.

سلطانا: حجة وبرهانا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما أمره اللَّه تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فرارا منه وخوفا من سطوته ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي إذا رأوني ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة.. فحصل فيه شدة في التعبير ولهذا قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾[1] أي يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم؛ وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد، ولهذا قال: ﴿أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي وزيرًا ومعينًا ومقويًا لأمري يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن اللَّه عز وجل؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه

---

(١) طه الآيات (٢٧-٣٢).

يفهم ما لا يفهمون، فلما سأل ذلك موسى قال اللَّه تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبيا معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾(٢) ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام؛ فإنه شفع فيه حتى جعله اللَّه نبيا ورسولا معه إلى فرعون وملائه، ولهذا قال تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات اللَّه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾(٥) أي وكفى باللَّه ناصرا ومعينا ومؤيدا، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والاخرة فقال تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾(٦) وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾(٧). ووجه ابن جرير على أن المعنى: ونجعل لكما سلطانًا فلا يصلون إليكما ثم يبتدىء فيقول: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، واللَّه أعلم»(٨).

قال السعدي: «﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام معتذرا من ربه، وسائلا له المعونة على ما حمله، وذاكرا له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها. ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أي: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ أي: معاونًا ومساعدًا ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق،

(١) طه الآية (٣٦).
(٢) مريم الآية (٥٣).
(٣) الأحزاب الآية (٦٩).
(٤) المائدة الآية (٦٧).
(٥) الأحزاب الآية (٣٩).
(٦) المجادلة الآية (٢١).
(٧) غافر الآيتان (٥١و٥٢).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٥-٢٤٧).

فأجابه اللَّه إلى سؤاله فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نعاونك به ونقويك.

ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: تسلطا، وتمكنا من الدعوة، بالحجة، والهيبة الإلهية من عدوهما لهما، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم، وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي العدد والعدد.

﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعد ما كان شريدا، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز اللَّه له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور»[1].

قال ابن عاشور: «محل العبرة من هذا الجزء من القصة التنبيه إلى أن الرسالة فيض من اللَّه على من اصطفاه من عباده، وأن رسالة محمد ﷺ كرسالة موسى جاءته بغتة فنودي محمد في غار جبل حراء كما نودي موسى في جانب جبل الطور، وأنه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى، وأن اللَّه ثبته كما ثبت موسى، وأن اللَّه يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه»[2].

قال المكي الناصري: «وتهدئة لروع موسى وتأمينا له من كل خوف تعهد الحق ﷻ برعايته ورعاية أخيه، وحمايتهما من كل أذى، وبشرهما بأن الغلبة في النهاية ستكون عاقبة فرعون وملئه، وهذا التعهد الإلهي النافذ هو ما نطق به قول اللَّه تعالى في نفس السياق: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾»[3].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٢-٢٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١٨).
(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فلما جاء موسى فرعون وملأه بأدلتنا وحججنا بينات أنها حجج شاهدة بحقيقة ما جاء به موسى من عند ربه، قالوا لموسى: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرا افتريته من قبلك وتخرصته كذبا وباطلا ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي تدعونا إليه من عبادة من تدعونا إلى عبادته في أسلافنا وآبائنا الأولين الذي مضوا قبلنا»[١].

قال السعدي: «ذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء. ﴿قَالُوٓاْ﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾[٢] هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه اللّه علينا وقد علم ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن اللّه أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[٤]»[٥].

قال ابن عاشور: «طوي ما بين نداء اللّه إياه وبين حضوره عند فرعون من

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٧٦).
(٢) طه الآية (٧١) والشعراء الآية (٤٩).
(٣) الإسراء الآية (١٠٢).
(٤) غافر الآية (٣٤).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٣-٢٤).

الأحداث لعدم تعلق العبرة به. وأسند المجيء بالآيات إلى موسى ﷺ وحده دون هارون؛ لأنه الرسول الأصلي الذي تأتي المعجزات على يديه، بخلاف قوله: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في سورة الشعراء وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ إذ جعل تعلق الآيات بضميريها؛ لأن معنى الملابسة معنى متسع، فالمصاحب لصاحب الآيات هو ملابس له.

والآيات البينات هي خوارق العادات التي أظهرها؛ أي: جاءهم بها آية بعد أية في مواقع مختلفة، قالوا عند كل آية: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾. والمفترى: المكذوب. ومعنى كونها سحرا مكذوبا أنه مكذوب ادعاء أنه من عند اللّه وإخفاء كونه سحرًا.

والإشارة في قول: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ إلى ادعاء الرسالة من عند الله؛ لأن ذلك هو الذي يسمع، وأما الآيات فلا تسمع. فمرجع اسمي الإشارة مختلف، أي ما سمعنا من يدعو آباءنا إلى مثل ما تدعو إليه، فالكلام على حذف مضاف دل عليه حرف الظرفية، أي في زمن آبائنا. وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آبائهم حتى تصل إليهم بواسطة آبائهم الأولين دليلًا على بطلانها، وذلك آخر ملجأ يلجأ إليه المحجوج المغلوب حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول، فيفزع إلى مثل هذه التلفيقات والمباهتات»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٠/١١٨-١١٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٣٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ مجيبا لفرعون ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ بالمحق منا يا فرعون من المبطل، ومن الذي جاء بالرشاد إلى سبيل الصواب والبيان عن واضح الحجة من عنده، ومن الذي له العقبى المحمودة في الدار الآخرة منا، وهذه معارضة من نبي اللّه موسى عليه السلام لفرعون وجميل مخاطبة، إذ ترك أن يقول له: بل الذي غر قومه وأهلك جنوده وأضل أتباعه أنت لا أنا ولكنه قال: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ﴾ ثم بالغ في ذم عدو اللّه بأجمل من الخطاب فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول: إنه لا ينجح ولا يدرك طلبتهم الكافرون باللّه تعالى، يعني بذلك فرعون أنه لا يفلح ولا ينجح لكفره به»[1].

قال السعدي: « ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ﴾ أي: إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأبيتم إلا التمادي في غيكم واللجاج على كفركم، فاللّه تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك»[2].

قال المكي الناصري: «وهذه لهجة خالية من المباهاة والعناد، مرغوب في استعمالها عند القيام بالدعوة والإرشاد»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٧٦-٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٤).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

★ غريب الآية:

صرحًا: الصرح: البناء العالي كالقصر وغيره، أصله من الظهور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة لعنه اللَّه كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1] وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وقال تعالى إخبارا عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[2] يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مصرحًا لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم اللَّه تعالى منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[3].

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يعني أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين يعني يتخذ له آجرا لبناء الصرح؛ وهوالقصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ

(١) الزخرف الآية (٥٤).
(٢) النازعات الآيات (٢٣-٢٦).
(٣) الشعراء الآية (٢٩).

﴿فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ٣٧﴾[1] وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي في قوله: إن ثم ربا غيري، لا أنه كذبه في أن اللَّه تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع -جل وعلا- فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2] وقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[3] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير»[4].

قال السعدي: « ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجرئا على ربه، ومموها على قومه السفهاء، ضعفاء العقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون!، حيث لم يقل: (ما لكم من إله غيري) بل تورع وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة، التي قد تحتمل أن ثم إلها غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لهامان: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له لبنا من فخار. ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أي: بناء عاليا ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على اللَّه، التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشئونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم، فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»[5].

---

(١) غافر الآيتان (٣٦و٣٧).
(٢) الشعراء الآية (٢٣).
(٣) الشعراء الآية (٢٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٧-٢٤٨).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٤-٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

★ غريب الآية:

نبذناهم: النبذ: الطرح والإلقاء. يقال: نبذه: إذا رماه وطرحه. وفي المثل: نَبَذَهُ نَبْذَ النَّعْلِ الخَلِقِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر عن تصديق موسى واتباعه على ما دعاهم إليه من توحيد اللَّه والإقرار بالعبودية له ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يعني تعديا وعتوا على ربهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ يقول: وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ولا ثواب ولا عقاب فركبوا أهواءهم، ولم يعلموا أن اللَّه لهم بالمرصاد وأنه لهم مجاز على أعمالهم الخبيثة، وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ يقول تعالى ذكره: فجمعنا فرعون وجنوده من القبط ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يقول: فألقيناهم جميعهم في البحر فغرقناهم فيه كما قال أبو الأسود الدؤلي:

نظرت إلى عنوانه فنبذته ... كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

وقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فانظر يا محمد بعين قلبك: كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بربهم وردوا على رسوله نصيحته ألم نهلكهم فنورث ديارهم وأموالهم أولياءنا، ونخولهم ما كان لهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم بعد أن كانوا مستضعفين تقتل أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، فإنا كذلك بك وبمن آمن بك وصدقك فاعلون مخولوك وإياهم ديار من كذبك ورد عليك ما أتيتهم به من الحق وأموالهم، ومهلكوهم قتلا بالسيف، سنة

اللَّه في الذين خلوا من قبل»[١].

قال السعدي: «قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد اللَّه، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل اللَّه، وما جاءوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فلذلك تجرأوا، وإلا فلو علموا أو ظنوا أنهم يرجعون إلى اللَّه لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة، أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية»[٢].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتبار بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر، وظلمهم الرسول بالاستكبار عن سماع دعوته. وهذا موضع العبرة من سوق هذه القصة ليعتبر بها المشركون فيقيسوا حال دعوة محمد ﷺ بحال دعوة موسى عليه السلام، ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، فيوقنوا بأن ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة. وهذا من جملة محل العبرة بهذا الجزء من القصة ابتداء من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ ليعتبر الناس بأن شأن أهل الضلالة واحد، فإنهم يتلقون دعاة الخير بالإعراض والاستكبار، واختلاق المعاذير، فكما قال فرعون وقومه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالت قريش: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[٣] وقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾[٤] أي: التي أدركناها.

وكما طمع فرعون أن يبلغ إلى اللَّه استكبارا منه في الأرض سأل المشركون ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[٥]، وظنوا أنهم لا يرجعون إلى اللَّه كما ظن أولئك فيوشك أن يصيبهم من الاستئصال ما أصاب أولئك»[٦].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٧٨-٧٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٦).
(٣) الأنبياء الآية (٥).
(٤) ص الآية (٧).
(٥) الفرقان الآية (٢١).
(٦) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٥-١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

المقبوحين: المبعدين. يقال: قبحه اللَّه؛ أي: أبعده. والقبح: الإبعاد. وقيل: قبحه، فهو مقبوح؛ أي: أهلكه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا فرعون وقومه أئمة يأتم بهم أهل العتو على اللَّه والكفر به يدعون الناس إلى أعمال أهل النار ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: ويوم القيامة لا ينصرهم اللَّه إذا عذبهم ناصر[1]، وقد كانوا في الدنيا يتناصرون، فاضمحلت تلك النصرة يومئذ، وقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيا وغضبا منا عليهم، فحتمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيء، ونحن متبعوهم لعنة أخرى يوم القيامة فمخزوهم بها الخزي الدائم، ومهينوهم الهوان اللازم.. وقوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: هم من القوم الذين قبحهم اللَّه فأهلكهم بكفرهم بربهم وتكذيبهم رسوله موسى ﷺ فجعلهم عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين»[2].

قال السعدي: «أي جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من عذاب اللَّه، فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون اللَّه من ولي ولا نصير.

---

(١) كذا بالأصل، ويستقيم المعنى إذا قلنا: ويوم القيامة لا ينصرهم إذا عذبهم اللهُ ناصرٌ. واللَّه أعلم.

(٢) جامع البيان (٢٠/ ٧٩).

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وأتبعناهم، زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم، الذين اجتمع عليهم مقت اللَّه، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم»[١].

قال ابن عاشور: «عطف على جملة ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: استكبروا فكانوا ينصرون الضلال، ويبثونه أي: جعلناه وجنوده أئمة للضلالة المفضية إلى النار فكأنهم يدعون إلى النار، فكل يدعو بما تصل إليه يده؛ فدعوة فرعون أمره ودعوة كهنته باختراع قواعد الضلالة وأوهامها، ودعوة جنوده بتنفيذ ذلك والانتصار له»[٢].

قال شيخ الإسلام: «وقد ذكر اللَّه في كتابه الفرق بين الارادة والأمر والقضاء والاذن والتحريم والبعث والارسال والكلام والجعل بين الكوني الذى خلقه وقدره وقضاه وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين، وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأثاب عليه وأكرمهم وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين. وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء اللَّه وأعدائه. فمن استعمله الرب ﷻ فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه. . وأما لفظ الجعل فقال في الكوني: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وقال في الديني: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣] وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[٤]»[٥].

وانظر كلام ابن القيم -رحمه اللَّه تعالى-[٦].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٦-٢٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٦).
(٣) المائدة الآية (٤٨).
(٤) المائدة الآية (١٠٣).
(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٥-٢٧٠).
(٦) شفاء العليل (٢/ ٢٨٧-٢٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: ضياء لبني إسرائيل فيما بهم إليه الحاجة من أمر دينهم ﴿وَهُدًى﴾ يقول: وبيانا لهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن عمل به منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يقول: ليتذكروا نعم اللَّه بذلك عليهم فيشكروه عليها ولا يكفروا»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم من إنزال التوارة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوارة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء اللَّه من المشركين كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾[2].. وقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي من العمى والغي ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: إرشادا إلى العمل الصالح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعل الناس يتذكرون به، ويهتدون بسببه»[3].

قال ابن عاشور: «المقصود من الآيات السابقة ابتداء من قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ﴾ إلى هنا الاعتبار بعاقبة المكذبين القائلين ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ليقاس النظير على النظير، فقد كان المشركون يقولون مثل ذلك يريدون إفحام الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه لو كان اللَّه أرسله حقًّا لكان أرسل إلى الأجيال

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٧٩-٨٠).

(٢) الحاقة الآيتان (٩و١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٨-٢٤٩).

من قبله، ولما كان اللَّه يترك الأجيال التي قبلهم بدون رسالة رسول ثم يرسل إلى الجيل الأخير، فكان قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إتمام لتنظير رسالة محمد ﷺ برسالة موسى عليه السلام في أنها جاءت بعد فترة طويلة لا رسالة فيها، مع الإشارة إلى أن سبق إرسال الرسل إلى الأمم شيء واقع بشهادة التواتر، وأنه قد ترتب على تكذيب الأمم رسلهم إهلاك القرون الأولى، فلم يكن ذلك موجبا لاستمرار إرسال الرسل متعاقبين، بل كانوا يجيئون في أزمنة متفرقة؛ فإذا كان المشركون يحاولون بقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إبطال رسالة محمد ﷺ بعلة تأخر زمانها سفسطة ووهما، فإن دليلهم مقدوح فيه بقادح القلب بأن الرسل قد جاءوا إلى الأمم من قبل ثم جاء موسى بعد فترة من الرسل.

وقد كان المشركون لما بهرهم أمر الإسلام لاذوا باليهود يسترشدونهم في طرق المجادلة الدينية، فكان المشركون يخلطون ما يلقنهم اليهود من المغالطات بما استقر في نفوسهم من تضليل أئمة الشرك فيأتون بكلام يلعن بعضه بعضًا، فمرة يقولون: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو من مجادلات الأميين، ومرة يقولون: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾[1] وهو من تلقين اليهود، ومرة يقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[2] فكان القرآن يدمغ باطلهم بحجة الحق بإلزامهم تناقض مقالاتهم. وهذه الآية من ذلك، فهي حجة بتنظير رسالة محمد برسالة موسى عليهما الصلاة والسلام، والمقصود منها ذكر القرون الأولى. وأما ذكر إهلاكهم فهو إدماج للنذارة في ضمن الاستدلال. وجملة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ تخلص من قصة بعثة موسى عليه السلام إلى تأييد بعثة محمد ﷺ. والمقصود قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بركة إنزال الكتب من السماء لأنها هدى ورحمة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أهلك اللَّه قومًا**

(١) القصص الآية (٤٨). (٢) الأنعام الآية (٩١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٧-١٢٨).

ولا قرنًا ولا أمةً، ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾»[1].

★ **فوائد الحديث:**

بيان فضل وشرف التوراة ومن أنزلت عليه وهو موسى كليم الرحمن -عليه الصلاة والسلام-.

قال البقاعي: «ووقتها -أي: إنزال التوراة- بالهلاك إشارة إلى أنه لا يعم أمة من الأمم بالهلاك بعد إنزالها تشريفًا لها ولمن أنزلت عليه أو وصلت إليه»[2].

وفيه «دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام وشرع جهاد الكفار بالسيف»[3].

وقوله في هذا الحديث: «**غير القرية التي مسخت قردة**» فالمراد به الذين تعدوا في السبت، وهذا التعذيب كان بسبب ترك شرع موسى، فكأنه لا ينقض فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأرض[4].

* * *

(١) أخرجه مرفوعًا: البزار (كشف الأستار ٣/ ٦٤-٦٥/ ٢٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٤٠٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه موقوفًا عن أبي سعيد الخدري ﷺ: ابن جرير (٢٠/ ٨٠)، والبزار (كشف الأستار ٣/ ٦٤/ ٢٢٤٧)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٨) وقال: «رواه البزار موقوفًا ومرفوعًا ولفظه: «**ما أهلك تبارك وتعالى قومًا بعذاب من السماء والأرض إلا بعدما أنزلت التوراة يعني ما مسخت قرية**». ورجالهما رجال الصحيح».

(٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٠١).

(٣) من كلام السعدي في التفسير (٦/ ٢٨).

(٤) أفاد معناه ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

ثاويًا: الثواء: الإقامة. يقال: ثوى بالمكان: أقام به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئًا من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(١) أي: ما كنت حاضرا لذلك، ولكن اللّه أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء اللّه له، وإغراق قومه، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾(٢)، وقال في آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾(٣)، وقال بعد ذكر قصة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾(٤)، وقال في سورة طه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾(٥)، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء اللّه إليه وتكليمه له ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ يعني يا محمد ما كنت بجانب الجبل الغربي

---

(١) آل عمران الآية (٤٤).
(٢) هود الآية (٤٩).
(٣) هود الآية (١٠٠).
(٤) يوسف الآية (١٠٢).
(٥) طه الآية (٩٩).

الذي كلم اللَّه موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾ لذلك ولكن اللَّه ﷻ أوحى إليك ذلك ليجعله حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج اللَّه عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: وما كنت مقيما في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك إلى الناس رسولا»(١).

قال السعدي: «ولما قص اللَّه على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾؛ أي: بجانب الطور الغربي إذ قضائنا لموسى الأمر ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فاندرس العلم، ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مقيما ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى، أثر من آثار إرسالنا إياك، ووحي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا»(٢).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذكر اللَّه أي عهده وأمره، نظيره: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٣) وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا ﷺ ذكر في ذلك الوقت، وأن اللَّه سيبعثه، ولكن طالت المدة، وغلبت القسوة، فنسى القوم ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود ثم تطاول العهد فكفروا فأرسلنا محمدا مجددا للدين، وداعيا الخلق إليه»(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٤٩-٢٥٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٨).
(٣) الحديد الآية (١٦).
(٤) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وما كنت يا محمد بجانب الجبل إذ نادينا موسى بأن ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[1].. الآية. وقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يقول تعالى ذكره: لم تشهد شيئًا من ذلك يا محمد فتعلمه، ولكنا عرفناكه، وأنزلنا إليك، فاقتصصنا ذلك كله عليك في كتابنا، وابتعثناك بما أنزلنا إليك من ذلك رسولا إلى من ابتعثناك إليه من الخلق رحمة منا لك ولهم.. وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولكن أرسلناك بهذا الكتاب وهذا الدين لتنذر قوما لم يأتهم من قبلك نذير؛ وهم العرب الذين بعث إليهم رسول اللَّه ﷺ، بعثه اللَّه إليهم رحمة لينذرهم بأسه على عبادتهم الأصنام وإشراكهم به الأوثان والأنداد.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يقول: ليتذكروا خطأ ما هم عليه مقيمون من كفرهم بربهم فينيبوا إلى الإقرار لله بالوحدانية، وإفراده بالعبادة دون كل ما سواه من الآلهة»[2].

قال ابن كثير: «قال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى وهذا -واللَّه أعلم- أشبه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾[4] وقال

(١) الأعراف الآيتان (١٥٦و١٥٧).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ٨١-٨٢).
(٣) الشعراء الآية (١٠).
(٤) النازعات الآية (١٦).

تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي ما كنت مشاهدا لشيء من ذلك ولكن اللَّه تعالى أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من اللَّه ﷻ»[٢].

قال السعدي: « ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويريهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك. والمقصود: أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها، فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول اللَّه، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علم وتيقن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.

فتعين الأمر الثاني، وهو: أن هذا جاءك من قبل اللَّه ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك، ورحمة اللَّه بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: العرب وقريش، فإن الرسالة [عندهم] لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمان متطاولة، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه، فإذا كنت بهذه المنزلة، كان الواجب عليهم المبادرة إلى الإيمان بك، وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها، ولا يدرك شكرها.

وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي نزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلا ولغيرهم تبعا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[٣]

---

(١) مريم الآية (٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٠).

(٣) يونس الآية (٢).

﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن عاشور: «والقوم: قريش والعرب، فهم المخاطبون ابتداء بالدين، وكلهم لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ، وأما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلة قريش موجودة يومئذ ولا قبائل العرب العدنانية، وأما القحطانية فلم يرسل إليهم إبراهيم؛ لأن اشتقاق نسب قريش كان من عدنان، وعدنان بينه وبين إسماعيل قرون كثيرة. وإنما اقتصر على قريش أو على العرب دون سائر الأمم التي بعث إليها النبي ﷺ؛ لأن المنة عليهم أوفى إذ لم تسبق لهم شريعة من قبل، فكان نظامهم مختلا غير مشوب بإثارة من شريعة معصومة فكانوا في ضرورة إلى إرسال نذير وللتعريض بكفرانهم هذه النعمة. وليس في الكلام ما يقتضي تخصيص النذارة بهم، ولا ما يقتضي أن غيرهم ممن أنذرهم محمد ﷺ لم يأتهم من قبله مثل اليهود والنصارى وأهل مدين، وفي قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ مع قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ إشارة إلى أنهم بلغوا بالكفر حدا لا يتجاوزه حلم اللَّه تعالى»[(٣)].

قال المكي الناصري: «وبعدما تلا كتاب اللَّه على رسوله الأمي الأمين، نبأ موسى وفرعون بالحق المبين، توجه إليه بالخطاب المستطاب، ممتنا بما قصه عليه من أمرهما في محكم الكتاب، فقال تعالى مخاطبا لخاتم أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾، و(الغربي) هنا وصف للمكان الواقع في شق الغرب من (الطور)، حيث تلقى موسى عنده أمر ربه، وقال تعالى مخاطبا له مرة ثانية: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ أي: ما كنت مقيما بين أظهرهم، فتروي لأمتك خبرهم وخبر إقامة موسى عندهم ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِنَا﴾. وقال تعالى مخاطبا له مرة ثالثة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: طور سيناء أو (طور سينين) كما جاء في سورة التين[(٤)] ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ أي: ليلة المناجاة والتكليم، لموسى الكليم.

وهكذا يذكر كتاب اللَّه خاتم رسله بالمراحل التي قطعها موسى في حياته قبل أن يولد هو ويبعث بقرون، ويعرفه بالوقائع والمواقع التي تألفت منها قصة موسى بدءا وختاما، الأمر الذي لا سبيل إلى معرفته، والتعرف عليه على حقيقته، لولا الوحي

(١) الأعراف الآية (١٥٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٩-٣٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣٤).
(٤) الآية (٢).

الذي أكرم اللَّه به رسوله، وجعله برهان صدقه ودليله، يتحدى به الجاحدين والمكابرين، ويطاول به المشركين والكافرين، ويذكر به المؤمنين، ولذلك قال تعالى وهو يخاطب نبيه في الآية الأولى من هذا السياق: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: لم تكن حاضرا لتلك الوقائع، ولا عارفا بتلك المواقع، وقال تعالى في سياق الثانية: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي: نحن الذين اصطفيناك وأرسلناك، ومن علم الغيب علمناك، وقال تعالى في سياق الآية الثالثة: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ على غرار قوله تعالى فيما سبق: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ أي: قصصنا عليك أحسن القصص وعلمناك ما لم تكن تعلم، رحمة وتذكرة للقوم الذين طال عليهم الأمد، فقد سبقت لهم العناية واقتضت حكمة اللَّه أن يمدهم على يدك بهذا المدد، عسى أن يصلح اللَّه أمرهم، ويجبر كسرهم، ويجعلهم خير أمة أخرجت للناس»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة هذه الأمة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ قال: «**نودوا: يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني**»[٢].

* * *

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٢٠/ ٨١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٤/ ١١٣٨٢) والحاكم (٢/ ٤٠٨) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وسكت عنه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلتك يا محمد إليهم لو حل بهم بأسنا، أو أتاهم عذابنا من قبل أن نرسلك إليهم على كفرهم بربهم، واكتسابهم الآثام، واجترامهم المعاصي: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من قبل أن يحل بنا سخطك، وينزل بنا عذابك، فنتبع أدلتك وآي كتابك الذي تنزله على رسولك، ونكون من المؤمنين بألوهيتك، المصدقين رسولك فيما أمرتنا ونهيتنا، لعاجلناهم العقوبة على شركهم من قبل ما أرسلناك إليهم، ولكنا بعثناك إليهم نذيرا بأسنا على كفرهم، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل والمصيبة في هذا الموضع: العذاب والنقمة، ويعني بقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما اكتسبوا»[1].

قال ابن كثير: «أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن، ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[4] والآيات في هذا كثيرة»[5].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٨٢-٨٣).

(٢) الأنعام الآيتان (١٥٦و١٥٧).

(٣) النساء الآية (١٦٥).

(٤) المائدة الآية (١٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥١).

قال ابن القيم: «فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة، وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا، ولم ينزل عليهم كتابا، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، لئلا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل، وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن يصيبوا بها المصيبة، ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل، وهذا هو فصل الخطاب»[1].

وقال أيضًا: «أخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسل رسوله، وأنزل كتابه، لئلا يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعًا؛ الذين يقولون أن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها، بل إنما قبحت بالنهي فقط. والذين يقولون أنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا بدون البعثة.

فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين، ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه؛ أنها قبيحة في نفسها، ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين، وبين استحقاق الثواب والعقاب، فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها، ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها، وفرق بين الأمرين»[2].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٣٠).
(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٢-١٣).

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي : «قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني محمدا ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من العصا واليد البيضاء، وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد، فقال اللّه تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي : موسى ومحمد تعاونا على السحر . قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه، فقالوا : إنا نجده في التوراة بنعته وصفته . فلما رجع الجواب إليهم ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ وقال قوم : إن اليهود علموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة . فهذا الاحتجاج وارد على اليهود؛ أي : أولم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي وإنا كافرون بكل واحد منهما وقرأ الكوفيون : (سحران) بغير ألف؛ أي الإنجيل والقرآن . وقيل : التوراة والفرقان؛ قاله الفراء . وقيل : التوراة والإنجيل؛ قاله أبو رزين . الباقون (ساحران) بألف، وفيه ثلاثة أقاويل أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام ، وهذا قول مشركي العرب، وبه قال ابن عباس والحسن . الثاني : موسى وهارون، وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة، وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد، فيكون الكلام احتجاجا عليهم . وهذا يدل على أن المحذوف في قوله : ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ لما جددنا بعثة الرسل؛ لأن اليهود اعترفوا بالنبوات ولكنهم حرفوا وغيروا واستحقوا العقاب، فقال : قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد ﷺ . الثالث : عيسى ومحمد ﷺ، وهذا قول اليهود اليوم، وبه قال قتادة . وقيل : أولم

يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا مو سى ومحمدا ساحرين والكتابين سحرين»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعنون -والله أعلم- من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وتنقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهانا له على فرعون وملئه وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾[٣]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاونا ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بكل منهما كافرون، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون، دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر:

فما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضا ... أريد الخير أيهما يليني..

ثم قال رحمه الله: «والظاهر على قراءة ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون التوارة والقرآن؛ لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾، وكثيرا ما يقرن الله بين التوارة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[٤]، وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ الآية وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

---

(١) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) يونس الآية (٧٨).

(٣) المؤمنون الآية (٤٨).

(٤) الأنعام الآيتان (٩١و٩٢).

مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[١] وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٢] وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى[٣]. وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن اللّه تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو التوراة التي قال اللّه فيها: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[٤]، والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة، ومحلا لبعض ما حرم على بني إسرائيل»[٥].

قال السعدي: « ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن، الذي أوحيناه إليك ﴿قَالُوا﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة؛ أي: فأما ما دام ينزل متفرقا، فإنه ليس من عند اللّه. وأي: دليل في هذا؟ وأي: شبهة أنه ليس من عند اللّه حين نزل مفرقا؟ بل من كمال هذا القرآن، واعتناء اللّه بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقا، ليثبت اللّه به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[٦] وأيضا، فإن قياسهم على كتاب موسى، قياس قد نقضوه، فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما كان طلبا للحق، واتباعا لأمر عندهم خير

---

(١) الأنعام الآية (١٥٥).

(٢) الأحقاف الآية (٣٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣) والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤) ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) المائدة الآية (٤٤).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥١-٢٥٣).

(٦) الفرقان الآية (٣٣).

منهما، أم مجرد هوى؟»[1].

قال المكي الناصري: «يعرج كتاب اللَّه بعد ذلك على موقف المتعنتين المعاندين الذين تمسكوا بالضلال والخبال حتى بعد إعلان الرسالة ونزول الكتاب، وأخذوا يشترطون للإيمان بخاتم الرسل أن يكون له من الآيات مثل ما أوتي موسى من قبل، والحال أنهم لم يؤمنوا برسالة موسى ولا برسالة عيسى من بعده، رغما عن الآيات التي قارنت رسالتهما. على أنه لا يلزم أن تكون معجزات الأنبياء ﷺ واحدة، كما لا يلزم فيما أنزل عليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد.

وهاهو كتاب اللَّه يعلن كفرهم الصراح بجميع الرسالات والرسل دون استثناء، ويبين أن ما كانوا يبررون به مواقفهم ليس إلا مجرد تستر وتهرب والتواء، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ وهو محمد خاتم الرسل، والقرآن خاتم الكتب ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ وعن موسى ومحمد ﷺ: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾»[2].

قال ابن عاشور: «لما بهرتهم آيات الرسول ﷺ لم يجدوا من المعاذير إلا ما لقنهم اليهود؛ وهو أن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ أي: بأن تكون آياته مثل آيات موسى التي يقصها عليهم اليهود، وقص بعضها القرآن. وضمير (يكفروا) عائد إلى القوم من قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ لتتناسق الضمائر من قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ وما بعده من الضمائر أمثاله.

فيشكل عليه أن الذين كفروا بما أوتي موسى هو قوم فرعون دون مشركي العرب، فقال بعض المفسرين هذا من إلزام المماثل بفعل مثيله؛ لأن الإشراك يجمع الفريقين، فتكون أصول تفكيرهم واحدة ويتحد بهتانهم، فإن القبط أقدم منهم في دين الشرك فهم أصولهم فيه، والفرع يتبع أصله ويقول بقوله، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾[3] أي: متماثلون في سبب الكفر والطغيان فلا يحتاج بعضهم إلى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٠-٣١).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٣٠).

(٣) الذاريات الآيتان (٥٢و٥٣).

وصية بعض بأصول الكفر. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝﴾ ثم قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾[1] أي: بنصر الله إياهم إذ نصر المماثلين في كونهم غير مشركين؛ إذ كان الروم يومئذ على دين المسيح.

فقولهم: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من باب التسليم الجدلي، أو من اضطرابهم في كفرهم فمرة يكونون معطلين ومرة يكونون مشترطين. والوجه أن المشركين كانوا يجحدون رسالة الرسل قاطبة. وكذلك حكاية قولهم: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ من قول مشركي مكة في موسى وهارون لما سمعوا قصتهما أو في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وهو الأظهر وهو الذي يلتئم مع قوله بعده: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾»[2].

* * *

(١) الروم الآيات (٢-٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣٧-١٣٨).

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للقائلين للتوراة والإنجيل[1]: هما سحران تظاهرا: ائتوا بكتاب من عند اللَّه، هو أهدى منهما لطريق الحق، ولسبيل الرشاد ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أن هذين الكتابين سحران، وأن الحق في غيرهما»[2].

قال السعدي: « ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه اللَّه مثل هذين الكتابين، علما، وهدى، وبيانا، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعًا الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقًّا، فإن جئتموني بكتاب من عند اللَّه هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقًّا قد علمته لغير هدى وحق»[3].

قال المكي الناصري: «لقن كتاب اللَّه لرسوله حجة أخرى تقطع أعذارهم، وتهتك أستارهم، فأمره أن يطالب أئمة الكفر بأن يقدموا له وللبشرية كتابا أهدى من التوراة التي أنزلت على موسى، وأهدى من القرآن الذي أنزل بعده على محمد، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، وأن يعلن إليهم أنه على أتم

(١) لأنه -رحمه اللَّه تعالى- يرجح أن معنى (سحران): التوراة والإنجيل.
(٢) جامع البيان (٢٠/ ٨٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣١-٣٢).

الاستعداد لاتباع هذا الكتاب المقترح عليهم إن جاؤوا به من عند اللَّه، وكان أهدى مما جاء به رسول اللَّه، واللَّه يعلم في سابق علمه وأزله أنهم عاجزون عن الإتيان بهذا الكتاب»[١].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٣٠-٥٣١).

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فإن لم يجبك هؤلاء القائلون للتوراة والإنجيل: سحران تظاهرا، الزاعمون أن الحق في غيرهما من اليهود يا محمد إلى أن يأتوك بكتاب من عند اللّٰه هو أهدى منهما فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، وأن الذي ينطقون به ويقولون في الكتابين قول كذب وباطل لا حقيقة له، ولعل قائلا أن يقول: أو لم يكن النبي ﷺ يعلم أن ما قاله القائلون من اليهود وغيرهم في التوراة والإنجيل من الإفك والزور، المسموهما سحرين: باطل من القول إلا بأن لا يجيبوه إلى إتيانهم بكتاب هو أهدى منهما؟ قيل: هذا كلام خرج مخرج الخطاب لرسول اللّٰه ﷺ والمراد به المقول لهم أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل من كفار قريش، وذلك أنه قيل للنبي ﷺ: قل يا محمد لمشركي قريش: أولم يكفر هؤلاء الذين أمروكم أن تقولوا: هلا أوتي محمد مثل موسى بالذي أوتي موسى من قبل هذا القرآن، ويقولوا للذي أنزل عليه وعلى عيسى ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، فقولوا لهم إن كنتم صادقين أن ما أوتي موسى وعيسى سحر، فأتوني بكتاب من عند اللّٰه هو أهدى من كتابيهما فإن هم لم يجيبوكم إلى ذلك فاعلموا أنهم كذبة، وأنهم إنما يتبعون في تكذيبهم محمدا وما جاءهم به من عند اللّٰه أهواء أنفسهم، ويتركون الحق وهم يعلمون، يقول تعالى ذكره: ومن أضل عن طريق الرشاد وسبيل السداد ممن اتبع هوى نفسه بغير بيان من عند اللّٰه وعهد من اللّٰه، ويترك عهد اللّٰه الذي عهده إلى خلقه في وحيه وتنزيله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن اللّٰه لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر اللّٰه وتركوا طاعته، وكذبوا رسوله، وبدلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم، إيثارا منهم لطاعة الشيطان

على طاعة ربهم»[١].

قال السعدي: « ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصل إلى اللَّه وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟ ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه اللَّه، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفا والعناد لهم نعتا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى»[٢].

قال ابن القيم: «فقسم الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر، والمقصود أن الواجب على الخلق بعد وفاته هو الواجب عليهم في حياته سواء، ففرض على من سمع كلامه أن يأخذ به، ومن خفي عليه قوله سأل من يعرفه، فإذا سمعه ففرض عليه أن يأخذ به، فإن خفي عليه فغاية قول غيره أن يسوغ له الأخذ به، فيكون سائغ الاتباع بعد خفاء السنة لا واجب الاتباع، ولا سيما مع ظهور السنة، وباللَّه التوفيق»[٣].

وقال أيضًا: «وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن اللَّه لا يهدي من اتبع هواه،

(١) جامع البيان (٢٠/ ٨٦-٨٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٢-٣٣).
(٣) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٢٦-١٥٢٧).

وجعل ﷺ المتبع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ، وإما الهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر، والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلًا ولا إليه طريقًا إلا من هواه. فلذلك كان الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في اللَّه وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه، ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإن متابعته الداء الأكبر، ومخالفته الشفاء الأعظم»[1].

قال السعدي:

«فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة:

فمنها أن آيات اللَّه تعالى وعبره وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن اللَّه تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم فلا يعبأ اللَّه بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن اللَّه تعالى إذا أراد أمرا هيأ أسبابه، وأتى بها شيئًا فشيئا بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ اللَّه أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها [ولا دنياها]، ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف اللَّه بأم موسى، وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة بأن اللَّه سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن اللَّه يقدر على عبده بعض المشاق لينيله سرورا أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شرا أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئن به نفسها، وتقر به عينها،

---

(١) روضة المحبين (ص٢٩٥).

وتزداد به غبطة وسرورا .

ومنها : أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله ، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف .

ومنها : أن الإيمان يزيد وينقص . وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان ويتم به اليقين الصبر عند المزعجات ، والتثبيت من اللَّه عند المقلقات ، كما قال تعالى : ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : ليزداد إيمانها بذلك ، ويطمئن قلبها .

ومنها : أن من أعظم نعم اللَّه على عبده ، و[أعظم] معونة للعبد على أموره ، تثبيت اللَّه إياه ، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف ، وعند الأمور المذهلة ، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب ، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه ، فإنه يضيع فكره ، ويذهل عقله ، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال .

ومنها : أن العبد -ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد اللَّه نافذ لا بد منه- فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها ، ولا يكون ذلك منافيا لإيمانه بخبر اللَّه . فإن اللَّه قد وعد أم موسى أن يرده عليها ، ومع ذلك اجتهدت على رده ، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه .

ومنها : جواز خروج المرأة في حوائجها ، وتكليمها للرجال من غير محذور ، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين .

ومنها : جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع ، والدلالة على من يفعل ذلك .

ومنها : أن اللَّه من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه ، أن يريه من آياته ، ويشهده من بيناته ، ما يزيد به إيمانه ، كما رد اللَّه موسى على أمه ، لتعلم أن وعد اللَّه حق .

ومنها : أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز ، فإن موسى عليه السلام عد قتله القبطي الكافر ذنبا ، واستغفر اللَّه منه .

ومنها : أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض .

ومنها : أن من قتل النفوس بغير حق ، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض ، وتهييب أهل المعاصي ، فإنه كاذب في ذلك ، وهو مفسد كما حكى اللَّه قول

القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمة -بل قد يكون واجبا-، كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحا له ومحذرا.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تزاحم المفسدتين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما أنه يرتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة، التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالما لها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

ومنها: أن الحياء -خصوصًا من الكرام- من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر

به العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعا.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل [يعمل] للإنسان أن يكون قويا أمينا.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يحسن خلقه لأجيره وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ومنها: ما أجرى اللّٰه على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة اللّٰه لموسى وهارون من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماما في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات اللّٰه وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم اللّٰه بها على عبده أن يجعله إماما في الخير هاديا مهديا.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلا مطابقا، وتأصيلا موافقا، قصه قصا، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئًا من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قوما جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات اللّٰه وسلامه على من مجرد خبره ينبئ أنه رسول اللّٰه، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة أنه من عند اللّٰه، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به، وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة، والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكايد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نموا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورا، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٤-٤٠).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

وَصَّلْنا: أكثرنا. وأصل التوصيل من وصل الحبال بعضها ببعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولقد وصلنا يا محمد لقومك من قريش ولليهود من بني إسرائيل القول بأخبار الماضين والنبأ عما أحللنا بهم من بأسنا إذ كذبوا رسلنا، وعما نحن فاعلون بمن اقتفى آثارهم، واحتذى في الكفر بالله وتكذيب رسله مثالهم، ليتذكروا فيعتبروا ويتعظوا، وأصله من وصل الحبال بعضها ببعض، ومنه قول الشاعر:

فقل لبني مروان ما بال ذمة ... وحبل ضعيف مايزال يوصل

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ يعني بذلك تعالى ذكره قوما من أهل الكتاب آمنوا برسوله وصدقوه، فقال الذين آتيناهم الكتاب من قبل هذا القرآن هم بهذا القرآن يؤمنون فيقرون أنه حق من عند الله، ويكذب جهلة الأميين الذين لم يأتهم من الله الكتاب»[(١)].

قال ابن عاشور: «والتوصيل: مبالغة في الوصل وهو ضم بعض الشيء إلى بعض، يقال: وصل الحبل إذا ضم قطعه بعضها إلى بعض فصار حبلا. و(القول) المراد به القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾[(٢)] وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾[(٣)]، فالتعريف للعهد أي القول المعهود. وللتوصيل أحوال كثيرة فهو باعتبار

(١) جامع البيان (٢٠/ ٨٧-٨٨).

(٢) الطارق الآية (١٣).

(٣) الحاقة: الآية (٤٠) والتكوير: الآية (١٩).

ألفاظه وصل بعضه ببعض ولم ينزل جملة واحدة، وباعتبار معانيه وصل أصنافا من الكلام وعدًا ووعيدًا وترغيبًا وترهيبًا وقصصًا ومواعظ وعبرًا ونصائح يعقب بعضها بعضًا، وينتقل من فن إلى فن، وفي كل ذلك عون على نشاط الذهن للتذكر والتدبر. واللام و(قد) كلاهما للتأكيد، ردًّا عليه إذ جهلوا حكمة تنجيم نزول القرآن، وذكرت لهم حكمة تنجيمه هنا بما يرجع إلى فائدتهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. وذكر في آية سورة الفرقان حكمة أخرى راجعة إلى فائدة الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1] وفهم من ذلك أنهم لم يتذكروا، وضمير (لهم) عائد إلى المشركين»[2].

قال المكي الناصري: «أكد كتاب اللَّه أن رعاية الحق، وعنايته بهداية الخلق، رعاية لا تنقطع على الدوام، وعناية لا تتضاءل مع مرور الأيام، وإن اعتصم كثير من الناس بحبل الضلال، ولجوا في العناد والجدال، ولذلك توالت الرسالات والرسل عبر الأجيال، وبقيت أبواب الهداية مفتوحة في وجوههم دون أقفال، وهاهو خاتم الكتب المنزلة تتوالى سوره وآياته، وتتلاحق نصائحه وعظاته، لخير البشرية جمعاء، وإنقاذها من الضلال والعماء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: أتبعنا رسولا بعد رسول، وأردفنا كتابا بعد كتاب»[3].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾[5] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ

(١) الفرقان الآية (٣٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٢).
(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٣٥).
(٤) البقرة الآية (١٢١).
(٥) آل عمران الآية (١٩٩).
(٦) الإسراء الآيتان (١٠٧و١٠٨).

رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[١]»[٢].

قال السعدي: «يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقرون بأنه الحق، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾»[٣].

* * *

(١) المائدة الآيتان (٨٢و٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وإذا يتلى هذا القرآن على الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول هذا القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ يقول: يقولون: صدقنا به ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ يعني من عند ربنا نزل، إنا كنا من قبل نزول هذا القرآن مسلمين، وذلك أنهم كانوا مؤمنين بما جاء به الأنبياء قبل مجيء نبينا محمد ﷺ وعليهم من الكتب، وفي كتبهم صفة محمد ونعته، فكانوا به وبمبعثه وبكتابه مصدقين قبل نزول القرآن، فلذلك قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾»[1].

قال السعدي: « ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له وأذعنوا و ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة، لغاية الحكمة. وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلا عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق. قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧﴾[2] الآيات. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول»[3].

قال المكي الناصري: «ضرب الله المثل لمن اغتنم فرصة ظهور الرسالة

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٨٩).

(٢) الإسراء الآية (١٠٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤١-٤٢).

الخاتمة، ونزول الكتاب الخاتم، فبادر إلى الدخول في حظيرة الإسلام، بفريق من أهل الكتاب ما كادوا يسمعون رسول اللَّه يتلو كتاب اللَّه حتى أعلنوا إيمانهم، وأرضوا ضميرهم ووجدانهم، واعترفوا بأن ما جاء به من عند اللَّه هو الحق الذي لا غبار عليه، وأن مرد كل شيء إليه، مؤكدين علاوة على ذلك، أنهم كانوا على بينة من أمر هذا الكتاب، قبل أن ينزل ويرفع عنه الحجاب، وذلك ما يتحدث عنه كتاب اللَّه إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾»[1].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٣٦).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يدرؤون: يدفعون. والدرء: الدفع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم الثاني ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس.. وقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق اللّه في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات»[1].

قال السعدي: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أجرا على الإيمان الأول، وأجرا على الإيمان الثاني، ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا ثناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

ومن خصالهم الفاضلة، التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم»[2].

قال ابن عاشور: «التعبير عنهم باسم الإشارة هنا للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي ذكرت قبل اسم الإشارة مثل ما

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٢).

تقدم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ في سورة البقرة[١].

وعد الله لهم سبع خصال من خصال أهل الكمال: إحداها أخروية وهي ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي: أنهم يؤتون أجرين على إيمانهم؛ أي: يضاعف لهم الثواب لأجل أنهم آمنوا بكتابهم من قبل ثم آمنوا بالقرآن، فعبر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين تشبيها للمضاعفة بتكرير الإيتاء وإنما هو إيتاء واحد..

والثانية: الصبر، والصبر من أعظم خصال البر وأجمعها للمبرات، وأعونها على الزيادة، والمراد بالصبر صبرهم على أذى أهل ملتهم، أو صبرهم على أذى قريش، وهذا يتحقق في مثل الوفد الحبشي. ولعلهم المراد من هذه الآية ولذلك أتبع بقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

والخصلة الثالثة: درؤهم السيئة بالحسنة وهي من أعظم خصال الخير وأدعاها إلى حسن المعاشرة قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[٢] فيحصل بذلك فائدة دفع مضرة المسيء عن النفس، وإسداء الخير إلى نفس أخرى، فهم لم يردوا جلافة أبي جهل بمثلها ولكن بالإعراض مع كلمة حسنة وهي ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾. وأما الإنفاق فلعلهم كانوا ينفقون على فقراء المسلمين بمكة وهو الخصلة الرابعة، ولا يخفى مكانها من البر[٣]»[٤].

قال القنوجي: «﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وبالنبي الأول والنبي الآخر، أو بالعمل بهما، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب ومن عاداهم من أهل دينهم»[٥].

---

(١) الآية (٥).

(٢) فصلت الآية (٣٤).

(٣) وسنذكر بقية الخصال السبع في الآية التالية (٥٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٤-١٤٥).

(٥) فتح البيان (١٠/ ١٣٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة سلمان وما فيها من العبر وفضيلة من آمن بنبيه وبمحمد ﷺ

* عن علي بن رفاعة رضي الله عنه قال: «كان أبي من الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وكانوا عشرة، فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم ويضحكون منهم، فأنزل الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾»[1].

* عن عبدالله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه، قال: «كنت رجلًا فارسيًا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها (جَيّ)، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحبّ خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة. قال: فشغل في بنيان له يومًا، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ما يصنعون. قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه. فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها. فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله. قال: فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت: كلا، والله إنه لخير من ديننا. قال: فخافني، فجعل في

---

(١) أخرجه: البخاري في التاريخ (٦/ ٢٧٤-٢٧٥/ ٢٣٨٨)، وذكره ابن حجر في الفتح (١/ ٢٥٤) وقال: وروى الطبراني بإسناد صحيح عن علي بن رفاعة القرظي قال: «خرج عشرة من أهل الكتاب -منهم أبي رفاعة- . . .» فذكره بنحوه.

رجلي قيدًا ثم حبسني في بيته. قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى. قال: فأخبروني بهم. قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأُسقُفّ في الكنيسة. قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك. قال: فادخل. فدخلت معه. قال: فكان رجل سُوءٍ، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق. قال: وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئًا. قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدلنا عليه. قال: فأريتهم موضعه. قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا. قال: فلما رأوها قالوا: واللَّه لا ندفنه أبدًا فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة. ثم جاؤوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه. قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلًا لا يصلي الخمس، أُرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه. قال: فأحببته حبًا لم أحبه من قبله، وأقمت معه زمانًا. ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني كنت معك وأحببتك حبًا لم أحبه من قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر اللَّه، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلًا بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به. قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. قال: فقال لي: أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه. فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلانًا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق

بك، وقد حضرك من اللَّه ﷻ ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما أعلم رجلًا على مثل ما كنا عليه إلا رجلًا بنَصيبين، وهو فلان، فالحق به. قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب نصيبين، فجئته، فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي. قال: فأقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل. فواللَّه ما لبث أن نزل به الموت. فلما حُضِرَ قلت له: يا فلان، إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما نعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلًا بعمورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته. قال: فإنه على أمرنا. قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر اللَّه، فلما حُضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجِرًا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء اللَّه أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تِجارًا، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغُنيمتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهموها، وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى، ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي. فبينما أنا عنده، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فواللَّه ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث اللَّه رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فواللَّه إني لفي رأس عَذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه،

فقال فلان: قاتل اللَّه بني قَيلة، واللَّه إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي. قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت سأسقط على سيدي. قال: ونزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك. قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال. وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول اللَّه ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «**كلوا**». وأمسك يده فلم يأكل. قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة. ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئًا، وتحول رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول اللَّه ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان. ثم جئت رسول اللَّه ﷺ وهو ببقيع الغرقد. قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني النبي ﷺ استدبرته، عرف أني أستثبت في شيء وصف لي. قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبّله وأبكي. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**تحول**». فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. قال: فأعجب رسول اللَّه ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول اللَّه ﷺ بدر وأحد. قال: ثم قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**كاتب يا سلمان**». فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحْيِيها له بالفقير وبأربعين أوقية. فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**». فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وَدِيَّة، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر -يعني الرجل بقدر ما عنده-، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية. فقال لي رسول اللَّه ﷺ: «**اذهب يا سلمان ففقّر لها، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي**». **ففقرت لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته، فأخبرته،**

فخرج رسول اللَّه ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرب له الوَدِيّ، ويضعه رسول اللَّه ﷺ بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي علي المال. فأُتي رسول اللَّه ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فعل الفارسي المكاتب؟» قال: فدعيت له، فقال: «خذ هذه فأَدِّ بها ما عليك يا سلمان». فقلت: وأين تقع هذه يا رسول اللَّه مما عليّ؟! قال: «خذها، فإن اللَّه سيؤدي بها عنك». قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها -والذي نفس سلمان بيده- أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعتقت، فشهدت مع رسول اللَّه ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد»(١).

★ **غريب الحديث:**

جَيّ: بالفتح ثم التشديد: قرية من قرى أصبهان.

الدِّهقان: بكسر الدال وقد تضم: يطلق على رئيس القرية، وهو المراد هنا، وجمعه: دهاقنة.

قطِن النار: بكسر الطاء: أي: خازنها وخادمها. أراد أنه كان ملازمًا لها لا يفارقها، من قطن في المكان: إذا لزمه.

خَبَتِ النار: تخبو، من باب (قعد): خمد لهبها. ويعدى بالهمز.

الرَّكْب: الركب: أصحاب الجمال في السفر، وهم العشرة فما فوقها. والرُّكبان، بالضم: الجماعة منهم.

الأسقفّ: بضمتين بينهما سين ساكنة وآخرها فاء مشددة أو مخففة؛ لأنه يتخاشع، وهو رئيس من رؤسائهم في الدين.

الوَرِق: بفتح أوله وكسر ثانيه: الدراهم المضروبة.

المَوْصِل: بالفتح وكسر الصاد: مدينة قديمة على طرف دجلة بينها وبين بغداد أربع وسبعون فرسخًا، ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤١-٤٤٤) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٢٢-٢٢٦/ ٦٠٦٥) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٣٢-٣٣٦) وقال: «رواه أحمد كله والطبراني في الكبير بنحوه، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع».

نَصيبين: بالفتح ثم الكسر: مدينة كبيرة على شاطئ الفرات.

عمّورية: بفتح أوله وتشديد ثانيه: مدينة في بلاد الروم غزاها المعتصم وفتحها في سنة ٢٢٣ وفتح أنقرة، وكانت من أعظم فتوح الإسلام.

أظلّك زمان: أي: قرب منك. قال في «المختار»: أظلك فلان: إذا دنا منك، كأنه ألقى عليك ظله. ثم قيل: أظلك أمر وأظلك شهر كذا: أي: دنا منك.

الحرّة: بوزن الجرة: أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار. والمدينة واقعة بين حرتين.

لم يحق لي: رجوت ذلك ولكن لم أستيقنه.

العذق: بفتح أوله وسكون ثانيه: النخلة بحملها.

بني قيلة: يريد الأوس والخزرج قبيلتي الأنصار. وقيل: اسم أم لهم قديمة، وهي قيلة بنت كاهل.

قُباء: بالضم والمد: موضع قرب المدينة يذكر ويؤنث.

العُرَواء: بضم أوله وفتح ثانيه: الرعدة من الخوف. وهو في الأصل: برد الحمى.

الغرقد: بالغين المعجمة، بوزن الغرقى: شجر. وبقيع الغرقد: مقبرة المدينة.

شملتان: الشملة: بوزن النملة: كساء يشتمل به الإنسان؛ أي: يتلفف به.

كاتب يا سلمان: فعل أمر من المكاتبة، وهي أن يتفق العبد مع السيد على أن يسعى في تحصيل ثمنه ويعتقه.

الفقير: بوزن العظيم: المكان السهل يحفر فيه ركاية متناسقة. والفقير كزبير موضع قرب خيبر.

الوَدِيّ: كغني: صغار النخل. الواحدة: وَدِيّة، كغنية.

الفقر: والتفقير: الحفر.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن القيم: «نجائب النجاة مهيأة للمراد، وأقدام المطرود موثوقة بالقيود. هبت عواصف الأقدار في بيداء الأكوان فتقلب الوجود ونجم الخير، فلما ركدت

الريح إذا أبو طالب عم رسول اللَّه ﷺ غريق في لجة الهلاك، وسلمان على ساحل السلامة، والوليد بن المغيرة يقدم قومه في التيه، وصهيب قد قدم بقافلة الروم، والنجاشي في أرض الحبشة يقول: لبيك اللهم لبيك، وبلال ينادي: الصلاة خير من النوم، وأبو جهل في رقدة المخالفة.

لما قضى في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه في التمجس، فأقبل يناظر أباه في دين الشرك، فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد. وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرّفوه، وبه أجاب فرعون موسى ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾[1]، وبه أجاب الجهمية الإمام أحمد لما عرضوه على السياط، وبه أجاب أهل البدع شيخ الإسلام حين استودعوه السجن (وها نحن على الأثر) فنزل به ضيف ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾[2] فنال بإكرامه مرتبة «**سلمان منا أهل البيت**»، فسمع أن ركبًا على نية السفر، فسرق نفسه من أبيه ولا قَطْع، فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة، فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود، فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء، فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه إعلام الأعلام على نبوة نبينا وقالوا: إن زمانه قد أظل فاحذر أن تضل، فرحل مع رفقة لم يرفقوا به ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[3] فابتاعه يهودي بالمدينة، فلما رأى الحرة توقد حرًا سوّقه، ولم يعلم رب المنزل بوجد النازل. فبينا هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير، وسلمان في رأس نخلة، وكاد القلق يلقيه لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[4]، فعجل النزل لتلقي ركب البشارة ولسان حاله يقول:

خليليّ من نجد قِفا بي على الربا   فقد هبّ من تلك الديار نسيمُ

فصاح به سيده مالك: انصرف إلى شغلك. فقال:

كيف انصرافي ولي في داركم شغلُ؟

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش:

خليليّ لا واللَّه ما أنا منكما   إذا علم من آل ليلى بداليا

---

(١) الشعراء الآية (٢٩).

(٢) البقرة الآية (١٥٥).

(٣) يوسف الآية (٢٠).

(٤) القصص الآية (١٠).

فلما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه: (يا محمد أنت تريد أبا طالب، ونحن نريد سلمان، أبو طالب إذا سئل عن اسمه قال: عبد مناف، وإذا انتسب افتخر بالآباء، وإذا ذكرت الأموال عد الإبل. وسلمان إذا سئل عن اسمه قال: عبدالله، وعن نسبه قال: ابن الإسلام، وعن ماله قال: الفقر، وعن حانوته قال: المسجد، وعن كسبه قال: الصبر، وعن لباسه قال: التقوى والتواضع، وعن وساده قال: السهر، وعن فخره قال: «**سلمان منا**»، وعن قصده قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1]، وعن سيره قال: إلى الجنة، وعن دليله في الطريق قال: إمام الخلق وهادي الأئمة).

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا ... كفى بالمطايا طيبُ ذكراك حاديا

وإن نحن أضللنا الطريق ولم نجد ... دليلًا كفانا نورُ وجهكَ هاديا»[2].

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران**».

ثم قال عامر: أعطيناكها بغير شيء، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «**ورجل من أهل الكتاب**»: لفظ الكتاب عام ومعناه خاص؛ أي: المنزل من عند الله، والمراد به التوراة والإنجيل كما تظاهرت به نصوص الكتاب والسنة حيث يطلق أهل الكتاب، وقيل: المراد به هنا الإنجيل خاصة إن قلنا إن النصرانية ناسخة لليهودية، كذا قرره جماعة، ولا يحتاج إلى اشتراط النسخ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان قد أرسل إلى بني إسرائيل بلا خلاف، فمن أجابه منهم نسب إليه، ومن كذبه منهم واستمر على يهوديته لم يكن مؤمنًا فلا يتناوله الخبر؛ لأن شرطه أن يكون مؤمنًا بنبيه. نعم من دخل في اليهودية من غير بني

---

(١) الأنعام الآية (٥٢) والكهف الآية (٢٨). (٢) الفوائد (٥١-٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٢-٤٠٥) والبخاري (١/ ٢٥٢/ ٩٧) ومسلم (١/ ١٣٤-١٣٥/ ١٥٤) والترمذي (٣/ ٤٢٤/ ١١١٦) والنسائي (٦/ ٤٢٥/ ٣٣٤٤) وابن ماجه (١/ ٦٢٩/ ١٩٥٦).

إسرائيل، أو لم يكن بحضرة عيسى عليه السلام فلم تبلغه دعوته، يصدق عليه أنه يهودي مؤمن، إذ هو مؤمن بنبيه موسى عليه السلام ولم يكذب نبيًا آخر، فمن أدرك بعثه محمد ﷺ ممن كان بهذه المثابة وآمن به لا يشكل أنه يدخل في الخبر المذكور، ومن هذا القبيل العرب الذين كانوا باليمن وغيرها ممن دخل منهم في اليهودية ولم تبلغهم دعوة عيسى عليه السلام لكونه أرسل إلى بني إسرائيل خاصة. نعم الإشكال في اليهود الذين كانوا بحضرة النبي ﷺ، وقد ثبت أن الآية الموافقة لهذا الحديث وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ نزلت في طائفة آمنوا منهم كعبدالله بن سلام وغيره، ففي الطبراني من حديث رفاعة القرظي قال: «**نزلت هذه الآيات فيّ وفيمن آمن معي**». وروى الطبراني بإسناد صحيح عن علي بن رفاعة القرظي قال: «**خرج عشرة من أهل الكتاب منهم أبي رفاعة- إلى النبي ﷺ** فآمنوا به فأوذوا، فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ الآيات»، فهؤلاء من بني إسرائيل ولم يؤمنوا بعيسى بل استمروا على اليهودية إلى أن آمنوا بمحمد ﷺ، وقد ثبت أنهم يؤتون أجرهم مرتين، قال الطيبي: فيحتمل إجراء الحديث على عمومه، إذ لا يبعد أن يكون طريان الإيمان بمحمد ﷺ سببًا لقبول تلك الأديان وإن كانت منسوخة. انتهى. وسأذكر ما يؤيده بعد. ويمكن أن يقال في حق هؤلاء الذين كانوا بالمدينة: إنه لم تبلغهم دعوة عيسى عليه السلام لأنها لم تنتشر في أكثر البلاد، فاستمروا على يهوديتهم مؤمنين بنبيهم موسى عليه السلام، إلى أن جاء الإسلام فآمنوا بمحمد ﷺ، فبهذا يرتفع الإشكال إن شاء الله تعالى.

* **فوائد:**

الأولى: وقع في شرح ابن التين وغيره أن الآية المذكورة نزلت في كعب الأحبار وعبدالله بن سلام، وهو صواب في عبدالله خطأ في كعب؛ لأن كعبًا ليست له صحبة، ولم يسلم إلا في عهد عمر بن الخطاب، والذي في تفسير الطبري وغيره عن قتادة أنها نزلت في عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي، وهذا مستقيم؛ لأن عبدالله كان يهوديًا فأسلم.. وسلمان كان نصرانيًا فأسلم.. وهما صحابيان مشهوران.

الثانية: قال القرطبي: الكتابي الذي يضاعف أجره مرتين هو الذي كان على الحق في شرعه عقدًا وفعلًا إلى أن آمن بنبينا ﷺ، فيؤجر على اتباع الحق الأول

والثاني. انتهى. ويشكل عليه أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل: «**أَسلِم يؤتك اللَّه أجرك مرتين**»[(١)]، وهرقل كان ممن دخل في النصرانية بعد التبديل..

الثالثة: قال أبو عبدالملك البوني وغيره: إن الحديث لا يتناول اليهود البتة، وليس بمستقيم كما قررناه. وقال الداودي ومن تبعه: إنه يحتمل أن يتناول جميع الأمم فيما فعلوه من خير، كما في حديث حكيم بن حزام الآتي: «**أسلمت على ما أسلفت من خير**»[(٢)] وهو متعقب؛ لأن الحديث مقيد بأهل الكتاب فلا يتناول غيرهم إلا بقياس الخير على الإيمان. وأيضًا فالنكتة في قوله: «**آمن بنبيه**» الإشعار بعلية الأجر؛ أي: أن سبب الأجرين الإيمان بالنبيين، والكفار ليسوا كذلك. ويمكن أن يقال الفرق بين أهل الكتاب وغيرهم من الكفار أن أهل الكتاب يعرفون محمدًا ﷺ كما قال اللَّه تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[(٣)] فمن آمن به واتبعه منهم كان له فضل على غيره.. وكذا من كذبه منهم كان وزره أشد من وزر غيره، والثلاثة المذكورة في الحديث مستمرة إلى يوم القيامة. وهذا مصير شيخنا إلى أن قضية مؤمن أهل الكتاب مستمرة، وقد ادعى الكرماني اختصاص ذلك بمن آمن في عهد البعثة، وعلل ذلك بأن نبيهم بعد البعثة إنما هو محمد ﷺ باعتبار عموم بعثته. انتهى. وقضيته أن ذلك أيضًا لا يتم لمن كان في عهد النبي ﷺ، فإن خصه بمن لم تبلغه الدعوة فلا فرق في ذلك بين عهده وبعده، فما قاله شيخنا أظهر. والمراد بنسبتهم إلى غير نبينا ﷺ إنما هو باعتبار ما كانوا عليه قبل ذلك، وأما ما قوى به الكرماني دعواه بكون السياق مختلفًا حيث قيل في مؤمن أهل الكتاب: (رجل) بالتنكير وفي (العبد) بالتعريف، وحيث زيدت فيه (إذا) الدالة على معنى الاستقبال فأشعر ذلك بأن الأجرين لمؤمن أهل الكتاب لا يقع في الاستقبال، بخلاف العبد. انتهى. وهو غير مستقيم؛ لأنه مشى فيه مع ظاهر اللفظ، وليس متفقًا عليه بين الرواة، بل هو عند المصنف وغيره مختلف، فقد عبر في ترجمة عيسى

---

(١) أخرجه مطولا ومختصرا: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) والبخاري (٦/ ١٥٨/ ٢٩٧٨) ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣) وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦) والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٦/ ٥٨٥٨) من حديث ابن عباس ﭭ.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٠٢) والبخاري (٤/ ٥١٧/ ٢٢٢٠) ومسلم (١/ ١١٣/ ١٢٣) من حديث حكيم ﭬ.

(٣) الأعراف الآية (١٥٧).

بـ(إذا) في الثلاثة، وعبر في النكاح بقوله: «**أيما رجل**» في المواضع الثلاثة وهي صريحة في التعميم، وأما الاختلاف بالتعريف والتنكير فلا أثر له هنا لأن المعرف بلام الجنس مؤداه مؤدى النكرة. والله أعلم.

الرابعة: حكم المرأة الكتابية حكم الرجل كما هو مطرد في جل الأحكام حيث يدخلن مع الرجال بالتبعية إلا ما خصه الدليل.

قوله: «**فله أجران**» هو تكرير لطول الكلام للاهتمام به»[(١)].

قال أبو العباس القرطبي: «هذا الكتابي الذي يضاعف أجره هو الذي كان على الحق في شرعه عقدا وفعلا، ولم يزل متمسكا بذلك إلى أن جاء نبينا ﷺ فآمن به، واتبع شريعته، فهذا هو الذي يؤجر على اتباع الحق الأول والحق الثاني، وأما من اعتقد الإلهية لغير الله تعالى كما تعتقده النصارى اليوم، أو من لم يكن على حق في ذلك الشرع الذي ينتمي إليه، فإذا أسلم جب الإسلام ما كان عليه من الفساد والغلط، ولم يكن له حق يؤجر عليه إلا الإسلام خاصة، والله أعلم»[(٢)].

وقال أبو عبدالله القرطبي: «قال علماؤنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبًا بأمرين من جهتين، استحق كل واحد منهم أجرين؛ فالكتابي كان مخاطبًا من جهة نبيه، ثم إنه خوطب من جهة نبينا فأجابه واتبعه فله أجر الملتين»[(٣)].

* * *

(١) فتح الباري (١/ ٢٥٣-٢٥٥).

(٢) المفهم (١/ ٣٦٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾

★ **غريب الآية:**

اللغو: ما لا فائدة فيه من الكلام، وقيل السخرية والقول المؤذي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[١]، ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال عنهم إنهم قالوا: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها»[٢].

قال البقاعي: « ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي ما لا ينفع في دين ولا دنيا من شتم وتكذيب وتعيير ونحوه ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ تكرما عن الخنا ﴿وَقَالُوا﴾ أي: وعظا وتسميعا لقائله: ﴿لَنَا﴾ أي: خاصة ﴿أَعْمَالُنَا﴾ لا تثابون على شيء منها ولا تعاقبون ﴿وَلَكُمْ﴾ أي: خاصة ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ لا نطالب بشيء منها، فنحن لا نشتغل بالرد عليكم لأن ذمكم لنا لا ينقصنا شيئًا من أجرنا، ولا الاشتغال برده ينقصنا.

ولما كان معنى هذا أنهم سالمون منهم، صرحوا لهم به فقالوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي منا. ولما جرت العادة بأن مثل هذا يكسر اللاغي، ويرد الباغي، أشاروا لهم إلى قبح حالهم، ردا على ضلالهم، بقولهم تعليلا لما مضى من مقالهم: ﴿لَا

---

(١) الفرقان الآية (٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٤).

نَبْتَغِى﴾ أي: لا نكلف أنفسنا أن نطلب ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: نريد شيئًا من أحوالهم أو أقوالهم، أو غير ذلك من خلالهم»[١].

قال القرطبي: «مدحهم أيضًا على إعراضهم عن اللغو كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾[٢] أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه، أي لم يشتغلوا به ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: متاركة، مثل قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[٣] أي: لنا ديننا ولكم دينكم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي أمنا لكم منا فإنا لا نحاربكم ولا نسابكم، وليس من التحية في شيء. قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال قوله تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة»[٤].

قال ابن عاشور: «-بعد أن ذكر أربع خصال لهؤلاء القوم-:

الخصلة الخامسة: الإعراض عن اللغو وهو الكلام العبث الذي لا فائدة فيه، وهذا الخلق من مظاهر الحكمة، إذ لا ينبغي للعاقل أن يشغل سمعه ولبه بما لا جدوى له، وبالأولى يتنزه عن أن يصدر منه ذلك.

والخصلة السادسة: الكلام الفصل وهو قولهم: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا من أحسن ما يجاب السفهاء، وهو أقرب لإصلاحهم وأسلم من تزايد سفههم. ولقد أنطقهم اللّٰه بحكمة جعلها مستأهلة لأن تنظم في سلك الإعجاز، فألهمهم تلك الكلمات، ثم شرفها بأن حكيت في نسج القرآن كما ألهم عمر قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[٥] الآية.

ومعنى ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أن أعمالنا مستحقة لنا، كناية عن ملازمتهم إياها. وأما قولهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فهو تتميم على حد ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[٦]. والمقصود من السلام أنه سلام المتاركة المكنى بها عن الموادعة أن لا نعود لمخاطبتكم. قال الحسن: كلمة: السلام عليكم تحية بين المؤمنين وعلامة الاحتمال من الجاهلين. ولعل القرآن غير مقالتهم بالتقديم والتأخير لتكون مشتملة

---

(١) نظم الدرر (١٤/ ٣١٦-٣١٧).
(٢) الفرقان الآية (٧٢).
(٣) الفرقان الآية (٦٣).
(٤) جامع أحكام القرآن (١٣/ ١٩٧).
(٥) التحريم الآية (٥).
(٦) الكافرون الآية (٦).

على الخصوصية المناسبة للإعجاز؛ لأن تأخير الكلام الذي فيه المتاركة إلى آخر الخطاب أولى ليكون فيه براعة المقطع. وحذف القرآن قولهم: لم نأل أنفسنا رشدا للاستغناء عنه بقولهم: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

السابعة: ما أفصح عنه قولهم: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ من أن ذلك خلقهم أنهم يتطلبون العلم ومكارم الأخلاق. والجملة تعليل للمتاركة، أي لأنا لا نحب مخالطة أهل الجهالة بالله وبدين الحق، وأهل خلق الجهل الذي هو ضد الحلم»[1].

قال السعدي: « ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾ من جاهل خاطبهم به أعرضوا عنه، ﴿وَقَالُواْ﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: كل سيجازى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ من كل وجه»[2].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٢-٤٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن نبيه ﷺ لا يهدي من أحب هدايته، ولكنه -جل وعلا- هو الذي يهدي من يشاء هداه، وهو أعلم بالمهتدين.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1] الآية. وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ جاء معناه موضحا في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾[4] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد أوضحنا سابقا أن الهدى المنفى عنه ﷺ في قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هو هدى التوفيق، لأن التوفيق بيد اللّه وحده، وأن الهدى المثبت له ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5] هو هدى الدلالة على الحق والإرشاد إليه، ونزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب مشهور معروف»[6].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أن يهديه من خلقه بتوفيقه

---

(١) النحل الآية (٣٧).
(٢) المائدة الآية (٤١).
(٣) النجم الآية (٣٠).
(٤) الأنعام الآية (١١٧).
(٥) الشورى الآية (٥٢).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٤٥٦).

للإيمان به وبرسوله، ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي من أحببته لقرابته منك ولكن اللَّه يهدي من يشاء كان مذهبا ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾: يقول جل ثناؤه: واللَّه أعلم من سبق له في علمه أنه يهتدي للرشاد ذلك الذي يهديه اللَّه فيسدده ويوفقه.

وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول اللَّه ﷺ من أجل امتناع أبي طالب عمه من إجابته، إذ دعاه إلى الإيمان باللَّه، إلى ما دعاه إليه من ذلك»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله ﷺ إنك يا محمد ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ واللَّه يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[3] وهذه الآية أخص من هذا كله فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول اللَّه ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حبا شديدا طبعيا لا شرعيا، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول اللَّه ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة»[4].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنك يا محمد -وغيرك من باب أولى- لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد اللَّه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا.

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩١).
(٢) البقرة الآية (٢٧٢).
(٣) يوسف الآية (١٠٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٥-٢٥٦).

ولهذا، لو كان قادرا عليها لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد اللَّه تعالى»(١).

قال القنوجي: «تقرر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولا أوليا، والآية حجة على المعتزلة لأنهم يقولون: الهدى هو البيان، وقد هدى الناس أجمع، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم، فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خطر رفقاء السوء على الإنسان في عقيدته فيوقعونه في الشرك الأكبر وفي الموبقات التي تكون سببًا في دخوله النار وفي خزيه في الدنيا والعذاب في الآخرة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول اللَّه ﷺ لعمه: **قل: لا إله إلا اللَّه أشهد لك بها يوم القيامة**. قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك. فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾»(٣).

* عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول اللَّه ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبداللَّه بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: **أي عم، قل: لا إله إلا اللَّه، كلمة أحاجّ لك بها عند اللَّه**. فقال أبو جهل وعبداللَّه بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول اللَّه ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا اللَّه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**. فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾(٤) وأنزل اللَّه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٣). (٢) فتح البيان (١٠/ ١٣٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤١) ومسلم (١/ ٥٥/ ٢٥[٤٢]) والترمذي (٥/ ٣١٨/ ٣١٨٨).

(٤) التوبة الآية (١١٣).

في أبي طالب، فقال لرسول اللَّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾»[1].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «أبو طالب هذا هو ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وهو عم النبي ﷺ ووالد علي بن أبي طالب. . وكان والد النبي ﷺ وهو عبداللَّه قد توفي؛ ورسول اللَّه ﷺ حَمْل في بطن أمه على الأصح، فولد رسول اللَّه ﷺ، ونشأ في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي، فكفله عمه أبو طالب، ولم يزل يحبه حبًا شديدًا، ويحوطه، ويحفظه، إلى أن بعث اللَّه محمدًا ﷺ بالنبوة، فنصره أبو طالب، وأعانه، وأجاره ممن يريد به سوءًا، وقام دونه وعادى في حقه قريشًا وجميع العرب إلى أن ناصبوه القتال، وجاهروه بالعداوة والأذى، وطلبوا أن يسلمه لهم فلم يفعل. ثم إن قريشًا، وجميع أهل مكة، تعاقدوا فيما بينهم، وتحالفوا على هجره وجميع بني هاشم، ومقاطعتهم، وعلى ألاّ يقاربوهم، ولا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يصلوهم بشيء من وجوه الرفق كلها، حتى يُسْلِموا إليهم رسول اللَّه ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوها في الكعبة، فانحاز أبو طالب وبنو هاشم في شِعبهم، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين في جهد جهيد، وحال شديد، إلى أن نقض اللَّه أمر الصحيفة، وأظهر أمر نبيه على ما هو مذكور في كتب السير. وكان أبو طالب يعرف صدق رسول اللَّه ﷺ في كل ما يقوله، ويقول لقريش: تعلمون واللَّه أن محمدًا لم يكذب قط، ويقول لابنه عليّ: اتبعه فإنه على الحق، غير أنه لم يدخل في الإسلام، ولم يتلفظ به، ولم يزل على ذلك إلى أن حضرته الوفاة، فدخل عليه رسول اللَّه ﷺ طامعًا في إسلامه، وحريصًا عليه، باذلًا في ذلك جهده، مستفرغًا ما عنده، لكن عاقت عن ذلك عوائق الأقدار، التي لا ينفع معها حرص ولا اقتدار.

وقوله: «**يا عم! قل لا إله إلا اللَّه كلمة أشهد لك بها عند الله**» أحسن ما تقيد به (كلمة) النصب على أن تكون بدلا من لا إله إلا اللَّه، ويجوز رفعها على إضمار المبتدأ، و(أشهد) مجزوم على جواب الأمر؛ أي: إن تقل أشهد، وكل ذلك ترغيب

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٣) والبخاري (٨/ ٦٤٩/ ٤٧٧٢) ومسلم (١/ ٥٤/ ٢٤) والنسائي (٤/ ٣٩٥/ ٢٠٣٤).

وتذكير لأبي طالب، وحرص على نجاته، ويأبى اللَّه إلا ما يريد»[١].

وقال: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: لا تقدر على توفيق من أراد اللَّه خذلانه، وكشف ذلك: بأن الهداية الحقيقية هي خلق القدرة على الطاعة وقبولها، وليس ذلك إلا لله تعالى، والهداية التي تصح نسبتها لغير اللَّه تعالى بوجه ما؛ هي الإرشاد والدلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢]؛ أي: ترشد وتبين، كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[٣]، و ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، وما ذكرناه هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الذي تدل عليه البراهين القاطعة»[٥].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله: «فيه الرد على عبّاد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة.

وقد وقفت على رسالة لرجل منهم في ذلك، ويحتجون على ذلك بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٦]، يقول قائلهم في حق رسول اللَّه ﷺ:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه؛ تبين له بطلان قولهم وفساد شركهم؛ لأن رسول اللَّه ﷺ أفضل الخلق وأقربهم من اللَّه، وأعظمهم جاهًا عنده، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب في حياة أبي طالب وعند موته، فلم يتيسر ذلك ولم يقدر عليه، ثم استغفر له بعد موته، فلم يغفر له، حتى نهاه اللَّه عن ذلك.

ففي هذا أعظم البيان، وأوضح البرهان على أنه ﷺ لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا عطاءً ولا منعًا، وأن الأمر كله بيد اللَّه، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويكشف الضر عمن يشاء، ويصيب به

---

(١) المفهم (١/ ١٩٢-١٩٣).
(٢) الشورى الآية (٥٢).
(٣) الشورى الآية (٤٨).
(٤) النحل الآية (٤٤).
(٥) المفهم (١/ ١٩٦).
(٦) الزمر الآية (٣٤).

من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم. وهو الذي من جوده الدنيا والآخرة، وهو بكل شيء عليم. ولو كان عنده ﷺ من هداية القلوب ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب شيء، لكان أحق الناس به، وأولاهم من قام معه أتم القيام ونصره، وأحاطه من بلوغه ثمان سنين، وإلى ما بعد النبوة بثمان سنين، أو أكثر، بل قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[2]، فهل يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذه الآيات وما أشبهها، والإيمان بذلك البيت وما أشبهه، ولكن قاتل اللّه أعداءه الذين جاوزوا الحد في إطرائه والغلو فيه..

فإن قلت: قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، فالجمع بينها وبين الآية المترجم لها، قيل: الهداية التي تصح نسبتها لغير اللّه بوجه ما هي هداية الإرشاد والدلالة، كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ترشد وتبين، والهداية المنفية عن غير اللّه، هي هداية التوفيق وخلق القدرة على الطاعة»[4].

وقال أيضًا: «قوله: «**فأعاد عليه النبي ﷺ** وأعادا» أي: أعاد عليه النبي ﷺ مقالته، وأعادا عليه مقالتهما مبالغة منه ﷺ وحرصًا على إسلام عمه، ومع ذلك لم يقدر النبي ﷺ على ذلك، ولا على تخليصه من عذاب اللّه، بل سبق فيه القضاء المحتوم، واستمر على كفره ليعلم الناس أن لا إله إلا اللّه. فلو كان عند النبي ﷺ من هداية القلوب، وتفريج الكروب شيء، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم عمه الذي فعل معه ما فعل. وفيه الحرص في الدعوة إلى اللّه، والصبر على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإن رد ذلك على صاحبه، وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة»[5].

قال ابن القيم: «الهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد، ولهذا أمرنا سبحانه أن

---

(١) الأعراف الآية (١٨٨).
(٢) الأنعام الآية (٥٠).
(٣) الشورى الآية (٥٢).
(٤) تيسير العزيز الحميد (ص٢٩٨ - ٢٩٩).
(٥) تيسير العزيز الحميد (ص٣٠١ - ٣٠٢).

نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي اللَّه في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه، ثم إلى من يقدره على فعله»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2] أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل، وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه. ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك اللَّه رب العالمين. وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة، المحكمة البناء. ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه اللَّه الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدىً ولم يتركها معطلة، بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني، الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٥).

(٢) طه الآية (٥٠).

من خلقه، مهملًا وسدىً معطلًا لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته، بل يتركه معطلًا لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا منافٍ لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله؟ ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزه نفسه عنه، وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾[١] فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، كما هو أصح الطريقين في ذلك، ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[٢] بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾[٣]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه، بل جعلها أممًا، وهداها إلى غاياتها ومصالحها، كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة، والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك. وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام؛ فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدى معها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[٤] أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٥].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٦]، وفي قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾[٧]، وفي قول النبي ﷺ:

---

(١) المؤمنون الآيتان (١١٥و١١٦).
(٢) الأنعام الآية (٣٨).
(٣) الأنعام الآية (٣٧).
(٤) فصلت الآية (١٧).
(٥) الشورى الآية (٥٢).
(٦) النحل الآية (٩٣).
(٧) النحل الآية (٣٧).

«من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»[1]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾[2]، وقال أهل الجنة فيها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[3]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾[4]»[5].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٢) ومسلم (٢/ ٥٩٣-٥٩٤/ ٨٦٨) والنسائي (٦/ ٣٩٨/ ٣٢٧٨) وابن ماجه (١/ ٦١٠/ ١٨٩٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) يونس الآية (٩).

(٣) الأعراف الآية (٤٣).

(٤) الصافات الآيتان (٢٢و٢٣).

(٥) بدائع الفوائد (٢/ ٣٥-٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

★ غريب الآية:

نُتَخَطَّف: التخطف: أخذ الشيء على وجه الاستلاب. ومنه الخُطَّافُ: سمي بذلك لكونه يَخطف الشيء في طيرانه.

يجبى: يجمع. من جَبَيْتُ الماءَ في الحوض، أي جمعته. والجابية: الحوض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وقالت كفار قريش: إن نتبع الحق الذي جئتنا به معك، ونتبرأ من الأنداد والآلهة يتخطفنا الناس من أرضنا بإجماع جميعهم على خلافنا وحربنا، يقول اللَّه لنبيه: فقل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ يقول: أولم نوطىء لهم بلدا حرمنا على الناس سفك الدماء فيه، ومنعناهم من أن يتناولوا سكانه فيه بسوء، وأمنا على أهله من أن يصيبهم بها غارة أو قتل أو سباء.. وقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يقول يجمع إليه وهو من قولهم: جبيت الماء في الحوض: إذا جمعته فيه، وإنما أريد بذلك: يحمل إليه ثمرات كل بلد.. وقوله: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورزقا رزقناهم من لدنا يعني: من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولكن أكثر هؤلاء المشركين القائلين لرسول اللَّه ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ لا يعلمون أنا نحن الذين مكنا لهم حراما آمنا، ورزقناهم فيه، وجعلنا الثمرات من كل أرض تجبى إليهم، فهم بجهلهم بمن فعل ذلك بهم يكفرون، لا يشكرون من أنعم عليهم بذلك»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩٣-٩٤).

حيث قالوا لرسول اللَّه ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾ أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا فقال اللَّه تعالى مجيبا لهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل؛ لأن اللَّه تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.

وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن باللَّه تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال اللَّه مبينًا لهم حالة اختصهم بها دون الناس فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: أولم نجعلهم متمكنين [ممكنين] في حرم يكثر المنتابون إليه، ويقصده الزائرون، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصون بقليل [ولا كثير].

والحال أن كل ما حولهم من الأماكن قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فليحمدوا ربهم على هذا الأمن التام الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون. وليتبعوا هذا الرسول الكريم، ليتم لهم الأمن والرغد. وإياهم وتكذيبه، والبطر بنعمة اللَّه، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفا، وبعد

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٧).

عزهم ذلا، وبعد غناهم فقرا»[١].

قال المكي الناصري: «عاد كتاب اللّه إلى الحديث عن أحوال وأقوال المتثاقلين عن الاستجابة لله ولرسوله، فقد زعموا أنهم لو آمنوا باللّه، واعتصموا بحبل اللّه، للحقهم ضرر كبير، وشر مستطير، متعللين بأن الجمهرة الغالبة من الناس مجمعة على خلافهم، لا تؤمن بهذا الدين ولا تصدق رسالة رسوله الأمين، فإذا آمنوا وحدهم أصبحوا عرضة للانتقام والعدوان، ونالهم ما لا يطيقونه من الذل والهوان، وقد كان هذا القول هو قول مشركي مكة قبل أن يسلموا، وهو قول أمثالهم في كل جيل، وذلك هو ما يحكيه كتاب اللّه عنهم إذ يقول: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾.

لكن كتاب اللّه بادر إلى إبطال مزاعم مشركي مكة في الحين، مذكرا لهم بأن القداسة التي تتمتع بها مكة، والحرمة التي اختصت بها وعاشوا في ظلها، إنما منحها لها اللّه ﷻ، فهو الذي جعلها مقر البيت الحرام، حتى أصبحت موضع التوقير والاحترام عند جميع الأقوام ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، وهذه الخاصية التي احتفظت بها مكة، رغما عن تطاول السنين، حتى في عهد الجاهلية، لن ترتفع عنها إذا تطهرت من الشرك والمشركين، وعادت من جديد مهد الملة الحنيفية، بل ستصبح مكانتها أعظم وأكبر، وسيصبح ذكرها في العالم أسير وأشهر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾»[٢].

قلت: هذا الذي نبه عليه المكي الناصري من فتح مكة وإقامتها لشعائر التوحيد والسنة مطابق لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٣]، فالأمن مقرون بالتوحيد وإقامة الشريعة مصداقا لقول الحق: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[٤]. وما كان الشرك في بلد أو أمة إلا حل بها الخوف والبوار، وجلب الشرور عليها والشنار، وأكبر شاهد على ذلك هو الواقع، فها هي البلاد التي تزعم الحضارة المتخبطة في الشرك وعبادة الصليب لا تنعم بأمن ولا أمان؛ بل هو الخوف والهلع مما لا يعلمه إلا اللّه. أما التوحيد فهو صمام الأمان، ودافع

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤-٤٥).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٣٨).

(٣) الأنعام الآية (٨٢).

(٤) البقرة الآية (١٧٩).

الأذى في كل حين وآن، ولا أدل على ذلك من حياة الأنبياء الذين أنجاهم اللّٰه وأمنهم حين نزل بأقوامهم ما ذكر في الفرقان. نسأل اللّٰه أن يؤمننا في الدنيا والآخرة.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بطرت: البطر: الطغيان عند النعمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وكم أهلكنا من قرية أبطرتها معيشتها فبطرت، وأشرت وطغت فكفرت ربها، وقيل: بطرت معيشتها، فجعل الفعل للقرية، وهو في الأصل للمعيشة، كما يقال: أسفهك رأيك فسفهته، وأبطرك مالك فبطرته، والمعيشة منصوبة على التفسير.. ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: فتلك دور القوم الذين أهلكناهم بكفرهم بربهم ومنازلهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا، يقول: خربت من بعدهم فلم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب، ولفظ الكلام وإن كان خارجا على أن مساكنهم قد سكنت قليلا، فإن معناه: فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا منها، كما يقال: قضيت حقك إلا قليلا منه.

وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يقول: ولم يكن لما خربنا من مساكنهم منهم وارث، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها لا مالك لها إلا اللّه الذي له ميراث السماوات والأرض»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى معرضا بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة اللّه فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩٥).

ﵟظَٰلِمُونَﵞ[1] ولهذا قال تعالى: ﵟفَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖﵞ أي: دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم، وقوله تعالى: ﵟوَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَﵞ أي: رجعت خرابا ليس فيها أحد»[2].

قال الشوكاني: «قوله: ﵟوَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭﵞ أي: من أهل قرية، كانوا في خفض عيش ودعة ورخاء، فوقع منهم البطر فأهلكوا. قال الزجاج: البطر الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا في البطر فأكلوا رزق اللَّه وعبدوا الأصنام. قال الزجاج والمازني: معنى ﵟبَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖﵞ بطرت في معيشتها، فلما حذفت (في) تعدى الفعل كقوله: ﵟوَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥﵞ[3] وقال الفراء: هو منصوب على التفسير، كما تقول: أبطرك مالك وبطرته، ونظيره عند قوله تعالى: ﵟإِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚﵞ[4] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين؛ لأن معنى التفسير أن تكون النكرة دالة على الجنس. وقيل: إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت ﵟفَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖﵞ أي: لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمنا قليلا كالذي يمر بها مسافرا فإنه يلبث فيها يوما أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها فيها إلا أياما قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. وقيل: إن الاستثناء يرجع إلى المساكن: أي لم تسكن بعد هلاك أهلا إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب، كذا قال الفراء، وهو قول ضعيف ﵟوَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَﵞ منهم؛ لأنهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم وأموالهم»[5].

قال المكي الناصري: «ذكّر كتاب اللَّه كل من عنده إلمام ولو قليل بما تعاقب على البشر من كوارث ونكبات، بأن الطغيان بالنعمة والغرور بها وسوء التصرف فيها، والاستكبار على الحق والخلق من أجلها، وعدم التوجه بالشكر إلى اللَّه الذي أنعم بها، يؤدي حتما إلى زوالها، وقطع دابر أهلها بالمرة، وذلك قوله تعالى: ﵟوَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ﵞ. وهذه الآية تحمل في طياتها تعريضا بأهل مكة، وإنذارا مباشرا لسادتها وكبرائها الذين ألفوا العيش الغض في رفاهية وترف لا نظير

(١) النحل الآيتان (١١٢و١١٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٧).
(٣) الأعراف الآية (١٥٥).
(٤) البقرة الآية (١٣٠).
(٥) فتح القدير (٤/ ٢٥٣-٢٥٤).

لهما عند بقية العرب، بفضل التجارة الواسعة التي كانوا يحتكرونها، ويسيرون قوافلها جنوبًا وشمالًا في ظلال الأمن الوارف، فما زادهم ذلك الأمن والاستقرار إلا استكبارا على استكبار»[1].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٣٨-٥٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾

★ غريب الآية:

أمها: أصلها، والمراد بها هنا مكة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي حوالي مكة في زمانك وعصرك ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ يقول: حتى يبعث في مكة رسولا وهي: أم القرى، يتلو عليهم آيات كتابنا، والرسول محمد ﷺ.. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ يقول: ولم نكن لنهلك قرية وهي بالله مؤمنة إنما نهلكها بظلمها أنفسها بكفرها بالله، وإنما أهلكنا أهل مكة بكفرهم بربهم وظلم أنفسهم»[1].

قال ابن كثير: «قال تعالى مخبرا عن عدله وأنه لا يهلك أحدا ظالما له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ وهي: مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[3] وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[4] وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ﴾[5] وتمام الدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾[6]. فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩٥-٩٦).
(٢) الشورى الآية (٧).
(٣) الأعراف الآية (١٥٨).
(٤) الأنعام الآية (١٩).
(٥) هود: الآية (١٧).
(٦) الإسراء الآية (٥٨).

﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[1] فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى لأنه رسول إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها، وثبت في الصحيحين عنه صلوات اللَّه وسلامه عليه أنه قال: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»[2]، ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي من بعده ولا رسول بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة، وقيل المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾ أي: أصلها وعظيمتها، كأمهات الرساتيق والأقاليم، حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما، وليس ببعيد»[3].

قال السعدي: «ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها.

﴿رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل: أن اللَّه لا يعذب أحدا إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه»[4].

قال المكي الناصري: «تعرض كتاب اللَّه في هذا السياق للحديث عن مبدأ أساسي في الإسلام يتجلى فيه العدل الإلهي المطلق، والرحمة الإلهية الواسعة، وهذا المبدأ الأساسي يتألف من شقين اثنين:

الشق الأول: أن اللَّه تعالى لا يعاقب قوما ولا يهلكهم إلا إذا تعدوا حدود اللَّه، وأصبح الظلم شيمتهم، والفساد في الأرض خطتهم، فلم يعودوا صالحين للخلافة عن اللَّه فيها بعمارتها، وحسن التصرف في طيباتها.

---

(١) الإسراء الآية (١٥).
(٢) سيأتي تخريجه قريبا.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٦).

والشق الثاني: أن اللَّه تعالى لا يهمل القوم الظالمين، ولكنه يمهلهم ويملي لهم، ويوجه إليهم الإنذار تلو الإنذار، والإعذار تلو الإعذار، عن طريق الرسل الذين يبعثهم إليهم، والكتب التي ينزلها عليهم، فإذا لم يستجيبوا لله ورسوله ولم يهتدوا بكتابه سقطت حجتهم، وبطلت معذرتهم، ونفذ قضاء اللَّه فيهم، فأهلكهم ماديا ومعنويا، اجتماعيا وسياسيا، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[1]. والمراد بالقرى في كلتا الآيتين نفس المدن الآهلة بالسكان، التي يكون لها من قوة الإشعاع والتوجيه شأن وأي شأن، لا ذلك المعنى المتعارف اليوم في تصنيف المدن والقرى، واعتبار القرية دون المدينة، و(أم القرى) هنا هي كبرى المدن التي تكون عاصمة لها أو بمنزلة العاصمة، كما كانت مكة عند ظهور الإسلام بالنسبة للعرب»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالته ﷺ للثقلين

* عن جابر بن عبداللَّه أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[3].

تقدم الكلام على غريبه وفوائده عند قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[4]، والأعراف عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾[5]، فالحمد لله على توفيقه.

* * *

---

(١) هود الآية (١١٧).
(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٣٩-٥٤٠).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤) والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١) والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).
(٤) الأنعام الآية (٩٢).
(٥) الأعراف الآية (١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده اللَّه لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[2] وقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[3] وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾[4].. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة»[5].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وما أعطيتم أيها الناس من شيء من الأموال والأولاد فإنما هو متاع تتمتعون به في هذه الحياة الدنيا، وهو من زينتها التي يتزين به فيها، لا يغني عنكم عند اللَّه شيئًا، ولا ينفعكم شيء منه في معادكم، وما عند اللَّه لأهل طاعته وولايته خير مما أوتيتموه أنتم في هذه الدنيا من متاعها وزينتها وأبقى، يقول: وأبقى لأهله، لأنه دائم لا نفاد له»[6].

قال السعدي: «هذا حض من اللَّه لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق من الذهب والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء والبنين، والمآكل والمشارب واللذات كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها؛ أي: يتمتع به وقتا قصيرا، متاعًا قاصرًا، محشوًّا بالمنغصات، ممزوجًا بالغصص، ويزين به زمانًا يسيرًا للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يستفد صاحبه منه

---

(١) النحل الآية (٩٦).
(٢) آل عمران الآية (١٩٨).
(٣) الرعد الآية (٢٦).
(٤) الأعلى الآيتان (١٦و١٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٨-٢٥٩).
(٦) جامع البيان (٢٠/ ٩٦).

إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبدًا، ومستمر سرمدًا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول بها تزنون أي الأمور أولى بالإيثار، وأي الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله»[1].

قال ابن عاشور: «لما ذكرهم اللّه بنعمه عليهم تذكيرا أدمج في خلال الرد على قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ بقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أعقبه بأن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأما ما عند اللّه من نعيم الآخرة من ذلك وأبقى لئلا يحسبوا أن ما هم فيه من الأمن والرزق هو الغاية المطلوبة فلا يتطلبوا ما به تحصيل النعيم العظيم الأبدي، وتحصيله بالإيمان. ولا يجعلوا ذلك موازنا لاتباع الهدى، وإن كان في اتباع الهدى تفويت ما هم فيه من أرضهم وخيراتها لو سلم ذلك. هذا وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها.. والمراد بكون ما عند اللّه خيرا، أن أجناس الآخرة خير مما أوتوه في كمال أجناسها، وأما كونه أبقى فهو بمعنى الخلود.

وتفرع على هذا الخبر استفهام توبيخي وتقريري على عدم عقل المخاطبين؛ لأنهم لما لم يستدلوا بعقولهم على طريق الخير نزلوا منزلة من أفسد عقله فسئلوا: أهم كذلك؟»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقارة الدنيا وزوالها

* عن المستورد أخي بني فهر مرفوعًا: **«واللّه ما الدنيا في الآخرة، إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار يحيى بالسبابة- في اليم، فلينظر بم يرجع»**[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٧). (٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٥٣-١٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٨-٢٢٩، ٢٢٩) ومسلم (٤/ ٢١٩٣/ ٢٨٥٨) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٤٨٦/ ٢٣٢٣) والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨٧/ ١١٧٩٧) وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «هذا مثل لحقارة الدنيا وقلتها، وهو نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[1] أي: كل شيء يُتمتع به في الدنيا من أولها إلى آخرها قليل، إذ لا بقاء له ولا صفو فيه، وهذا بالنسبة إلى نفسها، وأما بالنسبة إلى الآخرة، فلا خطر، ولا قدر للدنيا، وهذا هو المقصود بتمثيل هذا الحديث، حيث قال: «**فلينظر بماذا يرجع**». ووجه هذا التمثيل أن القدر الذي يتعلق بالإصبع من ماء البحر لا قدر له ولا خطر، وكذلك الدنيا بالنسبة إلى الآخرة»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا: «المثال السادس: تمثيله لها ﷺ بمدخل إصبعه في اليم، فالذي يرجع به إصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة.

وهذا أيضًا من أحسن الأمثال؛ فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فُرض أن السماوات والأرض مملوءتان خردلًا، وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفني الخردل والآخرة لا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل»[3].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأعظم الناس غرورا من اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد أنفع من النسيئة. ويقول بعضهم: ذرة منقودة ولا درة موعودة. ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين للشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله. والبهائم العجم أعقل من هؤلاء؛ فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت، وهؤلاء يقدم أحدهم على ما فيه عطبه، وهو ينظر إليه وهو بين مصدق ومكذب. فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن

---

(١) النساء الآية (٧٧).

(٢) المفهم (٧/ ١٢٥-١٢٦).

(٣) عدة الصابرين (ص٣٦٥).

باللَّه ورسوله فأبعد له.

وقول هذا القائل: النقد خير من النسيئة. فجوابه: إنه إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير. فكيف والدنيا كلها من أولها الى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة. كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع**».

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها الى الآخرة فما مقدار عمر الانسان بالنسبة الى الآخرة؟ فأيما أولى بالعاقل؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب، ليأخذ ما لا قيمة له، ولا حظر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده»[1].

* * *

(١) الداء والدواء (ص٧١-٧٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مَتَّعْنَاه: المتعة: كل منفعة توجب الالتذاذ.

المحضرين: جمع محضر، وهو المشاهد المعاين غير الغائب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده اللّه على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب بلقاء اللّه ووعده ووعيده، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياما قلائل، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: من المعذبين.

ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول اللّه ﷺ وفي أبي جهل، وقيل في حمزة وعلي وأبي جهل، وكلاهما عن مجاهد، والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه، وهو في الدرجات وذاك في الدركات فقال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[2]»[3].

قال السعدي: «نبه تعالى العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، فهو لاقيه من غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق

(١) الصافات الآية (٥٧).
(٢) الصافات الآية (١٥٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٩).

الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته، وجانب سخطه، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، ولم يرفع بهدى اللّٰه رأسا، ولم ينقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيرا لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثار»[1].

قال القنوجي: « ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بالجنة وما فيها من النعم التي لا تحصى ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: مدركه ومصيبه لا محالة، فإن اللّٰه لا يخلف الميعاد ولذلك جيء بالاسمية المفيدة لتحققه، وعطف بفاء السببية، والفاء الأول لترتيب إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاعها وبين ما عند اللّٰه ﷻ.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المشوب بالأكدار المستتبع للتحسر على الانقطاع، فأعطي منه بعض ما أراد مع سرعة زواله، وتنغيصه عن قريب. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿مَّتَّعْنَاهُ﴾ داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له، والمعنى ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا العذاب اقتضاه المقام. وفيه من التهويل ما لا يخفى؛ أي: ليس حالهما سواء فإن الموعود بالجنة لابد أن يظفر بما وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن.

وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرد التمتع بشيء من الدنيا، يستوي فيه هو والمؤمن، وينال كل واحد منهما حظه منه، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان؟»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٧-٤٨).

(٢) فتح البيان (١٠/ ١٣٨-١٣٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على المؤولين للصفات

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يقول اللَّه ﷻ: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول: رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، ويقول: يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، فيقول: أي رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول تبارك وتعالى: أما علمت أن عبدي فلانًا استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي. قال: ويقول: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني: فيقول: أي رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلانا استطعمك فلم تطعمه، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**»[١].

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «هذا الخبر ليس فيه فعل للعبد، وإنما فيه جوعه ومرضه.. فالخبر مقيد لم يطلق الخطاب إطلاقا وإنما بين أن عبده هو الذي مرض وهو الذي جاع، وقال: لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، ولم يقل لوجدتني أكلته. وقال: لو عدته لوجدتني عنده، ولم يقل لوجدتني إياه. والحديث خطاب مفسر مبين أن الرب ﷻ ليس هو العبد ولا صفته صفته، ولا فعله فعله، أكثر ما فيه استعمال لفظ الجوع والمرض مقيدا مبينا للمراد فلم يطلق الخطاب إطلاقا. وأيضًا فقد علم المخاطب أن الرب تعالى لا يجوع ولا يمرض فلم يكن فيه تلبيس لا من جهة السمع ولا من جهة العقل، بل المتكلم بين فيه مراده والمستمع له لم يشتبه عليه، بخلاف ما إذا أضيف لفعل العبد الذي يمكن منه الفعل، والفعل قد قام به، فإنه إذا جعل فعله فعل الرب لم يعقل هذا إلا إذا أريد أنه خالقه، وإذا أريد ذلك فالصواب أن يقال فعل العبد مخلوق للرب تعالى ومفعول له، لا يطلق أنه فعله لما فيه من التلبيس، ولما فيه من نفي فعل الرب، ولما فيه من نفي كون العبد فاعلا»[٢].

قال ابن القيم: «فتأمل قوله في الإطعام والإسقاء: لوجدت ذلك عندي، وقوله

---

(١) أخرجه: مسلم (٤/ ١٩٩٠/ ٢٥٦٩) والبخاري في الأدب المفرد (٥١٧).

(٢) الاستغاثة (١/ ٣٤٤-٣٤٥).

في العيادة: لوجدتني عنده ولم يقل لوجدت ذلك عندي إيذانا بقربه من المريض وأنه عنده لذله وخضوعه وانكسار قلبه وافتقاره إلى ربه، فأوجب ذلك وجود اللَّه عنده، هذا وهو فوق سمواته مستو على عرشه بائن من خلقه وهو عند عبده»[١].

قال ابن عثيمين: «هذا الحديث ليس فيه إشكال في قوله تعالى: «**مرضت فلم تعدني**»؛ لأن اللَّه تعالى يستحيل عليه المرض، لأن المرض صفة نقص، واللَّه ﷻ منزه عن كل نقص قال اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢] لكن المراد بالمرض مرض عبد من عباده الصالحين، وأولياء اللَّه ﷻ هم خاصته، ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي أيضًا: «**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب**»[٣] يعني: من يعادي أولياء اللَّه محارب لله ﷻ مع أنه وإن كان لم يعاد اللَّه على زعمه لكنه عادى أولياءه وحاربهم، كذلك إذا مرض عبد من عباد اللَّه الصالحين فإن اللَّه ﷻ يكون عنده، ولهذا قال: «**أما إنك لو عدته لوجدتني عنده**» ولم يقل: لوجدت ذلك عندي كما قال في الطعام والشراب بل قال: «**لوجدتني عنده**» وهذا يدل على قرب المريض من اللَّه ﷻ. ولهذا قال العلماء: إن المريض حري بإجابة الدعاء إذا دعا لشخص أو دعا على شخص، وفي هذا دليل على استحباب عيادة المريض وأن اللَّه ﷻ عند المريض وعند من عاده، لقوله: «**لوجدتني عنده**»..

«**يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني**» يعني طلبت منك طعاما فلم تطعمني، ومعلوم أن اللَّه تعالى لا يطلب الطعام لنفسه لقول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[٤] فهو غني عن كل شيء لا يحتاج لطعام ولا شراب، لكن جاع عبد من عباد اللَّه فعلم به شخص فلم يطعمه، قال اللَّه تعالى: «**أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**» يعني لوجدت ثوابه عندي مدخرا لك، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وفي هذا دليل على استحباب إطعام الجائع، وأن الإنسان إذا أطعم الجائع وجد ذلك عند اللَّه.

«**يا ابن آدم استسقيتك -أي طلبت منك أن تسقيني- فلم تسقني**» قال: كيف

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤١١). (٢) الصافات الآية (١٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٤١٤/ ٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) الأنعام الآية (١٤).

أسقيك وأنت رب العالمين! يعني لست في حاجة إلى طعام ولا شراب قال: «**أما علمت أن عبدي فلانا ظمئ أو استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي**» ففيه أيضًا دليل على فضيلة إسقاء من طلب منك السقيا، وأنك تجد ذلك عند اللَّه مدخرا، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»[1].

* * *

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٦-٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣﴾

★ **غريب الآية:**

تزعمون: تَدَّعُون. والزعم: القول على ظن أو علم.

أغوينا: من غوي يغوي، وهو الضال المنهمك في ضلاله لا يرده شيء.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[1].

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾[3] وقال

(١) الأنعام الآية (٩٤).

(٢) مريم الآيتان (٨١و٨٢).

(٣) الأحقاف الآيتان (٥و٦).

الخليل ﷺ لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[١]، وقال الله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾[٢]»[٣].

قال السعدي: «هذا إخبار من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ فأين هم بذواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟

ومن المعلوم أنه يتبين لهم في تلك الحال أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا منه، فيقرون على أنفسهم بالضلالة والغواية.

ولهذا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ التابعون ﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب. ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ من عبادتهم؛ أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين»[٤].

قال القنوجي: « ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب، بدخول النار، وهم رؤساء الضلال، الذين اتخذوهم أربابا من دون الله كذا قال الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الغواية، يعنون الأتباع في الكفر ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ أي: أضللناهم كما ضللنا، وآثروا الكفر على الإيمان، كما

---

(١) العنكبوت الآية (٢٥). (٢) البقرة الآيتان (١٦٦و١٦٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٩-٥٠).

آثرنا نحن وكنا السبب في كفرهم، فقبلوا منا، فلا فرق إذا بين غينا وغيهم، وإن كان تسويلنا لهم داعيا إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء اللّه تعالى لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد، والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر، وداعيا إلى الإيمان»[1].

قال تقي الدين الهلالي: «فائدة: المعبودون من دون اللّه قسمان أبرار وغيرهم، فالأبرار الملائكة والأنبياء كعيسى ابن مريم، والصالحون كأصل أصنام قوم نوح.

وغير الأبرار قسمان: قسم دعوا الناس إلى عبادتهم، أو رضوا بها، كفرعون والسدنة الأولين للأصنام، وسدنة القباب المعبودة، والقسم الثاني: الأصنام والأوثان، فالأصنام تماثيل الصالحين أو الأنبياء، ولو في نظر من يعبدونهم، والأوثان كل جماد عبد من دون اللّه كالشمس والقمر والنجوم والقباب والقبور والأشجار والأحجار والمياه والنار، وهؤلاء الشركاء المذكورون في هذه الآية من الصنف الأول من القسم الثاني، وهم الذين يدعون الناس إلى عبادتهم، أو يرضون بها، وذلك لقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾، أما قولهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ فهو تبرؤ لا ينفعهم لأنهم في دار الجزاء، وأما قولهم: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فإنه يحتمل وجهين، أحدهما نتبرأ إليك اليوم من عبادتهم لنا في دار الدنيا، والثاني أنهم كانوا يعبدون الشيطان الذي زين لهم عبادتنا، فإن كل عابد لغير اللّه هو عابد للشيطان كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾[2]، وقال تعالى في سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[3]»[4].

* * *

(١) فتح البيان (١٠/ ١٤٠).
(٢) النساء الآيتان (١١٧و١١٨).
(٣) يس الآيتان (٦٠و٦١).
(٤) سبيل الرشاد (٢/ ١٠٢-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وقيل للمشركين بالله الآلهة والأنداد في الدنيا ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين كنتم تدعون من دون الله ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ يقول: فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: يقول: وعاينوا العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ يقول: فودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق»[(١)].

قال ابن كثير: « ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

قال السعدي: «﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ على ما أملتم فيهم من النفع، فأمروا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾، فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي سيحل بهم عيانا بأبصارهم بعد ما كانوا مكذبين به، منكرين له.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩٨).

(٢) الكهف الآيتان (٥٢و٥٣)

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

عميت: خفيت.

الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ويوم ينادي اللَّه هؤلاء المشركين فيقول لهم: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما أرسلناهم به إليكم من دعائكم إلى توحيدنا والبراءة من الأوثان والأصنام ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾: يقول: فخفيت عليهم الأخبار، من قولهم: قد عمي عني خبر القوم: إذا خفي، وإنما عني بذلك أنهم عميت عليهم الحجة فلم يدروا ما يحتجون؛ لأن اللَّه تعالى قد كان أبلغ إليهم في المعذرة، وتابع عليهم الحجة فلم تكن لهم حجة يحتجون بها، ولا خبر يخبرون به مما تكون لهم به نجاة ومخلص.. وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالأنساب والقرابة.. وقيل معنى ذلك: فعميت عليهم الحجج يومئذ فسكتوا فهم لا يتساءلون في حال سكوتهم»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا اللَّه وأن محمدا عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، ولهذا قال تعالى:

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩٨-٩٩).

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب»[١].

قال البقاعي: «ولما أشار إلى أنه لا خلاص من ذلك الردى إلا بالهدى، أتبعه الإعلام بأنه لا يمكن أحدا هناك أن يفعل ما قد يروج على سائله كما يفعل في هذه الدار من إظهار ما لم يكن، فقال مكررا لتهويل ذلك اليوم وتبشيعه وتعظيمه وتفظيعه، سائلا عن حق رسله عليهم الصلاة والسلام بعد السؤال عن حقه سبحانه، مناديا بعجز الشركاء في الأخرى كما كانوا عاجزين في الأولى ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ وهم بحيث يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، قد برزوا لله جميعًا، من كان منهم عاصيا، ومن كان مطيعا في صعيد واحد، قد أخذ بأنفاسهم الزحام، وتراكبت الأقدام على الأقدام، وألجمهم العرق، وعمهم الغرق ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ﴾ أي: أوضحوا، أو عينوا جوابكم الذي ﴿أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: به، ولما لم يكن لهم قدم صدق ولا سابق حق بما أتتهم الرسل به من الحجج، وتابعت عليهم من الأدلة، لم يكن لهم جواب إلا السكوت، وهو المراد بقوله: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ أي خفيت وأظلمت في غواية ولجاج ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي: الأخبار التي هي من العظمة بحيث يحق لها في ذلك اليوم أن تذكر، وهي التي يمكن أن يقع بها الخلاص، وعداه بعلى إشارة إلى أن عماها وقع عليهم، فعم الكل العمى فصاروا بحيث لا تهتدي الأنباء لعماها إليهم لتجددها، ولا يهتدون إليها لانتشار عماها إليهم، وهذا كله إشارة إلى أنهم لم يقدموا عملا في إجابة الرسل بحق أن يذكر في ذلك اليوم، بل أسلفوا من التكذيب والإساءة ما يودون لو أن بينهم وبينه أمدا بعيدا، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكريرا لتخويف ذلك اليوم وتهويله، وتقريرا لتعظيمه وتبجيله.

ولما تسبب عن هذا السؤال السكوت علما منهم بأنه ليس عند أحد منهم ما يغني في جوابه من حسن القول وصوابه، وأنهم لا يذكرون شيئًا من المقال إلا عاد عليهم بالوبال، قال مترجما عن ذلك: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل أحد منهم أحدا عن شيء يحصل به خلاص، لعلمهم أنه قد عمهم الهلاك، ولات حين مناص، ولأن كل منهم أبغض الناس في الآخرة»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٠). (٢) نظم الدرر (١٤/ ٣٣٦-٣٣٨).

قال السعدي: « ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ هل صدقتموهم، [واتبعتموهم] أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جوابا، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا يُنجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذبا»[(١)].

قال تقي الدين الهلالي: «قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: هل قلتم لهم سمعنا وأطعنا، أو قلتم سمعنا وعصينا، فمن قال سمعنا وأطعنا فهم المسلمون، فإن قالوها ظاهرا وباطنا فهم المخلصون إذا نجوا من الرياء والسمعة، وهم السعداء الذين ﷺ ورضوا عنه، وإن قالوها بألسنتهم دون قلوبهم وأعمالهم، فهم المنافقون والمتمذهبون المقلدون، إذا وجدوا حجة من كتاب اللَّه أو سنة رسوله تخالف مذهبهم، أو تخالف ما وجدوا عليه آباءهم، رفضوا قبولها وأصروا على اتباع آبائهم وعادات بلادهم، فهم من المنافقين.. وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لا يجدون جوابا، فيكبتون حين يصرح الأئمة ببراءتهم منهم ويقولون: تبرأنا إليك ما أمرناهم بتقليدنا، ولا باتخاذ المذاهب والتعصب لها، وإنا كنا نأمر الناس باتباع كتابك وسنة نبيك يا رب، فيسقط في أيديهم ويندمون حين لا يفيد الندم»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الكلام

* عن عبداللَّه بن عُكيم قال: سمعت عبداللَّه بن مسعود في هذا المسجد يبدأ باليمين قبل الكلام، فقال: ما منكم من أحد إلا أن ربه سيخلو به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ما غرك بي؟ ابن آدم ما غرك بي؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٠-٥١).

(٢) سبيل الرشاد (٢/ ١٠٣).

ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟»[١].

★ **فوائد الحديث:**

بوّب البيهقي في «الأسماء والصفات»: «باب ما جاء في إثبات صفة التكليم والتكلم والقول. وقال اللَّه جل ثناؤه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[٢] فوصف نفسه بالتكليم ووكده بالتكرار، فقال: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[٣]، وقال -جل وعلا-: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾[٤] وذكر في غير آية من كتابه ما كلم به موسى ﵇ فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾[٥] إلى قوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾[٦] وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٧] فهذا كلام سمعه موسى ﵇ بإسماع الحق إياه، بلا ترجمان بينه

---

(١) أخرجه موقوفًا: ابن المبارك في الزهد (١/ ١٢٨/ ٣٢) والطبراني (٩/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٨٨٩٩-٨٩٠٠) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣١) والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٧/ ٧٠/ ٩٣٤٥)، من طرق عن هلال الوزان عن عبداللَّه بن عُكيم قال: سمعت ابن مسعود ﵁، فذكره.

قلت: في بعض الطرق شريك بن عبداللَّه القاضي المعروف وهو سيئ الحفظ إلا أنه لم يتفرد به فقد تابعه أبو عوانة عند الطبراني وكذا عند أبي نعيم.

وأخرج الطرف الأخير منه مرفوعًا: الطبراني في الأوسط (١/ ٢٧٩/ ٤٥٢) من طريق إسحاق بن عبداللَّه التميمي قال: حدثنا شريك عن هلال، فذكره. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٧) وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» موقوفًا وروى بعضه مرفوعًا في «الأوسط»: «عبدي ما غرّك بي؟ ماذا أجبت المرسلين؟» ورجال «الكبير» رجال الصحيح غير شريك بن عبداللَّه وهو ثقة وفيه ضعف، ورجال «الأوسط» فيهم شريك أيضًا وإسحاق بن عبداللَّه التميمي ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح».

وورد الجزء الأول منه مرفوعًا أيضًا عن عدي بن حاتم ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**». أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٦، ٣٧٧) والبخاري (١١/ ٤٨٨/ ٦٥٣٩) ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤/ ١٠١٦[٦٧]) والترمذي (٤/ ٥٢٨/ ٢٤١٥) وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٥).

(٢) النساء الآية (١٦٤).

(٣) الأعراف الآية (١٤٣).

(٤) البقرة الآية (٢٥٣).

(٥) طه الآيات (١١-١٤).

(٦) طه الآية (٤١).

(٧) الأعراف الآية (١٤٤).

وبينه، دله بذلك على ربوبيته، ودعاه إلى وحدانيته، وأمره بعبادته، وإقامة الصلاة لذكره، وأخبر أنه اصطنعه لنفسه، واصطفاه برسالاته وبكلامه، وأنه مبعوث إلى الخلق بأمره»[1].

وقد مضى الحديث عن صفة الكلام في سورة النساء الآية (١٦٤).

* * *

---

(١) الأسماء والصفات (١/ ٤٨٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من المشركين فأناب وراجع الحق وأخلص لله الألوهة وأفرد له العبادة فلم يشرك في عبادته شيئًا ﴿وَءَامَنَ﴾ يقول: وصدق بنبيه محمد ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يقول: وعمل بما أمره اللَّه بعمله في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ يقول: فهو من المنجحين المدركين طلبتهم عند اللَّه، الخالدين في جنانه، وعسى من اللَّه واجب»[(١)].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب اللَّه تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن باللَّه فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحًا متبعا فيه للرسل، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور»[(٢)].

* * *

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾

★ غريب الآية:

الخيرة: الاختيار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه، وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفي على أصح القولين كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1]، وقد اختار ابن جرير أن «ما» ههنا بمعنى الذي، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح، والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره، أيضًا فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئا»[2].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة، أي الاختيار إلى اللّه تعالى في الشفعاء لا إلى المشركين. وقيل: هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[3] يعني: نفسه زعم وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. وقيل: هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل

---

(١) الأحزاب الآية (٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦١).

(٣) الزخرف الآية (٣١).

لآمنا به. قال ابن عباس: والمعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته. وقال يحيى بن سلام: والمعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته. وحكى النقاش: والمعنى: وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعني محمدًا ﷺ ويختار الأنصار لدينه.. والوقف التام (ويختار). وقال علي بن سليمان: هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون (ما) في موضع نصب بـ(يختار) لأنها لو كانت في موضع نصب لم يعد عليها شيء. قال: وفي هذا رد على القدرية قال النحاس: التمام (ويختار) أي: ويختار الرسل ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس يرسل من اختاروه هم. قال أبو إسحاق: (ويختار) هذا الوقف التام المختار، ويجوز أن تكون (ما) في موضع نصب بـ(يختار)، ويكون المعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. قال القشيري: الصحيح الأول لإطباقهم على الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل السنة، و(ما) من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة اللَّه ﷻ. الزمخشري: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيان لقوله: (ويختار)؛ لأن معناه يختار ما يشاء، ولهذا لم يدخل العاطف، والمعنى إن الخيرة لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها؛ أي: ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. وأجاز الزجاج وغيره أن تكون (ما) منصوبة بـ(يختار). وأنكر الطبري أن تكون (ما) نافية؛ لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل؛ ولأنه لم يتقدم كلام بنفي. قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأن (ما) تنفي الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبي ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخيرة من خلقه؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه، كما اختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم، فـ(ما) على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي، و(الخيرة) رفع بالابتداء و(لهم) الخبر والجملة خبر (كان)، وشبهه بقولك: كان زيد أبوه منطلق، وفيه ضعف؛ إذ ليس في الكلام عائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد. وقد روي معنى ما قاله الطبري

عن ابن عباس. قال الثعلبي: و(ما) نفي؛ أي: ليس لهم الاختيار على الله. وهذا أصوب كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1]. قال محمد الوراق:

توكل على الرحمن في كل حاجة ... أردت فإن الله يقضي ويقدر

إذا ما يرد ذو العرش أمرًا بعبده ... يصبه وما للعبد ما يتخير

وقد يهلك الإنسان من وجه حذره ... وينجو بحمد الله من حيث يحذر

وقال آخر:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر ... والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خلقنا ... وفي اختيار سواه اللوم والشوم

قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة»[2].

وانظر كلام ابن جرير[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء الاستخارة وما فيه من العقائد العظيمة

* عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن: «**إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري -أو قال: في عاجل أمري وآجله- فاقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري -أو قال: في عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم**

---

(١) الأحزاب الآية (٣٦).

(٢) جامع أحكام القرآن (١٣/ ٢٠١-٢٠٢).

(٣) جامع البيان (٢٠/ ٩٩-١٠٢).

رضِّني به. ويسمي حاجته[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «الاستخارة هي استفعال من الخير أو من الخيرة بكسر أوله وفتح ثانيه بوزن العنبة اسم من قولك خار اللَّه له، واستخار اللَّه طلب منه الخيرة، وخار اللَّه له أعطاه ما هو خير له، والمراد طلب خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما»[٢].

قال ابن بطال: «فقه هذا الحديث: أنه يجب على المؤمن رد الأمور كلها إلى اللَّه، وصرف أزمتها والتبرؤ من الحول والقوة إليه، وينبغي له أن لا يروم شيئًا من دقيق الأمور وجليلها حتى يستخير اللَّه فيه ويسأله أن يحمله فيه على الخير ويصرف عنه الشر؛ إذعانًا بالافتقار إليه في كل أمره والتزامًا لذلة العبودية له، وتبركًا باتباع سنة نبيه ﷺ في الاستخارة، ولذلك كان النبي ﷺ يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن لشدة حاجتهم إلى الاستخارة في الحالات كلها كشدة حاجتهم إلى القراءة في كل الصلوات، وفي هذا الحديث حجة على القدرية الذين يزعمون أن اللَّه تعالى لا يخلق الشر، تعالى اللَّه عما يفترون، وقد أبان النبي ﷺ في هذا الحديث أن اللَّه تعالى هو المالك للشر والخالق له؛ إذ هو المدعو لصرفه عن العبد، ومحال أن يسأله العبد أن يصرف عنه ما يملكه العبد من نفسه، وما يقدر على اختراعه دون تقدير اللَّه عليه»[٣].

قوله: «**في الأمور كلها**»: **قال الحافظ**: «قال ابن أبي جمرة: هو عامّ أريد به الخصوص، فإن الواجب والمستحب لا يستخار في فعلهما، والحرام والمكروه لا يستخار في تركهما، فانحصر الأمر في المباح وفي المستحب إذا تعارض منه أمران أيهما يبدأ به ويقتصر عليه. قلت: وتدخل الاستخارة فيما عدا ذلك في الواجب والمستحب المخير، وفيما كان زمنه موسعًا، ويتناول العموم العظيم من الأمور والحقير، فرُبَّ حقير يترتب عليه الأمر العظيم»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤٤) والبخاري (١١/ ٢١٨-٢١٩/ ٦٣٨٢) وأبو داود (٢/ ١٨٧-١٨٨/ ١٥٣٨) والترمذي (٢/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٤٨٠) والنسائي (٦/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٣٢٥٣) وابن ماجه (١/ ٤٤٠/ ١٣٨٣).

(٢) الفتح (١١/ ٢١٩).

(٣) شرح ابن بطال (١٠/ ١٢٣).

(٤) فتح الباري (١١/ ٢٢٠).

وقال ابن أبي جمرة: «الحكمة هنا هي أنه لما أن كان هذا الدعاء من أكبر الأشياء، إذ أنه ﷺ أراد به الجمع بين صلاح الدين والدنيا والآخرة، فطالب هذه الحاجة يحتاج إلى قرع باب الملك بأدب وحال يناسب ما يطلب، ولا شيء أرفع مما يقرع به باب المولى من الصلاة، لما فيها من الجمع بين التعظيم لله سبحانه، والثناء عليه، والافتقار إليه حالًا ومقالًا، وذكره ﷻ، وتلاوة كتابه الذي به مفاتح الخير من الشفاء والهدى والرحمة وغير ذلك مما هو فيه منصوص»[١].

قال ابن القيم: «لما كان العبد يحتاج في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده إلى علم ما فيه من المصلحة وقدره عليه وتيسره له، وليس له من نفسه شيء من ذلك، بل علمه ممن علم الإنسان ما لم يعلم، وقدرته منه، فإن لم يقدره عليه وإلا فهو عاجز، وتيسيره منه، فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسر عليه بعد إقداره، أرشده النبي صلى اللَّه تعالى عليه وسلم إلى محض العبودية، وهو جلب الخيرة من العالم بعواقب الأمور وتفاصيلها، وخيرها وشرها، وطلب القدرة منه، فإنه إن لم يقدره وإلا فهو عاجز، وطلب فضله منه فإن لم ييسره له ويهيئه له وإلا فهو متعذر عليه، ثم إذا اختاره له بعلمه وأعانه عليه بقدرته ويسره له من فضله فهو يحتاج إلى أن يبقيه عليه، ويديمه بالبركة التي يضعها فيه، والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قدر زائد على إقداره عليه وتيسيره له، ثم إذا فعل ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه به فإنه قد يهيء له ما يكرهه فيظل ساخطا، ويكون قد خار اللَّه له فيه»[٢].

وقال -في باب: ما جاء في السنة من تفرد الرب تعالى بخلق أعمال العباد كما هو متفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم-:

«**إذا هم أحدكم بالأمر**» صريح في أنه الفعل الاختياري المتعلق بإرادة العبد، وإذا علم ذلك فقوله: «**استقدرك بقدرتك**» أي: أسألك أن تقدرني على فعله بقدرتك، ومعلوم أنه لم يسأل القدرة المصححة التي هي سلامة الأعضاء وصحة البنية، وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل، فعلم أنها مقدورة لله ومخلوقة له، وأكد ذلك بقوله: «**فإنك تقدر ولا أقدر**» تقدر أن تجعلني قادرا فاعلا، ولا أقدر أن

---

(١) بهجة النفوس (٢/ ٨٨).

(٢) شفاء العليل (١/ ١٠٢).

أجعل نفسي كذلك. وكذلك قوله: «**تعلم ولا أعلم**» أي: حقيقة العلم بعواقب الأمور ومآلها والنافع منها والضار عندك وليس عندي. وقوله: «**يسره لي أو اصرفه عني**» فإنه طلب من اللَّه تيسيره إن كان له فيه مصلحة، وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة، وهذا التيسير والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل في القلب، أو إلقاء داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل وداعية الترك امتنع الفعل، وعند القدرية ترجيح فاعلية العبد على الترك منه ليس للرب فيه صنع ولا تأثير، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم؛ فإن تيسير الأسباب التي لا قدرة للعبد عليها موجود ولم يسأله العبد. وقوله: «**ثم رضني به**» يدل على أن حصول الرضا وهو فعل اختياري من أفعال القلوب، أمر مقدور للرب تعالى، وهو الذي يجعل نفسه راضيا. وقوله: «**فاصرفه عني واصرفني عنه**» صريح في أنه سبحانه هو الذي يصرف عبده عن فعله الاختياري، إذا شاء صرفه عنه كما قال تعالى في حق يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[1]، وصرف السوء والفحشاء هو صرف دواعي القلب وميله إليهما فينصرفان عنه بصرف دواعيهما. وقوله: «**واقدر لي الخير حيث كان**» يعم الخير المقدور للعبد من طاعته وغير المقدور له، فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير أمر مقدور لله إن لم يقدره اللَّه للعبد لم يقع من العبد.

ففي هذا الحديث الشفاء في مسألة القدر، وأمر النبي ﷺ الداعي به أن يقدم بين يدي هذا الدعاء ركعتين عبودية منه بين يدي نجواه، وأن يكونا من غير الفريضة ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب. ولما كان الفعل الاختياري متوقفا على العلم والقدرة والإرادة لا يحصل إلا بها توسل الداعي إلى اللَّه بعلمه وقدرته وإرادته التي يؤتيه بها من فضله، وأكد هذا المعنى بتجرده وبراءته من ذلك فقال: «**إنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر**» وأمر الداعي أن يعلق التيسير بالخير والصرف بالشر وهو علم اللَّه سبحانه تحقيقا للتفويض إليه، واعترافا بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه، ففي هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها، وباللَّه المستعان»[2].

* * *

---

(١) يوسف الآية (٢٤).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٨٤-٢٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾

★ **غريب الآية:**

تكن: تخفي وتستر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وربك يا محمد يعلم ما تخفي صدور خلقه؛ وهو من أكننت الشيء في صدري: إذا أضمرته فيه، وكننت الشيء: إذا صنته ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يقول: وما يبدونه بألسنتهم وجوارحهم، وإنما يعني بذلك أن اختيار من يختار منهم للإيمان به على علم منه بسرائر أمورهم وبواديها، وأنه يختار للخير أهله فيوفقهم له، ويولي الشر أهله ويخليهم وإياه، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول تعالى ذكره: وربك يا محمد المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له ولا معبود تجوز عبادته غيره ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يقول: وله القضاء بين خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: وإليه تردون من بعد مماتكم فيقضي بينكم بالحق»[1].

قال ابن كثير: « ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ أي: يعلم ما تكن الضمائر وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾[2] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في جميع ما

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٠٢).

(٢) الرعد الآية (١٠).

يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا معقب له لقهره وغلبته، وحكمته ورحمته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال»[1].

قال المكي الناصري: «ذكر كتاب اللَّه الناس أجمعين بحقيقة التوحيد الكبرى القائمة إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: المنفرد وحده بالألوهية والربوبية، وتدبير الكون إيجادا وإمدادا ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: له الحمد في الأولى على رزقه ونعمته، وله الحمد في الآخرة على عدله ورحمته، وله الحمد فيهما على تدبيره وحكمته، فلا يفعل ربك إلا خيرا، أما الحمد في الدنيا فجميع الخلائق تحمده بلسان الحال دائما، وبلسان المقال أحيانا ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2]، وأما الحمد في الآخرة فمصداقه ما يجري على ألسنة الذين اصطفاهم اللَّه من عباده عند لقائه إذ يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3]، وما يجري على ألسنة المتقين الذين فتحت لهم أبواب الجنة، وقال لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ إذ يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾[4] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي له الحكم المطلق المناسب لجلاله وكماله، الذي لا يتأثر بشهوة، ولا يصدر عن هوى، والحكم الأوفق بطبيعة الإنسان والأضمن لمصلحته شرعا وقدرا، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[6] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾[7] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾[8]. ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أحببتم أم كرهتم، فرادى كما خلقكم أول مرة ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾[9]»[10].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦١).
(٢) الإسراء الآية (٤٤).
(٣) فاطر الآية (٣٤).
(٤) الزمر: الآيتان (٧٣و٧٤).
(٥) يونس الآية (١٠).
(٦) الرعد الآية (٤١).
(٧) المائدة الآية (٥٠).
(٨) التين الآية (٨).
(٩) الأنعام الآية (٩٤).
(١٠) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٤٣-٥٤٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

★ غريب الآية:

سرمدًا: السرمد: الدائم غير المنقطع. مأخوذ من السرد، وهو التتابع والاستمرار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: أيها القوم أرأيتم إن جعل اللّه عليكم الليل دائما لا نهار إلى يوم القيامة يعقبه، والعرب تقول لكل ما كان متصلا لا ينقطع من رخاء أو بلاء أو نعمة هو سرمد.. وقوله: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ يقول: من معبود غير المعبود الذي له عبادة كل شيء يأتيكم بضياء النهار فتستضيئون به ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يقول: أفلا ترعون ذلك سمعكم، وتفكرون فيه فتتعظون، وتعلمون أن ربكم هو الذي يأتي بالليل ويذهب بالنهار إذا شاء، وإذا شاء أتى بالنهار وذهب بالليل، فينعم باختلافهما كذلك عليكم.. يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي قومك ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ دائما لا ليل معه أبدا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ من معبود غير المعبود الذي له عبادة كل شيء ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ فتستقرون وتهدءون فيه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم، رحمة من اللّه لكم، وحجة منه عليكم، فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره ولمن له

القدرة التي خالف بها بين ذلك، يقول تعالى ذكره ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بكم أيها الناس ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فخالف بينهما فجعل هذا الليل ظلاما ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾، وتهدءوا وتستقروا لراحة أبدانكم فيه من تعب التصرف الذي تتصرفون نهارا لمعايشكم، وفي الهاء التي في قوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ وجهان: أحدهما: أن تكون من ذكر الليل خاصة، ويضمر للنهار مع الابتغاء هاء أخرى. والثاني: أن تكون من ذكر الليل والنهار، فيكون وجه توحيدها وهي لهما وجه توحيد العرب في قولهم: إقبالك وإدبارك يؤذيني، لأن الإقبال والإدبار فعل، والفعل يوحد كثيره وقليله، وجعل هذا النهار ضياء تبصرون فيه فتتصرفون بأبصاركم فيه لمعايشكم، وابتغاء رزقه الذي قسمه بينكم بفضله الذي تفضل عليكم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولتشكروه على إنعامه عليكم بذلك، فعل ذلك بكم لتفردوه بالشكر، وتخلصوا له الحمد؛ لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم بذلك شريك، فلذلك ينبغي أن لا يكون له شريك في الحمد عليه»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ممتنا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس، وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: تبصرون به، وتستأنسون بسببه ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمدا أي: دائما مستمرا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان، وكلت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٠٣-١٠٤).

شُكُورًا﴾[١]، والآيات في هذا كثيرة»[٢].

قال الشوكاني: « ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في النهار بالسعي في المكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولكي تشكروا نعمة اللّٰه عليكم، وهذه الآية من باب اللف والنشر، كما في قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكنا، وطلب الرزق في الليل ممكنا، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند الاستضاءة بشيء بما له نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به»[٣].

قال السعدي: «هذا امتنان من اللّٰه على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل اللّٰه، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، والليل ليهدأوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده.

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مواعظ اللّٰه وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستنير بصائركم، وتسلكوا الطريق المستقيم.

وقال في الليل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وفي النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار. وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم اللّٰه عليه، ويستبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمرا، ولا يزال، وعمي قلبه عن

---

(١) الفرقان الآية (٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٢٥٨-٢٥٩).

الثناء على اللَّه بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر»[١].

قال ابن القيم: «تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور؟ ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء، ولا قرار مع فرط الحاجة الى السبات، وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس، واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار، لأنه وقت هدوء الأصوات، وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾. وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع الى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٣-٥٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٠-٥١).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره: ويوم ينادي ربك يا محمد هؤلاء المشركين فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أيها القوم في الدنيا أنهم شركائي، وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وأحضرنا من كل جماعة شهيدها؛ وهو نبيها الذي يشهد عليها بما أجابته أمته فيما أتاهم به عن اللّه من الرسالة. وقيل: ونزعنا من قوله: نزع فلان بحجة كذا بمعنى: أحضرها وأخرجها.. وقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ يقول: فقلنا لأمة كل نبي منهم التي ردت نصيحته، وكذبت بما جاءها به من عند ربهم إذ شهد نبيها عليها بإبلاغه إياها رسالة اللّه ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ يقول: فقال لهم: هاتوا حجتكم على إشراككم باللّه ما كنتم تشركون مع إعذار اللّه إليكم بالرسل، وإقامته عليكم بالحجج.. وقوله: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ يقول: فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم، وأن الحق لله، والصدق خبره، فأيقنوا بعذاب من اللّه لهم دائم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يقول: واضمحل فذهب الذي كانوا يشركون باللّه في الدنيا، وما كانوا يتخرصون، ويكذبون على ربهم، فلم ينفعهم هنالك بل ضرهم وأصلاهم نار جهنم»[١].

قال ابن كثير: «وهذا أيضًا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع اللّه إلها آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في دار الدنيا ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني رسولا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٠٤-١٠٥).

﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره، فلم ينطقوا، ولم يحيروا جوابا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم»[1].

قال السعدي: «أي: ويوم ينادي اللَّه المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد اللَّه أن يظهر جراءتهم وكذبهم في زعمهم، وتكذيبهم لأنفسهم فـ ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[2] فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المكذبة ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين؛ أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: حجتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئًا من الإلهية؟ هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم من عذاب اللَّه، أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية، وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلجت حجة اللَّه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب والإفك، واضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن اللَّه قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها»[3].

قال المكي الناصري: «هذا خطاب موجه إلى كل من يجادل في صحة الإيمان وصدق القرآن يطالبه -إن استطاع- بتقديم الحجة والبرهان، حتى إذا ما عجز عن الاحتجاج لإثبات معتقده، سقط في يده، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

والمراد بالشهيد هنا على سبيل الأصالة رسول كل أمة، فهو الذي يشهد على

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٢).
(٢) يونس الآية (٦٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٤-٥٥).

أمته ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾[1]، ويشهد لهذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[2]، ويندرج تحت كلمة (شهيد) بالتبع للرسول مجموع الشهداء من أمته، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3]»[4].

* * *

(١) المائدة الآية (١٠٩).

(٢) النساء الآية (٤١).

(٣) البقرة الآية (١٤٣).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٤٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

بغى: البغي: تجاوز الحق إلى الباطل، وهو بمعنى الظلم.

الكنوز: جمع كنز، وهو المال المخبوء في الأرض.

تنوء: ناء بالحمل: نهض به مع ثقله.

العصبة: الجماعة يتعصب بعضهم لبعض. ومثلها: العصابة.

ابتغ: اطلب والتمس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل]، وفعل به، ونصح ووعظ، فقال: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن اللَّه عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه، وطغى بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: كنوز الأموال شيئًا كثيرا، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك؛ أي: حتى أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن اللَّه لا يحب الفرحين بها، المنكبين على محبتها.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند اللَّه، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، ﴿وَأَحۡسِن﴾ إلى عباد اللَّه ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي اللَّه، والاشتغال بالنعم عن المنعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة»[1].

قال المكي الناصري: «ها هو كتاب اللَّه بعدما عرض من القصة الأولى ما يعزز مركز الرسول ويؤكد صدق رسالته، ويكون عبرة له ولأمته، يشرع في الحديث عن قصة قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم. ومن وصف كتاب اللَّه لقارون وقصته يكتشف المؤمنون نموذجا غريبا من حياة المترفين الأغرار، وما هم عليه من كبر وبطر وعتو واستكبار، ويشاهدون الصراع القائم بين العلم السطحي الأعمى الذي هو أسير الشهوة والأثرة والأنانية، والعلم العميق المستنير الذي هو المعيار الصحيح لتمييز الحق من الباطل، والنعيم الباقي من النعيم الزائل.

يقول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ وبذلك يثبت لقارون صفة البغي والظلم، وأنه لم يرقب في قومه إلاً ولا ذمة، وهذه الصفة وحدها كافية لأن ينال من أجلها العقاب الإلهي الصارم «**فالظلم ظلمات يوم القيامة**»[2] «**ودعوة المظلوم ليس بينها وبين اللَّه حجاب**»[3] كما جاء في الحديث الشريف.

ويقول اللَّه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ إشارة إلى الثراء الواسع الذي أصبح يتقلب فيه، حتى إن مفاتح خزائنه وحدها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٦-٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣٧) والبخاري (٥/ ١٢٧/ ٢٤٤٧) ومسلم (٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٧٩) والترمذي (٤/ ٣٣٠-٣٣١/ ٢٠٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٣) والبخاري (٣/ ٤٥٥/ ١٤٩٦) ومسلم (١/ ٥٠-٥١/ ١٩) وأبو داود (٢/ ٢٤٢-٢٤٣/ ١٥٨٤) والترمذي (٣/ ٢١/ ٦٢٥) والنسائي (٥/ ٥٨-٥٩/ ١٥٨٤) وابن ماجه (١/ ٥٦٨/ ١٧٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أصبحت من كثرة كنوزه وتنوع مدخراته تكون حملا ثقيلا يعجز عن ضبط أمره والنهوض به الجمع القوي من الخدم والحشم. وكون قارون ممن يكنز المال ولا ينفقه في سبيل اللّه، ولا يشرك في النفع به أحدا من عباد اللّه، كاف ليجعله موضع غضب اللّه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

ويرى عقلاء القوم المتبصرون في سلوك قارون المنحرف وعمله الفاسد ما يثير الاشمئزاز ويستحق الانتقاد، ولا سيما ما هو عليه من المبالغة في الإعجاب بالنفس والاستعلاء على العباد، ويحاولون أن يسدوا إليه النصح الخالص والموعظة الحسنة، عسى أن يصلح خطأه ويقوم اعوجاجه، ويندرج في عداد من يصدق عليهم مثل قول الرسول الأعظم: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[2] وذلك ما حكاه كتاب اللّه عنهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ لكنه لا يلبث أن يرد عليهم رد الجاهلين الذي أمنوا مكر اللّه، ولا يعترفون بأي فضل لله. وبينما يقول اللّه تعالى ممتنا على قارون ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ مثبتا أن العطاء كله إنما هو منه وإليه، ويقول له عقلاء قومه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ موقنين بأن ما آل إليه من المال إنما استخلفه اللّه فيه، وجعله وديعة بين يديه، إذا به يرد عليهم في صلف وغرور، منكرا منة اللّه، ومتجاهلا كل من له حق في المال من ضعفاء عباد اللّه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. أما نصيب الإنسان من دنياه الذي تشير إليه الآية ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو أن يعيش ويأكل ويشرب غير مضيق عليه، حسبما فسره الإمام مالك»[3].

قال ابن العربي معلقًا على قول الإمام مالك: «أرى مالكا أراد الرد على من يرى من الغالين في العبادة التقشف والتقصف والبأساء؛ فإن النبي ﷺ كان يأكل الحلوى،

---

(١) التوبة الآية (٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) وابن حبان (٨/ ٦/ ٣٢١٠ الإحسان) والحاكم (٢/ ٢) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٤٩-٥٥١).

ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد؛ ولهذا قال الحسن: أمر أن يأخذ من ماله قدر عيشه، ويقدم ما سوى ذلك لآخرته.

وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس الحلال، فهو نصيبك من الدنيا، ويا ما أحسن هذا»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾[2] بين أن قارون أوتيها واغتر بها، ولم تعصمه من عذاب اللَّه كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه»[3].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: استعمل ما وهبك اللَّه من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح اللَّه فيها من المآكل، والمشارب، والملابس، والمساكن، والمناكح، فإن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا، فآت كل ذي حق حقه ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق اللَّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة قارون وما فيها من العبر ومعارضته للنبوة والرسالة وادعاؤه على أن ما أوتي فعلى علم، فأخذه اللَّه أخذ عزيز مقتدر

* عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قال: كان ابن

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٨٣).

(٢) القصص: الآية (٦٠).

(٣) جامع أحكام القرآن (١٣/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٤).

عمه، وكان موسى يقضي في ناحية بني إسرائيل، وقارون في ناحية قال: فدعا بغية كانت في بني إسرائيل، فجعل لها جعلا على أن ترمي موسى بنفسها، فتركته إذا كان يوم تجتمع فيه بنو إسرائيل إلى موسى أتاه قارون، فقال: يا موسى ما حد من سرق؟ قال: أن تنقطع يده قال: وإن كنت أنت؟ قال: نعم قال: فما حد من زنى؟ قال: أن يرجم قال: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قال: فإنك قد فعلت قال: ويلك بمن؟ قال: بفلانة. فدعاها موسى فقال: أنشدك بالذي أنزل التوراة أصدق قارون؟ قالت: اللهم إذ نشدتني فإني أشهد أنك بريء، وأنك رسول اللَّه وأن عدو اللَّه قارون جعل لي جعلا على أن أرميك بنفسي. قال: فوثب موسى فخر ساجدا لله، فأوحى اللَّه إليه: أن ارفع رأسك فقد أمرت الأرض أن تطيعك، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم حتى بلغوا الحقو. قال: يا موسى. قال: خذيهم فأخذتهم حتى بلغوا الصدور. قال: يا موسى قال: خذيهم. قال: فذهبوا. قال فأوحى اللَّه إليه: يا موسى، استغاث بك فلم تغثه، أما لو استغاث بي لأجبته ولأغثته»[1].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الأثر دليل على أن السبب الذي من أجله خسف اللَّه بقارون الأرض انه استأجر بغيًا، فكان من أمره ما ذكر ابن عباس ﷺ. قال ابن كثير: «وقد ذكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبي اللَّه موسى ﷺ، واختلف في سببه، فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالًا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بني إسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب اللَّه تعالى، فتقول: يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا، فلما قالت في الملأ ذلك لموسى ﷺ أرعد من الفرق، وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين، ثم قال: أنشدك باللَّه الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون، وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ما قلت؟ فقالت: أما إذ نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول ذلك لك، وأنا أستغفر اللَّه وأتوب إليه، فعند

---

(١) أخرجه: ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠١٨/ ١٧١٥٦) وابن جرير (٢٠/ ١١٧-١١٨) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٣٤/ ٢٨٨٤٣) والحاكم (٢/ ٤٠٨-٤٠٩) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٦/ ٥٥٤).

ذلك خر موسى لله ﷺ ساجدًا، وسأل اللَّه في قارون، فأوحى اللَّه إليه أني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك.

وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك، وهو راكب على البغال الشهب، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمر في محفله ذلك على مجلس نبي اللَّه موسى ﷺ وهو يذكرهم بأيام اللَّه، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه، فدعاه موسى ﷺ وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنخرجن فلتدعون علي وأدعو عليك، فخرج موسى وخرج قارون في قومه، فقال موسى ﷺ: تدعو أو أدعو أنا، فقال: بل أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب له، ثم قال موسى: أدعو؟ قال: نعم، فقال موسى: اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم، فأوحى اللَّه إليه أني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم. قال: فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده، ثم قال: اذهبوا بني لاوي، فاستوت بهم الأرض»[1].

والقول الأول أظهر لاعتضاده بالأثر، وهو الذي حكاه ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ مقتصرًا عليه[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتكلم على الشرف والمال: «وهذا دليل على أن هذا الحرص -أي: الحرص على السلطان والمال- إنما يذم لأنه يفسد الدين؛ الذي هو الإيمان والعمل الصالح، فكان ترك هذا الحرص لصالح العمل، وهذان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾[3]، وهما اللذان ذكرهما اللَّه في سورة القصص حيث افتتحها بأمر فرعون، وذكر علوه في الأرض؛ وهو الرياسة والشرف والسلطان، ثم ذكر في آخرها قارون وما أوتيه من الأموال، وذكر عاقبة سلطان هذا، وعاقبة مال هذا، ثم قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[4] كحال فرعون وقارون؛

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٧).
(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٢١٦-٢١٩).
(٣) الحاقة الآيتان (٢٨و٢٩).
(٤) القصص الآية (٨٣).

فإن جمع الأموال من غير إنفاقها في مواضعها المأمور بها، وأخذها من غير وجهها هو من نوع الفساد، وكذلك الإنسان إذا اختار السلطان لنفسه بغير العدل والحق لا يحصل إلا بفساد وظلم، وأما نفس وجود السلطان والمال الذي يبتغى به وجه اللَّه، والقيام بالحق والدار الآخرة، ويستعان به على طاعة اللَّه، ولا يفتر القلب عن محبة اللَّه ورسوله، والجهاد في سبيله، كما كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر، ولا يصده عن ذكر اللَّه فهذا من أكبر نعم اللَّه تعالى على عبده إذا كان كذلك. ولكن قل أن تجد ذا سلطان أو مال إلا وهو مبطأ مثبط عن طاعة اللَّه ومحبته، متبع هواه فيما آتاه اللَّه وفيه نكول حال الحرب والقتال في سبيل اللَّه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبهذه الخصال يكتسب المهانة والذم دنيا وأخرى.

وقد قال تعالى لنبيه وأصحابه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[1]، فأخبر أنهم هم الأعلون، وهم مع ذلك لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادًا، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾[2]؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[4]؛ فالشرف والمال لا يحمد مطلقًا ولا يذم مطلقًا، بل يحمد منه ما أعان على طاعة الله؛ وقد يكون ذلك واجبًا؛ وهو ما لا بدّ منه في فعل الواجبات، وقد يكون مستحبًا؛ وإنما يحمد إذا كان بهذه النية، ويذم ما استعين به على معصية اللَّه أو صد عن الواجبات، فهذا محرم»[5].

وقال أيضًا: «إن الأنبياء لهم أن يعاقبوا من أذاهم بالهلاك، وإن أظهر التوبة والندم». ثم ذكر الحديث، ثم قال: «.. فهذا مع ما ذكرناه من أحوال النبي ﷺ دليل على أن الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم لهم أن يعاقبوا من آذاهم وإن تاب، ولهم أن يعفوا عنه. وذلك دليل على أن عقوبة مؤذيهم حد من الحدود، لا لمجرد الكفر، فإن عقوبة الكافر تسقط بالتوبة بلا ريب»[6].

* * *

(١) آل عمران الآية (١٣٩).
(٢) محمد الآية (٣٥).
(٣) التوبة الآية (١١١).
(٤) النساء الآية (٥).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٣-١٤٤).
(٦) الصارم المسلول (٣/ ٧٨٦-٧٩٠) باختصار.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: لا أفتقر إلى ما تقولون فإن اللَّه تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم اللَّه في أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[(1)] أي: على علم من اللَّه بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾[(2)] أي: هذا أستحقه.

وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أنه كان يعاني علم الكيمياء، وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا اللَّه ﷻ قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[(3)]..

وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا اللَّه به فتمول بسببه.

والصحيح المعنى الأول؛ ولهذا قال اللَّه تعالى رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء اللَّه به فيما أعطاه من المال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه مالا؛ وما كان ذلك عن محبة مناله، وقد أهلكهم اللَّه مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾»[(4)].

---

(١) الزمر الآية (٤٩).
(٢) فصلت الآية (٥٠).
(٣) الحج الآية (٧٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٤-٢٦٥).

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قال قارون لقومه الذين وعظوه: إنما أوتيت هذه الكنوز على فضل علم عندي علمه اللَّه مني، فرضي بذلك عني، وفضلني بهذا المال عليكم لعلمه بفضلي عليكم.. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ يقول جل ثناؤه: أولم يعلم قارون، حين زعم أنه أوتي الكنوز لفضل علم عنده علمته أنا منه فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتي من الكنوز، أن اللَّه قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشا وأكثر جمعا للأموال، ولو كان اللَّه يؤتي الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ولرضاه عنه لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالا؛ لأن من كان اللَّه عنه راضيا فمحال أن يهلكه اللَّه وهو عنه راض، وإنما يهلك من كان عليه ساخطا.

وقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قيل: إن معنى ذلك أنهم يدخلون النار بغير حساب.. وقيل: معنى ذلك: إن الملائكة لا تسأل عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم.. وقيل معنى ذلك: ولا يسئل عن ذنوب هؤلاء الذين أهلكهم اللَّه من الأمم الماضية المجرمون فيم أهلكوا..

الهاء والميم اللتان في قوله: ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ من الذي في قوله: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ دون المؤمنين يعني: لأنه غير مسؤول عن ذلك مؤمن ولا كافر إلا الذين ركبوه واكتسبوه»[(١)].

قال ابن القيم: «والمقصود أن قوله: ﴿عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، إن أُريد به علمه نفسُه، كان المعنى: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصلته بها، وإن أريد به علم اللَّه، كان المعنى: أوتيته على ما علم اللَّه عندي من الخير والاستحقاق وأني أهله وذلك من كرامتي عليه.

وقد يترجح هذا القول بقوله: ﴿أُوتِيتُهُ﴾ ولم يقل حصّلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدل على اعترافه بأن غيره آتاه إياه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾[(٢)] أي: محنة واختبار، والمعنى: أنه لم يؤت هذا لكرامته علينا؛ بل أوتيه

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١١٣-١١٤).
(٢) الزمر الآية (٤٩).

امتحانًا منا وابتلاءً واختبارًا هل يشكر فيه أم يكفر.

وأيضًا فهذا يوافق قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾[1] فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك ولكن ظن أن لكرامته عليه.

فالآية على التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلى فضل اللَّه وإحسانه، وذلك محض الكفر بها، فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة وأنها من المنعم وحده، فإذا أُضيفت إلى غيره كان جحدًا لها، فإذا قال: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصّلت بها ذلك فقد أضافها إلى نفسه وأُعجب بها، كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[2]، اغتروا بقوتهم وهذا اغتر بعلمه، فما أغنى عن هؤلاء قوتهم ولا عن هذا علمه.

وعلى التقدير الثاني: يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام اللَّه عليه لكونه أهلًا ومستحقًا لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها على اللَّه أن يُنعم عليه، وأن تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره، فقد جعل سببها ما اتصف به هو لا ما قام به ربه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر، ليس ذلك جزاء على ما هو منه، ولو كان ذلك جزاء على عمله أو خيرًا قام به فاللَّه سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالمسبَّب والجزاء، والكل محض منته وفضله وجوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن اللَّه وحده حتى الشكر فإنه نعمة وهي منه سبحانه، فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه.. والمقصود أن حال الشاكر ضد حال القائل: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾»[3].

---

(١) الفجر الآيتان (١٥و١٦). (٢) فصلت الآية (١٥).

(٣) شفاء العليل (١/ ١١١-١١٢).

قال المكي الناصري: «عقب كتاب اللَّه على تصريح قارون المليء بالجهل والكبر، مذكرا بسنة اللَّه التي قد خلت من قبل في هذا النوع من عتاة المترفين، وأنه يمهلهم ولا يهملهم، بل ينتقم منهم ويهلكهم، ويصبحون أثرا بعد حين، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ والضمير يعود على قارون وكل من هو على شاكلته، ثم يقول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ إشارة إلى حقارة هذا النوع المتكبر المتجبر وهوانه على اللَّه، حتى أنه لا يسأل يوم القيامة سؤال استعتاب، لأنه ليس أهلا للعتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[٢]. وهذا لا ينفي أن أمثال هؤلاء المجرمين سيسألون يوم القيامة سؤال تقريع وتوبيخ يتلاءم مع مقدار جرمهم وبالغ كبرهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٣]»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما جاء في الرد على من قال: إن قارون يقلب الأعيان

* عن أبي زرعة قال: «دخلت مع أبي هريرة دارًا بالمدينة فرأى في أعلاها مصورًا يصور، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبة، وليخلقوا ذرة**. ثم دعا بتور من ماء فغسل يديه حتى بلغ إبطه. فقلت: يا أبا هريرة أشيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ؟ قال: **منتهى الحلية**»[٥].

⋆ فوائد الحديث:

هذا الحديث أورده ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على القائلين بأن المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أنه كان قد تعلم علم الكيمياء، فلذلك كثرت أمواله. فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق اللَّه في مجرد الصورة

(١) النحل الآية (٨٤). (٢) فصلت الآية (٢٤).

(٣) الحجر الآيتان (٩٢و٩٣).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٥١-٥٥٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢و٣٩١) والبخاري (١٠/ ٤٧١/ ٥٩٥٣) ومسلم (٣/ ١٦٧١/ ٢١١١).

الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى؟ هذا زور ومحال، وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصبغ في الصور الظاهرة، وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر وليس كذلك قطعًا لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفّاكون؛ فأما ما يجريه اللَّه سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبًا أو فضة أو نحو ذلك، فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات، وإنما هذا من مشيئة رب الأرض والسماوات واختياره وفعله»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -وقد سئل عن الكيمياء-: هل تصح بالعقل أو تجوز بالشرع؟ فأجاب: الحمد لله، ما يصنعه بنو آدم من الذهب والفضة وغيرهما من أنواع الجواهر والطيب وغير ذلك، مما يشبهون به ما خلقه اللَّه من ذلك، مثل ما يصنعونه من اللؤلؤ، والياقوت، والمسك، والعنبر، وماء الورد، وغير ذلك، فهذا كله ليس مثل ما يخلقه اللَّه من ذلك، بل هو مشابه له من بعض الوجوه، ليس هو مساويًا له في الحد والحقيقة. وذلك كله محرم في الشرع بلا نزاع بين علماء المسلمين، الذين يعلمون حقيقة ذلك.

ومن زعم أن الذهب المصنوع مثل المخلوق، فقوله باطل في العقل والدين.

وحقيقة الكيمياء إنما هي تشبيه المخلوق، وهو باطل في العقل، واللَّه تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فهو -سبحانه- لم يخلق شيئًا يقدر العباد أن يصنعوا مثل ما خلق، وما يصنعونه فهو لم يخلق لهم مثله: فإنه -سبحانه- أقدرهم على أن يصنعوا طعامًا مطبوخًا، ولباسًا منسوجًا، وبيوتًا مبنية، وهو لم يخلق لهم مثل ما يصنعونه من المطبوخات والمنسوجات والبيوت المبنية. وما خلقه اللَّه -سبحانه- من أنواع الحيوان والنبات والمعدن، كالإنسان والفرس والحمار والأنعام والطير والحيتان فإن بني آدم لا يقدرون أن يصنعوا مثل هذه الدواب. وكذلك الحنطة، والشعير، والباقلا، واللوبيا، والعدس، والعنب، والرطب، وأنواع الحبوب والثمار لا يستطيع الآدميون أن يصنعوا مثل ما

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٤-٢٦٥).

يخلقه اللَّه ﷻ. وإنما يشبهونه ببعض هذه الثمار، كما قد يصنعون ما يشبه الحيوان، حتى يصوروا الصورة كأنها صورة حيوان.

وكذلك المعادن؛ كالذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، لا يستطيع بنو آدم أن يصنعوا مثل ما يخلقه الله؛ وإنما غايتهم أن يشبهوا من بعض الوجوه، فيصفرون وينقلون، مع اختلاف الحقائق؛ ولهذا يقولون: تعمل تصفيرة؟ ويقولون: نحن صباغون.

وهذه القاعدة التي يدل عليها استقراء الوجود: من أن المخلوق لا يكون مصنوعًا، والمصنوع لا يكون مخلوقًا، هي ثابتة عند المسلمين، وعند أوائل المتفلسفة الذين تكلموا في الطبائع، وتكلموا في الكيمياء وغيرها؛ فإن اللَّه قال في كتابه: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ فيما يروي عن اللَّه أنه قال: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة!**»»[2]. . .

إلى أن قال: «وأهل الكيمياء من أعظم الناس غشًا، ولهذا لا يظهرون للناس إذا عاملوهم أن هذا من الكيمياء، ولو أظهروا للناس ذلك لم يشتروه منهم، إلا من يريد غشهم. ولذا قال الأئمة: لا يجوز بيع المغشوش الذي لا يعلم مقدار غشه وإن بين للمشتري أنه مغشوش. . وبيع المغشوش لمن لا يتبين له أنه مغشوش حرام بالإجماع. والكيمياء لا يعلم مقدار الغش فيها، فلا يجوز عملها ولا بيعها بحال.

مع أن الناس إذا علموا أن الذهب والفضة من الكيمياء لم يشتروه. ولو قيل لهم: إنه يثبت على الروباص، أو غير ذلك، بل القلوب مفطورة على إنكار ذلك، والولاة ينكرون على من يجدونه يعمل ذلك، ولو كان أحدهم ممن يعمل ذلك في الباطن فيحتاج أن ينكره في الظاهر؛ لأنه منكر في فطر الآدميين، ولا تجد من يعاني ذلك إلا مستخفيًا بذلك، أو مستعينًا بذي جاه، وعلى أصحابه من الذلة والصَّغار وسواد الوجوه ما على أهل الفرية والكذب والتدليس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[3].

---

(١) الرعد الآية (١٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٦٨-٣٧٠).
(٣) الأعراف الآية (١٥٢).

قال أبو قِلاَبة: هي لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وهؤلاء أهل فرية وغش وتدليس في الدين، وكلاهما من المفترين.

وأما القدماء فقد قالوا: إن الصناعة لا تعمل عمل الطبيعة، وأخبروا أن المصنوع لا يكون كالمطبوع؛ ولهذا كان المنصفون منهم في الكيمياء إذا حققوا قالوا: لما كان المقصود بها إنما هو التشبيه، فالطريق في التشبيه كذا وكذا. فيسلكون الطرق التي يحصل بها التشبيه، وهي مع تنوعها وكثرتها ووصول جماعات إليها واتفاقهم فيها: عسرة على أكثر الخلق، كثيرة الآفات، والمنقطع عن الوصول أضعاف الواصلين مع كثرتهم، فجماهير من يطلب الكيمياء لا يصل إلى المصنوع الذي هو مغشوش باطل طبعًا، محرم شرعًا، بل هم يطلبون الباطل الحرام، ويتمنوه ويتحاكون فيه الحكايات، ويطالعون فيه المصنفات، وينشدون فيه الأشعار، ولا يصلون إلى حقيقة الكيمياء -وهو المغشوش- بمنزلة أتباع المنتظر الذي في السرداب، وأتباع رجال الغيب الذين لا يراهم أحد من الناس، وأمثال هؤلاء الذين يطلبون ما لا حقيقة له معتقدين وجوده، ويموتون وهم لم يصلوا إليه، وإن وصلوا إلى من يدعي لقاءه من الكذابين.

وكذلك طلاب الكيمياء الذين يقال لهم: (الحدبان) لكثرة انحنائهم على النفخ في الكير، أكثرهم لا يصلون إلى الحرام، ولا ينالون المغشوش، وأما خواصهم فيصلون إلى الكيمياء، وهي محرمة باطلة، لكنها على مراتب: منها: ما يستحيل بعد بضع سنين. ومنها: ما يستحيل بعد ذلك؛ لكن المصنوع يستحيل ويفسد ولو بعد حين، بخلاف الذهب المعدني المخلوق فإنه لا يفسد ولا يستحيل؛ ولهذا ذكروا أن محمد بن زكريا الرازي المتطبب -وكان من المصححين للكيمياء- عمل ذهبًا وباعه للنصارى، فلما وصلوا إلى بلادهم استحال، فردوه عليه، ولا أعلم في الأطباء من كان أبلغ في صناعة الكيمياء منه. وأما الفلاسفة الذين هم أحذق في الفلسفة منه، مثل يعقوب بن إسحاق الكندي وغيره، فإنهم أبطلوا الكيمياء، وبينوا فسادها، وبينوا الحيل الكيماوية.

ولم يكن في أهل الكيمياء أحد من الأنبياء، ولا من علماء الدين، ولا من مشايخ المسلمين، ولا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان. وأقدم من رأينا، -ويُحكى عنه شيء في الكيمياء- خالد بن يزيد بن معاوية، وليس هو ممن

يقتدي به المسلمون في دينهم، ولا يرجعون إلى رأيه، فإن ثبت النقل عنه فقد دلس عليه، كما دلس على غيره. وأما جابر بن حيان صاحب المصنفات المشهورة عند الكيماوية، فمجهول لا يعرف، وليس له ذكر بين أهل العلم، ولا بين أهل الدين، وهؤلاء لا يعدون أحد أمرين: إما أن يعتقد أن الذهب المصنوع كالمعدني -جهلًا وضلالًا- كما ظنه غيرهم. وإما أن يكون علم أنه ليس مثله، ولكنه لبس ودلس، فما أكثر من يتحلى بصناعة الكيمياء؛ لما في النفوس من محبة الذهب والفضة، حتى يقول قائلهم: لو غنى بها مغن لرقص الكون. وعامتهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل اللَّه، ويظهرون للطماع أنهم يعملون الكيمياء حتى يأكلوا ماله، ويفسدوا حاله. وحكاياتهم في هذا الباب عند الناس أشهر من أن تحتاج إلى نقل مستقر، تدل على أن أهل الكيمياء يعاقبون بنقيض قصدهم، فتذهب أموالهم -حيث طلبوا زيادة المال بما حرمه الله- بنقص الأموال، كما قال اللَّه تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[1].

والكيمياء أشد تحريمًا من الربا. قال القاضي أبو يوسف: من طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب غرائب الحديث كذب. ويروى هذا الكلام عن مالك، والشافعي رضي الله عنهم أجمعين.

وقد قال لي رأس من رؤوسهم لما نهيته عنها، وبينت له فسادها وتحريمها، ولما ظهرت عليه الحجة: أخذ يستعفي عن المناظرة، ويذكر أنه منقطع بالجدال، وقال فيما قال: النبي ﷺ كان يعرف الكيمياء، فقلت له: كذب، بل هو مستلزم للكفر، فإن اللَّه قال في كتابه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[2]، وهذه الآية نزلت بالإجماع في غزوة تبوك. وقد كان هو يحض الناس على الإنفاق غاية الحض. فلو كانت الكيمياء حقًا مباحًا وهو يعلمها، لكان من الواجب أن يعمل منها ما يجهز به الجيش، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن نسب إلى النبي ﷺ ذلك فقد نسبه إلى ما نزهه اللَّه عنه.

---

(١) البقرة الآية (٢٧٦).

(٢) التوبة الآية (٩٢).

وأيضًا، فإن علماء الأمة لم يوجب أحد منهم في الكيمياء حقًا؛ لا خمسًا ولا زكاة، ولا غير ذلك، وقد اتفقوا على أن: (في الركاز الخمس)، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح[1] عن النبي ﷺ.

والركاز الذي لا ريب فيه؛ هو دفن الجاهلية؛ وهي الكنوز المدفونة في الأرض؛ كالمعادن. فأهل الحجاز لا يجعلونها من الركاز، وهو مذهب أحمد وغيره، وأهل العراق يجعلونها من الركاز، ومن العلماء من يفرق بين أن يوجد المال جملة، وبين ألا يوجد. وللشافعي فيها أقوال معروفة، وجمهور العلماء يوجبون في المعدن حقًّا؛ إما الزكاة، وإما الخمس.

ولو كانت الكيمياء حقًّا حلالًا لكان الواجب فيها أعظم من الخمس وأعظم من الزكاة، فإنها ذهب عظيم بسعي يسير، أيسر من استخراج المعادن، والركاز، لكن هي عند علماء الدين من الغش الباطل المحرم الذي لا يحل عمله، ولا اتخاذه مالًا، فضلًا عن أن يوجبوا فيها ما يجب في المال الحلال.

وقال لي المخاطب فيها: فإن موسى ﷺ كان يعمل الكيمياء. قلت له: هذا كذب، لم ينقل هذا عن موسى أحد من علماء المسلمين، ولا علماء أهل الكتاب، بل قد ذكروا عنهم أن موسى كان له عليهم حق يأكل منه، ولو كان يعمل الكيمياء لكان يأكل منها.

قال: فإن قارون كان يعمل الكيمياء، قلت: وهذا أيضًا باطل؛ فإنه لم يقله عالم معروف، وإنما يذكره مثل الثعلبي في تفسيره عمن لا يسمى. وفي تفسير الثعلبي الغثّ والسمين، فإنه حاطب ليل، ولو كان مال قارون من الكيمياء لم يكن له بذلك اختصاص؛ فإن الذين عملوا الكيمياء خلق كثير لا يحصون، والله سبحانه قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، فأخبر أنه آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، والكنوز إما أن يكون هو كنزها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[2]، وإما أن يكون اطلع على كنائز مدفونة

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٨و٢٣٩) والبخاري (٣/ ٤٦٤/ ١٤٩٩) ومسلم (٣/ ١٣٣٤/ ١٧١٠) وأبو داود (٣/ ٤٦٢/ ٣٠٨٥) والترمذي (٣/ ٣٤/ ٦٤٢) والنسائي (٥/ ٤٧-٤٨/ ٢٤٩٤-٢٤٩٧) وابن ماجه (٢/ ٨٩١/ ٢٦٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) التوبة الآية (٣٤).

وهو الركاز، وهذا لا ريب أنه موجود.

ثم إنه مات هذا الرجل وكان خطيبًا بجامع، فلم يشهد جنازته من جيرانه وغيرهم من المسلمين إلا أقل من عشرة، وكان يعاني السحر والسيميا، وكان يشتري كتبًا كثيرة من كتب العلم، فشهدت بيع كتبه لذلك، فقام المنادي ينادي على «كتب الصنعة»، وكانت كثيرة يعني كتب الكيمياء؛ فإنهم يقولون: هي علم الحجر المكرم، وهي علم الحكمة، ويعرفونها بأنواع من العبارات، وكان المتولي لذلك من أهل السيف والديوان شهودًا، فقلت لولي الأمر: لا يحل بيع هذه الكتب؛ فإن الناس يشترونها فيعملون بما فيها، فيقولون: هؤلاء «زغلية» فيقطعون أيديهم. وإذا بعتم هذه الكتب تكونون قد مكنتموهم من ذلك، وأمرت المنادي فألقاها ببركة كانت هناك، فألقيت حتى أفسدها الماء، ولم يبق يعرف ما فيها.

ومما يوضح ذلك: أن الكيمياء لم يعملها رجل له في الأمة لسان صدق، لا عالم متبع، ولا شيخ يقتدي به، ولا ملك عادل، ولا وزير ناصح، وإنما يفعلها شيخ ضال مبطل، مثل ابن سبعين وأمثاله، أو مثل بني عبيد، أو ملك ظالم، أو رجل فاجر. وإن التبس أمرها على بعض أهل العقل والدين، فغالبهم ينكشف لهم أمرها في الآخر، ولا يستطيعون عملها صيانة من اللَّه لهم لحسن قصدهم، وما أعلم أن رجلًا من خيار المسلمين أنفق منها أو أكل منها.

وما يذكره بعض الناس أن أولياء اللَّه يعملون بها. فهذا لا يعدو ما يقوله أحد أمرين: إما أن يكون كاذبًا. وإما أن يكون قد ظن من يعملها أنه من أولياء اللَّه، المخصوصين بمثل هذه الكرامة، فهذا جهل؛ فإن الكيمياء يعملها المشرك واليهودي والنصراني والفاجر والمبتدع، لا يختص بها أولياء اللَّه، بل لا يعرف ولي ثابت الولاية يعملها، ومن ذكرها ممن يدعي أنه من الأولياء مثل صاحب «الفصوص» وأمثال هؤلاء، فهؤلاء في كلامهم في الدين من الخطأ والضلال أعظم مما في كلامهم في الكيمياء، فإذا كان كلامهم في التوحيد والنبوة واليوم الآخر فيه من الضلال ما هو مخالف لكتاب اللَّه وسنة رسوله وإجماع المسلمين، بل ما لم يقله اليهود والنصارى، فكيف يكون كلامهم في الكيمياء؟

ثم من اغتر بما ذكره صاحب «كتاب السعادة» فيه، وفي «كتاب جواهر القرآن» وأمثالهما من الكتب، ففي هذه الكتب من الكلام المردود والمخالف للكتاب

والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ما لا يخفى على عالم بذلك، وقد رد علماء المسلمين ما في هذه الكتب من أقوال المتفلسفة وأشباهها من الضلال المخالف للكتاب والسنة. ومن الناس من يطعن في نقل هذه الكتب عمن أضيفت إليه، ويقول: إنه كذب عليه في نسبة هذه الكتب إليه. ومنهم من يقول: بل قد رجع عن ذلك؛ فإنه قد ثبت عنه في غير موضع نقيض ما يقوله في هذه الكتب، ومات على مطالعة البخاري ومسلم.

نعم، خرق العادات للأولياء جائز، مثل أن يصير النبات ذهبًا، وذلك مما لا يكون طريقه طريق الكيمياء المعمولة بالمعالجات الطبيعية، وبين هذين من الفرق ما بين عصا موسى، وعصيّ السحرة، فإن تلك كانت حية تسعى، وتلك يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

وبالجملة، فإذا كان طائفة من المنتسبين إلى العلم والعبادة اعتقدوا أن علم الكيمياء حق وحلال، فهذا لا يفيد شيئًا؛ فإن قول طائفة من العلماء والعباد خالفهم من هو أكبر منهم وأجل عند الأمة لا يحتج به إلا أحمق؛ فإنه إن كان التقليد حجة فتقليد الأكبر الأعلم الأعبد أولى. وإن لم يكن حجة لم ينفعه ذكره لهؤلاء. وعلى التقديرين فلا يفيد هذا شيئًا. ويكفيه أن خيار هذه الأمة من القرون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، لم يدخلوا في شيء من هذا، إذ لو كانت حلالًا لدخلوا فيها، كما دخلوا في سائر المباحات؛ فإنهم كانوا يكتسبون الأموال بالوجوه، واكتساب المال مع إنفاقه في طاعة الله عمل صالح. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**على كل مسلم صدقة**». قالوا: فمن لم يجد، قال: «**يعمل بيده فينفع نفسه، ويتصدق**». قالوا: فإن لم يستطع، قال: «**يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق**». قالوا: فإن لم يستطع، قال: «**يكف نفسه عن الشر، فإنها صدقة يتصدق بها على نفسه**»[1].

ومما يوضح الأمر في ذلك: أن الله ﷻ خلق الأشياء أجناسًا وأصنافًا وأنواعًا، تشترك في شيء، ويمتاز بعضها عن بعض بشيء، كما أن الدواب تشترك في أنها

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥و٤١١) والبخاري (٣/ ٣٩٢/ ١٤٤٥) ومسلم (٢/ ٦٩٩/ ١٠٠٨) والنسائي (٥/ ٦٨/ ٢٥٣٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

تحس وتتحرك بالإرادة، فهذا لازم لها كلها؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**»[١]. إذ كل إنسان لا بد له من حرث، وهو كسبه وعمله، ولا بد له من هم، هو مبدأ إرادته، ويمتاز بعض الدواب عن بعض بما يفصل بينه وبين غيره. فهذه الخواص الفاصلة مختصة، كما أن الصفات المشتركة عامة، وهذا كالنطق للإنسان، والصهيل للفرس، والرغاء للبعير، والنهيق للحمار، وأمثال ذلك.

وكذلك النباتات، تشترك مع الدواب في أنها تنمى وتغذى، ولكن ليس للنبات حس، ولا إرادة تتحرك بها، والمعدن مشارك في بعض ذلك. وقد علم أن هذه الأصناف -التي تسمى الأنواع التي يفضل بعضها عن بعض بهذه الخواص الفاضلة- إذا تقومت بهذه الفضول الخواص لم يكن لبشر أن يجعلها من أنواع أخر، ولا أن يجعل ذلك الفضل ويلبسها فضلًا آخر، فلا يمكنه أن يجعل الحنطة شعيرًا، ولا الفرس حمارًا، ولا الحمار ثورًا. وكذلك لا يمكنه أن يجعل الفضة ذهبًا ولا النحاس فضة، وأمثال ذلك، وإنما غايته يشبه وجوده، ويدلس. . . وبالجملة فاستقراء هذين الأصلين -أن المخلوق لا يكون مصنوعًا، والمصنوع لا يكون مخلوقًا، وأن الأنواع المفضلة بخواصها لا يمكن أن ينقل منها نوع إلى نوع آخر، يظهر ذلك بالعقل، والدلالة الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنة، والإجماع أيضًا في ذلك، ثم ما فطر اللَّه عليه عباده، وسوى بين بلاده، من إنكار ذلك وعقوبة فاعليه في الجملة ظاهر، وإن فعله بعضهم باطنًا»[٢].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٤٥) والبخاري في الأدب المفرد (٦٢٥) وأبو داود (٥/ ٢٣٧/ ٤٩٥٠) والنسائي (٦/ ٥٢٧-٥٢٨/ ٣٥٦٧) دون ذكر محل الشاهد، من حديث أبي وهب الجشمي. انظر الصحيحة (٩٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٦٨-٣٨٣).

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «فلم يزل قارون مستمرا على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحا بطرا قد أعجبته نفسه، وغره ما أوتيه من الأموال.

﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بزته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

فـ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية»[1].

قال ابن عاشور: «دلت الفاء على أن خروجه بين قومه في زينته بعد ذلك كله كان من أجل أنه لم يقصر عن شيء من سيرته، ولم يتعظ بتلك المواعظ ولا زمنا قصيرا، بل أعقبها بخروجه هذه الخرجة المليئة صلفا وازدهاء. فالتقدير: قال إنما أوتيته على علم عندي فخرج؛ أي: رفض الموعظة بقوله وفعله. وتعدية (خرج) بحرف

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨-٥٩).

(على) لتضمينه معنى النزول إشارة إلى أنه خروج متعال مترفع . . والزينة : ما به جمال الشيء والتباهي به من الثياب والطيب والمراكب والسلاح والخدم، وتقدم قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[١] في سورة النور . وإنما فصلت جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم تعطف ؛ لأنها تتنزل منزلة بدل الاشتمال، لما اشتملت عليه الزينة من أنها مما يتمناه الراغبون في الدنيا . وذلك جامع لأحوال الرفاهية وعلى أخصر وجه ؛ لأن الذين يريدون الحياة الدنيا لهم أميال مختلفة ورغبات متفاوتة، فكل يتمنى أمنية مما تلبس به قارون من الزينة، فحصل هذا المعنى مع حصول الإخبار عن انقسام قومه إلى مغترين بالزخارف العاجلة عن غير علم، وإلى علماء يؤثرون الآجل على العاجل . . والذين يريدون الحياة الدنيا لما قوبلوا بالذين أوتوا العلم كان المعني بهم عامة الناس، وضعفاء اليقين الذين تلهيهم زخارف الدنيا عما يكون في مطاويها من سوء العواقب، فتقصر بصائرهم عن التدبر إذا رأوا زينة الدنيا فيتلهفون عليها، ولا يتمنون غير حصولها فهؤلاء وإن كانوا مؤمنين إلا أن إيمانهم ضعيف، فلذلك عظم في عيونهم ما عليه قارون من البذخ فقالوا : ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي : أنه لذو بخت وسعادة»[٢] .

قال المراغي : « ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي : فخرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر من مراكب وخدم وحشم، مريدا بذلك التعالي على الناس، وإظهار العظمة، وذلك من الصفات البغيضة، والافتخار الممقوت، والخيلاء المذمومة لدى عقلاء الناس من جراء أنها تقوض كيان المجتمع، وتفسد نظمه، وتفرق شمل الأمة، وتقسمها طبقات، وفي ذلك تخاذلها، وطمع العدو في امتلاك ناصيتها . وفي هذا تحذير لنا أيما تحذير، فكثير ممن يظهرون النعم، إنما يريدون التعالي والتفاخر، وكم ممن يقيم الزينات، أو يصنع الولائم لعرس أو مأتم، لا يريد بذلك إلا إظهار ثرائه، وسعة ماله بين عشيرته وبني جلدته، فيكون قارون زمانه، وتكون عاقبته الخسف لما أوتيه من مال، ويذهب اللّٰه ثراءه ويجعله عبرة لمن اعتبر .

فالكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالي ليس

---

(١) النور الآية (٣١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٢-١٨٣) .

وبالهما في الآخرة فحسب، بل يحصل شؤمهما في الدنيا قبل الآخرة، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم. . وحين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: قال من كان همه الدنيا وزينتها: يا ليت لنا من الأموال والمتاع مثل ما لقارون منها، حتى ننعم عيشا، ونتمتع بزخارف الحياة، كما يتمتع. وإن مثل هذا التمني ليشاهد كل يوم، وفي كل بلد، وفي كل قرية، فترى الرجل والشاب، والمرأة والفتاة، يتمنى كل منهم أن يكون له مثل ما أوتي فلان وفلانة من ثوب جميل، أو دابة فارهة، أو مزرعة يحصد غلتها، أو قصر مشيد، أو نحو ذلك. ثم عللوا تمنيهم وأكدوه بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: إن اللّه قد تفضل عليه، وآتاه من بسطة الرزق حظا عظيما، ونصيبا كبيرا يغبط عليه. والقائلون هذه المقالة: إما جماعة من المؤمنين قالوا ذلك جريا على الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار، وإما عصبة من الكفار والمنافقين تمنوا مثل ماله، ولم يتمنوا زوال نعمته، ومثل هذا لا ضرر فيه»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢٠/ ٩٧-٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يلقاها: يوفق لها وقيل: يعلمها ويلهمها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وقال الذين أوتوا العلم بالله، حين رأوا قارون خارجا عليهم في زينته للذين قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، ويلكم اتقوا الله وأطيعوه، فثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وبرسله، وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال في الآخرة خير مما أوتي قارون من زينته وماله لقارون، وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يقول: ولا يلقاها؛ أي: ولا يوفق لقيل هذه الكلمة، وهي قوله ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ والهاء والألف كناية عن الكلمة. وقال: ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يعني بذلك: الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا، وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال على لذات الدنيا وشهواتها، فجدوا في طاعة الله، ورفضوا الحياة الدنيا»[1].

قال القنوجي: « ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بما وعد الله في الآخرة، وهم أحبار بني إسرائيل، قالوا للذين تمنوا ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمة زجر منصوبة بمقدر؛ أي: ألزمكم الله ويلكم، قاله الزمخشري، ومثله في التبيان، وأصل ويلك الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع، والبعث على ترك ما لا يرضي. ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة بالجنة ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما أوتي قارون في الدنيا؛ لأن الثواب منافعه عظيمة، خالصة عن شوائب المضار دائمة، وهذه النعم على الضد في هذه الصفات، فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم، وهذا بيان

(١) جامع البيان (٢٠/ ١١٦).

للمفضل عليه. ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار. وقيل: الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة، وقيل: إلى الجنة، والمعنى: لا يفهمها، ويوقف عليها، ويوفق للعمل لها ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على طاعة اللَّه، والمصبرون أنفسهم عن الشهوات، الراضون بقضاء اللَّه في كل ما قسم من المنافع والمضار»[1].

قال السعدي: « ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه. والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿خَيْرٌ﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يلقى ذلك ويوفق له ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة اللَّه، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب اللَّه على الدنيا الفانية»[2].

قال المراغي عن القسم الثاني: « ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: وقال الذين أوتوا العلم بما أعد اللَّه لعباده في الآخرة وصدقوا به ردا على أولئك المتمنين: تبا لكم وخسرا، كيف تتغالون في طلب الدنيا، ويسيل لعابكم عليها، وما عند اللَّه من ثواب في الآخرة لمن صدق به، وآمن برسله، وعمل صالح الأعمال، خير مما تتمنون، فإن هذا باق، وذاك فان، وهذا خالص مما يشوبه وينغصه من الأكدار، وذلك مشوب بالأحزان والمنغصات.

ثم بين من يعمل بهذه النصيحة فقال: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: ولا يتبع هذه النصيحة، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات، واجتنب المحرمات، ورضي بقضاء اللَّه في كل ما قسم من المنافع والمضار، وأنفق ماله في كل ما فيه سعادة لنفسه وللمجتمع، وكان قدوة صالحة في حفظ مجد أمته، ورفع صيتها بين الأمم، يبذل كل ما فيه نفعها وقوتها، وإعلاء شأنها، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين

---

(١) فتح البيان (١٠/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٩-٦٠).

الناس، ويلقى المثوبة من ربه»[١].

قال ابن عاشور: «و(ويل) اسم للهلاك وسوء الحال.. ويستعمل لفظ (ويل) في التعجب المشوب بالزجر، فليس الذين أوتوا العلم داعين بالويل على الذين يريدون الحياة الدنيا؛ لأن المناسب لمقام الموعظة لين الخطاب، ليكون أعون على الاتعاظ، ولكنهم يتعجبون من تعلق نفوس أولئك بزينة الحياة الدنيا، واغتباطهم بحال قارون، دون اهتمام بثواب اللَّه الذي يستطيعون تحصيله بالإقبال على العمل بالدين، والعمل النافع، وهم يعلمون أن قارون غير متخلق بالفضائل الدينية»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما أعد اللَّه تعالى لعباده الصالحين في الجنة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قال اللَّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٣]**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «إن اللَّه تعالى ادخر في الجنة من النعيم والخيرات واللذات ما لم يطلع عليه أحد من الخلق، لا بالإخبار عنه، ولا بالفكرة فيه، وقد تعرض بعض الناس لتعيينه، وهو تكلف ينفيه الخبر نفسه، إذ قد نفى علمه والشعور به عن كل أحد»[٥].

قال المناوي: «**«إن في الجنة ما لا عين رأت»**: في دار الدنيا **«ولا أذن سمعت»** فيها **«ولا خطر على قلب أحد»** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أخفوا ذكره عن الأغيار والرسوم، فأخفى ثوابهم عن المعارف والفهوم، وقد أشهد اللَّه عباده في هذه

---

(١) تفسير المراغي (٢٠/ ٩٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٤).
(٣) السجدة الآية (١٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣) والبخاري (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٢٤٤) ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤) والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨).
(٥) المفهم (٧/ ١٧٢).

الدار آثارًا من آثارها، وأنموذجًا منها من الروائح الطيبة، واللذة، والمناظر البهية، والمناكح الشهية.. وأخبر المصطفى ﷺ أن شدة الحر والبرد من أنفاس جهنم، فلا بد أن يشهد عباده أنفاس جنته، وما يذكرهم بها»[1].

قال السندي: «قوله: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت**»: أي: ما لا يبصر ذاته عين، ولا سمعت وصفه أذن، ولا خطر ماهيته على قلب بشر»[2].

قال الحافظ: «زاد ابن مسعود في حديثه: «**ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل**» أخرجه ابن أبي حاتم. وهو يدفع قول من قال: إنما قيل البشر لأنه يخطر بقلوب الملائكة. والأولى حمل النفي فيه على عمومه، فإنه أعظم في النفس»[3].

* * *

(١) فيض القدير (٢/ ٤٦٧).

(٢) حاشية السندي على ابن ماجه (٢/ ٥٨٩).

(٣) فتح الباري (٨/ ٦٦٢).

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

★ غريب الآية:

خسفنا: الخسف: الخَرْق. خسفنا به الأرض: أي خرقنا الأرض به. يقال: خَسَفَهُ اللهُ وخَسَفَ به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فخسفنا بقارون وأهل داره، وقيل: وبداره.. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول فلم يكن له جند يرجع إليهم، ولا فئة ينصرونه لما نزل به من سخطه بل تبرءوا منه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ يقول: ولا كان هو ممن ينتصر من اللَّه إذا أحل به نقمته فيمتنع لقوته منها.. وقد بينا معنى الفئة فيما مضى؛ وأنها الجماعة من الناس، وأصلها الجماعة التي يفيء إليها الرجل عند الحاجة إليهم للعون على العدو ثم تستعمل ذلك العرب في كل جماعة عونا للرجل وظهرا له، ومنه قول خفاف:

فلم أر مثلهم حيا لقاحا ... وجدك بين ناضحة وحجر

أشد على صروف الدهر آدا ... وأكبر منهم فئة بصبر»[1].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي ما أغنى عنه ماله، ولا جمعه، ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة اللَّه وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصرا لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره»[2].

قال السعدي: «لما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازينت الدنيا عنده،

(١) جامع البيان (٢٠/ ١١٦-١١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٧).

وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد اللَّه، أنزله اللَّه أسفل سافلين، هو وما اغتر به من داره، وأثاثه، ومتاعه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر»[1].

قال المراغي: «أي فزلزلت به الأرض، وابتلعته جزاء بطره وعتوه، وفي هذا عبرة لمن اعتبر، فيترك التعالي والتغالي في الزينة، لئلا يخسف اللَّه به وبماله الأرض. وقد غفل كثير من الناس عن المقصد من المال فأنفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة، فضاعت دورهم وأموالهم، وأصبحت ملكا لغيرهم، وهذا هو الخسف العظيم، وما خسف قارون بشيء إذا قيس بهذا، فإن الخسف الآن خسف الأمم، لا خسف الأفراد، فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيدا له وضحية مطامعه، وخسف أمة أدهى من خسف فرد، فليخسف الفرد، ولتبق الأمة، وهكذا دخلت البلاد تباعا في ملك الغاصب، واحدة إثر أخرى. ولم يبق منها إلا ما رحم اللَّه، وما ذاك إلا بجهلها لدينها، وعدم اتباعها أحكامه، وغفلتها عن مقاصده.

ثم بين أنه لم يجد له شفيعا ولا نصيرا يدفع عنه العذاب حينئذ، فقال: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي ما أغنى عنه ماله، ولا خدمه ولا حشمه، ولا دفعوا عنه نقمة اللَّه ولا نكاله، ولا استطاع أن ينتصر لنفسه. وقصارى ذلك إنه لا ناصر له من غيره ولا من نفسه، فكيف يكون للأمة الغافلة عن أوامر دينها، الجاهلة بمقاصد شريعتها في إنفاق الأموال أن تجد مناصا من خراب الديار، وإضاعة المجد الطارف والتالد، ولا بد أن تقع فريسة للغاصبين، الذين يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة، وقد كان ذلك جزاء وفاقا، لجهلها وسوء تصرفها وظلمها لأنفسها، ولا يظلم ربك أحدا، وهكذا حال من تصرف في ماله تصرف السفهاء، وركب رأسه، وصار يبعثره يمنة ويسرة، فإنه سيندم ولات ساعة مندم»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠).

(٢) تفسير المراغي (٢٠/ ٩٩-١٠٠).

قلت: هكذا يذكر اللَّه الأمثلة من الأخيار والأشرار، من الصادقين والكاذبين، من الشاكرين واللئام، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[١]؛ ليعتبر العباد ويستفيدوا الدروس العملية كي لا يحل بهم ما حل بأهل الانحراف والطغيان، فقارون مثال الخزي والشقاء، ما منعه أن يكون من أتباع موسى ووزرائه ونصرائه إلا كبره وإعجابه بماله ونفسه.

والحقيقة أن المال نعمة تفضل اللَّه بها على عباده سيما إن كسب من وجه حلال، يحصل به صاحبه العون على دينه إذا صرف في أبوابه، فينتفع به ولا يضره، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[٢]، فلكم جهز أصحاب الأموال الغزوات، وحفروا الآبار، وبنوا المساجد، امتثالًا لقول اللَّه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٣] وقوله ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٤].

أما إذا استغل المال في غير وجوهه، وكان وسيلة للإفساد، وباعثًا على الكبر والبطر والفخر والتباهي، وتم تبذيره فيما يضر ولا ينفع؛ فلا شك أنه عقاب وسخط وغضب من اللَّه، كما يدلك واقع الكثيرين ممن ينفقون على وليمة ما تعيش به أمة، ويشترون من المراكب ما يصلح أن يكون للفقراء مساكن، وهكذا تجد هذه الفئة تسخر الأموال الطائلة في بناء البيوت الفارهة واقتناء الألبسة الفاخرة، وهو ما يبين السفه العريض لدى هؤلاء.

والاعتبار بقصة قارون ومصيره المشؤوم ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يجعل المرء يفكر في تسخير ماله مركبًا للدار الآخرة ونيل رضوان اللَّه.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خطورة الكبر والبطر على صاحبهما في الدنيا والآخرة

* عن عبد اللَّه بن عمر أن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء**

---

(١) الإسراء الآية (٨٩).
(٢) تقدم تخريجه قريبا.
(٣) التوبة الآية (١١١).
(٤) الحديد الآية (١١).

خُسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[١].

★ غريب الحديث:

الخيلاء: هو التكبر والتبختر مع الإعجاب.

يتجلجل: أي: يتحرك في الأرض. والجلجلة الحركة مع صوت. وقال ابن دريد: كل شيء خلطت بعضه ببعض فقد جلجلته. وعن ابن فارس: هو أن يسيخ في الأرض مع اضطراب شديد وتدافع من شق إلى شق.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «يستنبط من سياق الأحاديث -أي: أحاديث جر الثوب- أن التقييد بالجر خرج للغالب، وأن البطر والتبختر مذموم ولو لمن شمر ثوبه، والذي يجتمع من الأدلة أن من قصد بالملبوس الحسن إظهار نعمة اللَّه عليه، مستحضرًا لها شاكرًا عليها، غير محتقر لمن ليس له مثله لا يضره ما لبس من المباحات، ولو كان في غاية النفاسة. ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «أن رسول اللَّه ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال: إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[٢]»[٣].

قال القرطبي: «ويفيد هذا الحديث: ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه، وثوبه، وهيئته حرام، وكبيرة»[٤].

وقد تقدمت فوائد أخرى للحديث في سورة الإسراء الآية (٣٧).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٦) والبخاري (٦/ ٦٣٨-٦٣٩/ ٣٤٨٥) واللفظ له، والنسائي (٨/ ٥٩٤/ ٥٣٤١).

(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

(٣) فتح الباري (١٠/ ٣١٨-٣١٩).

(٤) المفهم (٥/ ٤٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ويكأن: معناه ألم يعلم أن، ألم تر أن، كلمة (وي) للتندم و(كأن) للتعجب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: « ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: الذين لما رأوه في زينته قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ليس المال بدال على رضا اللَّه عن صاحبه؛ فإن اللَّه يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة. . ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا لطف اللَّه بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأنا وددنا أن نكون مثله. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعنون أنه كان كافرا، ولا يفلح الكافرون عند اللَّه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا: (ويكأن) فقال بعضهم: معناه: ويلك اعلم أن، ولكن خفف فقيل: (ويك)، ودل فتح (أن) على حذف اعلم. وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة (ويكأن) والكتابة أمر وضعي اصطلاحي، والمرجع إلى اللفظ العربي، واللَّه أعلم. وقيل: معناها ويكأن أي: ألم تر أن، قاله قتادة. وقيل: معناها وي كأن، ففصلها، وجعل حرف (وي) للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى: أظن وأحتسب. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى: ألم تر أن، واستشهد بقول الشاعر:

سألتاني الطلاق إذ رأتاني قل مالي قد جئتماني بنكر
ويكأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر»[١].

وانظر ابن جرير[٢].

قال السعدي: « ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ليس دليلا على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة»[٣].

قال المكي الناصري: «ولا يكاد عقاب اللّه ينزل بقارون المتبرج المختال، حتى تزول الغشاوة عن أعين الذين كانوا بالأمس القريب يتمنون أن يكونوا مثله، فيعترفون بمنة اللّه عليهم، إذ لم يعاقبهم على ما تمنوه، ولم يخسف بهم وبديارهم كما فعل بقارون، ويقرون بأن سعة الرزق أو ضيقه إنما مردهما إلى حكمة اللّه وتدبيره، ويدركون مشاهدة وعيانا أن من أمن مكر اللّه، وكفر بأنعم اللّه لا تكون عاقبته إلا خذلانا وخسرانا، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وكلمة (وي) في قوله تعالى هنا: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ هي في الأصل كلمة مستقلة ومفصولة عن (كأن) التي جاءت بعدها، وإن كانت في رسم المصحف الكريم متصلة معها اتصال الكلمة الواحدة، وهي كلمة تقال عند التنبه

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٧-٢٦٨).
(٢) جامع البيان (٢٠/ ١٢٠-١٢٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠-٦١).

للخطأ وإظهار التندم، وكتاب اللَّه عندما استعمل كلمة (وي) في هذا المقام أراد أن يبين أن قوم قارون قد تنبهوا إلى خطئهم في تمنيهم، عندما قالوا من قبل: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، وأنهم تندموا على ما فرط منهم من فلتات اللسان، عندما رأوا رأي العين أن مآل الكافرين بأنعم اللَّه هو الخذلان والخسران، وهذا المعنى هو الذي يعبر عنه قوله تعالى أوجز تعبير: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، مصداقا لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[1]»[2].

* * *

(١) إبراهيم الآية (٧).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٥٣-٥٥٤).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق في الأرض، وتجبرا عنه، ولا فسادا: يقول: ولا ظلم الناس بغير حق، وعملا بمعاصي اللَّه فيها.. قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: والجنة للمتقين؛ وهم الذين اتقوا معاصي اللَّه، وأدوا فرائضه»[١].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ التي أخبر اللَّه بها في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نَجْعَلُهَا﴾ دارا وقرارا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله؟! والتكبر عليهم وعلى الحق؟! ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى اللَّه، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد اللَّه، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى اللَّه تعالى، وغيرهم -وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة- فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها حظ»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١-٦٢).

قال القنوجي: «﴿تِلْكَ﴾ التي سمعت بخبرها، وبلغك شأنها ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة، والإشارة إليها القصد التعظيم لها، والتفخيم لشأنها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رفعة وتكبرا على المؤمنين، وقيل: ظلما، وقيل: استطالة على الناس، وتهاونا بهم بالبغي. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: عملا بمعاصي اللَّه سبحانه فيها، كقتل النفس، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، أو دعاء إلى عبادة غير اللَّه. ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما، كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[1] فعلق الوعيد بالركون»[2].

قال المكي الناصري: «بعدما سجل كتاب اللَّه نفاذ حكمه القاهر فوق عباده، في فرعون الطاغية المتجبر، الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعا، واستكبر هو وجنوده في الأرض، حيث نبذه وجنوده في اليم نبذ النواة، كما ورد ذلك في ختام قصة موسى، وبعدما سجل كتاب اللَّه نفاذ حكم اللَّه القاهر فوق عباده في قارون؛ الذي بغى على قومه، وخرج في زينته متبرجا مختالا، حيث خسف به وبداره الأرض، كما ورد ذلك في نهاية قصة قارون، انتقل كتاب اللَّه إلى تقرير حقيقة عامة تشملهما وتشمل كل من سلك مسلكهما، وكان على شاكلتهما من الطغاة المفسدين، وعتاة المترفين، مبينا أن من لم يعمل على إقامة العدل بين الناس، ونشر الصلاح في مجتمعاتهم لن يكون له أدنى حظ من النعيم المقيم في دار الخلود، لأنه خان أمانة الخلافة عن اللَّه في الأرض، وقابل نعمة اللَّه بالكفران والجحود، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وتقوى اللَّه هي الحاجز الحصين من الوقوع في شرك الفساد، وهي الدواء الناجع لعقدة الاستعلاء والاستبداد»[3].

قال شيخ الإسلام: «الناس أربعة أقسام:

القسم الأول: يريدون العلو على الناس والفساد في الأرض؛ وهو معصية اللَّه، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه، وهؤلاء هم شرار الخلق، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ

---

(١) هود الآية (١١٣).

(٢) فتح البيان (١٠/ ١٥٦).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٥٤-٥٥٥).

﴿أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾[(١)] وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. فقال رجل: يارسول اللّه إني أحب أن يكون ثوبي حسنًا، ونعلي حسنًا، أفمن الكبر ذاك؟ قال: لا إن اللّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**». فبطر الحق دفعه وجحده، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم، وهذا حال من يريد العلو والفساد.

والقسم الثاني: الذين يريدون الفساد بلا علو، كالسراق والمجرمين من سفلة الناس.

والقسم الثالث: يريدون العلو بلا فساد، كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.

وأما القسم الرابع: فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾[(٣)] وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٤)].

فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولا، وكم ممن جعل من الأعلين وهو لا يريد العلو ولا الفساد وذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم؛ لأن الناس من جنس واحد، فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحته ظلم، ومع أنه ظلم فالناس يبغضون من يكون كذلك ويعادونه؛ لأن العادل منهم لا يحب ان يكون مقهورا لنظيره، وغير العادل منهم يؤثر أن يكون هو القاهر، ثم إنه مع هذا لا بد له في العقل والدين من أن يكون بعضهم فوق بعض، كما قدمناه، كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾[(٥)] وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ﴾[(٦)] فجاءت الشريعة بصرف

---

(١) القصص: الآية (٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٣٩).
(٣) محمد: الآية (٣٥).
(٤) المنافقون: الآية (٨).
(٥) الأنعام: الآية (١٦٥).
(٦) الزخرف: الآية (٣٢).

السلطان والمال في سبيل الله»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كون التواضع نعمة من نعم اللَّه على عباده وهو خلق الأنبياء والصالحين

* عن عياض بن حمار قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم خطيبًا فقال: «... **وإن اللَّه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[٢].

★ غريب الحديث:

لا يبغي: أي: لا يظلم.

ولا يفخَر: بفتح الخاء. والفخر: ادعاء العظمة والكبرياء والشرف.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «التواضع نقيض التكبر، والتكبر هو الترفع على الغير، فالتواضع هو الانخفاض للغير، وحاصله أن المتكبر يرى لنفسه مزية على الغير تحمله على احتقاره، والمتواضع لا يرى لنفسه مزية، بل: يراها لغيره بحيث يحمله ذلك على الانخفاض له مراعاة لحقه. ولا شك في أن الكبر مذموم، فمنه كفر، وهو الكبر على اللَّه، وعلى أنبيائه، وما عداه من الكبائر. والتواضع أيضًا؛ منه أعلى وأدنى، والأعلى هو التواضع لله تعالى، ولكتابه، ولرسوله. والأدنى هو ما عداه، واللَّه تعالى أعلم»[٣].

قال ابن القيم: «التواضع يتولد من بين العلم باللَّه سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله وتعظيمه، ومحبته، وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها، وعيوب عملها وآفاتها فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع؛ وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩٢-٣٩٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢) دون ذكر موضع الشاهد، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥[٦٤]) وأبو داود (٥/ ٢٠٣/ ٤٨٩٥) وابن ماجه (٢/ ١٣٩٩/ ٤١٧٩).

(٣) المفهم (٧/ ١٤٠-١٤١).

فضلا، ولا يرى له عند أحد حقًا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله. وهذا خلق إنما يعطيه اللَّه ﷻ من يحبه ويكرمه ويقربه.. والتواضع المحمود على نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر اللَّه امتثالا وعند نهيه اجتنابا، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هربا من العبودية، وتثبت عند نهيه طلبا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر اللَّه ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة اللَّه قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس. والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين واللَّه المستعان»[1].

وانظر فوائد أخرى تقدمت في سورة النحل الآية (٢٣).

* عن عبداللَّه بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنا. قال: «**إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[2].

★ غريب الحديث:

الكبر: الكبر والكبرياء في اللغة: هو العظمة. يقال فيه: كَبُرَ الشيء، بضم الباء؛ أي: عَظُم، فهو كبير وكبار، فإذا أفرط قيل: كبّار، بالتشديد.

ذرّة: الذرّة: النمل الأحمر الصغير، واحدتها: ذرّة. وسئل ثعلب عنها فقال: إن مائة نملة وزن حبة، والدرة واحدة منها. وقيل: الذرّة ليس لها وزن، ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة.

---

(١) الروح (ص٢٣٣-٢٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٢، ٤١٦، ٤٥١) ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١) واللفظ له، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه (١/ ٢٢-٢٣/ ٥٩).

الجمال: الجمال لغة هو الحسن. يقال: جَمُلَ الرجلُ يجمُل، بالضم، جمالًا، فهو جميل، والمرأة جميلة.

بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا.

غمط الناس: احتقارهم. يقال في الفعل منه: غَمَطَهُ، بفتح الميم، يَغْمِطه بكسرها، وغَمِطه بكسر الميم، يَغْمَطه، بفتحها.

★ فوائد الحديث:

قد سبق الكلام على فوائده عند قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ الآية (٣٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: « ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: ثواب اللَّه خير من حسنة العبد فكيف واللَّه يضاعفه أضعافا كثيرة، وهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1] وهذا مقام الفصل والعدل»[2].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: من جاء اللَّه يوم القيامة بإخلاص التوحيد فله خير وذلك الخير هو الجنة، والنعيم الدائم، ومن جاء بالسيئة وهي الشرك باللَّه.. وقوله: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يقول: فلا يثاب الذين عملوا السيئات على أعمالهم السيئة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يقول: إلا جزاء ما كانوا يعملون»[3].

قال القنوجي: « ﴿مَن جَآءَ﴾ يوم القيامة متصفا ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ بأن كان من المؤمنين، والحسنة ما يحمد فاعلها شرعا، وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها في القيامة، والمراد الحسنة المقبولة الأصلية المعمولة للعبد أو ما في حكمها، كما لو تصدق عنه غيره، لا المأخوذة في نظير ظلامتهم، كما لو ضرب زيد عمرا ضربة، وكان لزيد حسنات موجودة فيؤخذ منها فيعطى لعمرو، فهذه الحسنة لا تنسب لعمرو، لا حقيقة ولا حكما فلا تضاعف له. وخرج بالمعمولة ما لو هم بحسنة فلم يعملها لمانع، فإنها تكتب له واحدة، ويجازى عليها من غير تضعيف. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وهو أن اللَّه يجازيه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف،

---

(١) النمل الآية (٩٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٩).

(٣) جامع البيان (٢٠/ ١٢٣).

والتضعيف خاص بهذه الأمة، وأما غير هذه الأمة من بقية الأمم فلا تضعيف لهم، والصواب دخول المضاعفة في حسنات العصاة إن كانت على وجه يتناوله القبول بأن يعملها على وجه لا رياء فيه ولا سمعة، وعدم دخولها في أعمال الكفار لأنه لا يجتمع مع الكفر طاعة مقبولة، إن لم يسلم، وإلا فتكون كالمقبولة في الإسلام، ولا تضاعف الحسنات الحاصلة بالتضعيف. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى﴾ معناه فلا يجزون، فوضع ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ موضع الضمير؛ لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررا فضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين، والسيئة هي ما يذم فاعلها شرعا صغيرة كانت أو كبيرة، وسميت سيئة لأن فاعلها يساء بها عند المجازاة عليها ﴿إِلَّآ﴾ مثل ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وحذف المثل، وأقيم مقامه ﴿مَا كَانُواْ﴾ إلخ مبالغة في المماثلة، ومن فضله العظيم أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشرة أمثالها وبسبعمائة»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتمام عدله فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر اللَّه به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق اللَّه تعالى وحق عباده، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾].

هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحله ومكانه، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه نهي تحريم. ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[3]»[4].

قال المكي الناصري: «انتقل كتاب اللَّه إلى الحديث عن سلوك الإنسان في

---

(١) فتح البيان (١٠/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) البقرة الآية (٢٦١).

(٣) الأنعام الآية (١٦٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢-٦٣).

حياته اليومية، وما يقضي فيه وقته من حسنات، تنفع الأفراد والجماعات، وما قد يرتكبه من سيئات لا يستريح ضميره إلا إذا كفر عنها بالحسنات، فبين أن الحق ﷻ الذي يريد الخير لعباده يجزي على الحسنة بخير منها ويضاعف أجرها، وأنه رفقا بهم ونظرا إلى ضعفهم لا يعاقب على السيئة إلا بقدرها، نظرا لأن المؤمن الحق يأنف بطبعه من ممارسات السيئات، ولا تصدر منه السيئة إلا على أنها هفوة من الهفوات، وفلتة من الفلتات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1]، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾[2].

* * *

(١) هود الآية (١١٤).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٥٥-٥٥٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرا رسوله صلوات اللَّه وسلامه عليه ببلاغ الرسالة، وتلاوة القرآن على الناس، ومخبرا له بأنه سيرده إلى معاد؛ وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾[2] وقال: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[3]»[4].

قال القرطبي: «ختم السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ برده إلى مكة قاهرا لأعدائه، قيل: هو بشارة له بالجنة، والأول أكثر، وهو قول جابر بن عبداللَّه وابن عباس ومجاهد وغيرهم. قال القتبي: معاد الرجل بلده، لأنه ينصرف ثم يعود.. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ قال: إلى الموت وعن مجاهد أيضًا وعكرمة والزهري والحسن: إن المعنى لرادك إلى يوم القيامة، وهو اختيار الزجاج يقال: بيني وبينك العاد؛ أي: يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء. و﴿فَرَضَ﴾ معناه: أنزل. وعن مجاهد أيضًا وأبي مالك وأبي صالح: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ إلى الجنة، وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضًا؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء، وقيل: لأن أباه آدم خرج منها»[5].

قال ابن جرير مرجحا: «والصواب من القول في ذلك عندي: قول من قال:

---

(١) الأعراف الآية (٦).

(٢) المائدة الآية (١٠٩).

(٣) الزمر الآية (٦٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٥) جامع أحكام القرآن (١٣/ ٢١٢).

لرادك إلى عادتك من الموت، أو إلى عادتك حيث ولدت، وذلك أن المعاد في هذا الموضع: المفعل من العادة ليس من العود إلا أن يوجه موجه تأويل قوله: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ لمصيرك، فيتوجه حينئذ قوله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى معنى العود، ويكون تأويله: إن الذي فرض عليك القرآن لمصيرك إلى أن تعود إلى مكة مفتوحة لك.

فإن قال قائل: فهذه الوجوه التي وصفت في ذلك قد فهمناها، فما وجه تأويل من تأوله بمعنى: لرادك إلى الجنة؟ قيل: ينبغي أن يكون وجه تأويله ذلك كذلك على هذا الوجه الآخر، وهو لمصيرك إلى أن تعود إلى الجنة.

فإن قال قائل: أوكان أخرج من الجنة فيقال له: نحن نعيدك إليها؟ قيل: لذلك وجهان:

أحدهما: أنه إن كان أبوه آدم صلى اللَّه عليهما أخرج منها فكأن ولده بإخراج اللَّه إياه منها قد أخرجوا منها، فمن دخلها فكأنما يرد إليها بعد الخروج.

والثاني أن يقال: إنه كان ﷺ دخلها ليلة أسري به، كما روي عنه أنه قال: «**دخلت الجنة فرأيت فيها قصرا فقلت لمن هذا؟ فقالوا لعمر بن الخطاب**»[1] ونحو ذلك من الأخبار التي رويت عنه بذلك، ثم رد إلى الأرض، فيقال له: إن الذي فرض عليك القرآن لرادك: لمصيرك إلى الموضع الذي خرجت منه من الجنة إلى أن تعود إليه، فذلك إن شاء اللَّه قول من قال ذلك»[2].

«ووجه الجمع بين هذه الأقوال كلها، -**يقول ابن كثير**-: أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله صلوات اللَّه وسلامه عليه، كما فسره ابن عباس بسورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[3] أنه أجل رسول اللَّه ﷺ نُعِيَ إليه، وكان ذلك بحضرة عمر ابن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك، وقال: «**لا أعلم منها غير الذي تعلم**»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٩) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٢) ومسلم (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٥) وابن ماجه (١/ ٤٠/ ١٠٧) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤١/ ٨١٨٢-٨١٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) جامع البيان (٢٠/ ١٢٦).

(٣) النصر الآيات (١-٣).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٧-٣٣٨) والبخاري (٨/ ٢٤/ ٤٢٩٤) والترمذي (٥/ ٤١٩-٤٢٠/ ٣٣٦٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٥/ ١١٧١١) من حديث ابن عباس ﷺ.

ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه على أدائه رسالة اللّه، وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس، ولأنه أكمل خلق اللّه على الإطلاق، وأفصح خلق اللّه، وأشرف خلق اللّه على الإطلاق»[١].

قال المكي الناصري: «توجه -كتاب الله- بالخطاب في الآيات الأربع الأخيرة من هذه السورة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، يمن عليه بنعمة الوحي الذي آتاه، ويذكره بتعاليم الحنيفية السمحة التي يهتدي بها في الدعوة إلى اللّه، ويأمره بالثبات على الحق والصمود في وجه أعداء اللّه، ويعرفه بأنه مسؤول عن رسالته أمام اللّه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: أن الذي فرض عليك تلقي القرآن، وحفظه وتلاوته، وتبليغه للناس، وتبيينه لهم بما أراك اللّه، والحكم به في شؤونهم الخاصة والعامة، لرادك إليه، وسائلك يوم القيامة عن جهادك في سبيل القرآن، وعن دَور رسالة القرآن، وأثرها في حياة أمة القرآن، وإلى هذا المعنى المناسب للسياق، والمتسق معه أحسن اتساق، ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾[٢] وقوله تعالى في نفس الاتجاه: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣]»[٤].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ربي أعلم من جاء بالهدى الذي من سلكه نجا، ومن هو في جور عن قصد السبيل منا ومنكم. وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يعني أنه يبين للمفكر الفهم إذا تأمله وتدبره أنه ضلال وجور عن الهدى»[٥].

قال المكي الناصري: «وكما قال موسى لفرعون وملئه فيما سبق بإرشاد من ربه: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾[٦] ها هو كتاب اللّه يلقن لنبيه الصادق الأمين نفس الأسلوب الحكيم، ويحضه على أن يتلطف في القول مع من يجادلونه، ويرخي لهم العنان، عسى أن يستدرج إلى الحق من يجادل

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧١).
(٢) الأعراف الآية (٦).
(٣) الزمر الآية (٦٩).
(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٥٦).
(٥) جامع البيان (٢٠/ ١٢٦).
(٦) القصص: الآية (٣٧).

في الحق بغير حجة ولا برهان، وذلك قوله تعالى: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ قال: «**إلى مكة**»[3].

* * *

(١) سبأ الآية (٢٤).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٥٥٦-٥٥٧).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٥٤/ ٤٧٧٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٥/ ١١٣٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

* **غريب الآية:**

ظهيرًا: معينًا ومساعدًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وما كنت ترجو يا محمد أن ينزل عليك هذا القرآن فتعلم الأنباء والأخبار عن الماضين قبلك والحادثة بعدك مما لم يكن بعد مما لم تشهده ولا تشهده ثم تتلو ذلك على قومك من قريش إلا أن ربك رحمك فأنزله عليك فقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: فاحمد ربك على ما أنعم به عليك من رحمته إياك بإنزاله عليك هذا الكتاب، ولا تكونن عونا لمن كفر به. وقيل: إن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وإن معنى اللام: إن الذي فرض عليك القرآن فأنزله عليك وما كنت ترجو أن ينزل عليك فتكون نبيا قبل ذلك لرادك إلى معاد»[1].

قال السعدي: «أي: لم تكن متحريا لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعدا له، ولا متصديا. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه رحمة وفضل من اللَّه، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: معينا لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرتهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٢٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٤).

قال ابن عاشور: « ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ عطف على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الخ باعتبار ما تضمنته من الوعد بالثواب الجزيل أو بالنصر المبين؛ أي: كما حملك تبليغ القرآن فكان ذلك علامة على أنه أعد لك الجزاء بالنصر في الدنيا والآخرة. كذلك إعطاؤه إياك الكتاب عن غير ترقب منك بل بمحض رحمة ربك؛ أي: هو كذلك في أنه علامة لك على أن اللّه لا يترك نصرك على أعدائك فإنه ما اختارك لذلك إلا لأنه أعد لك نصرا مبينا وثوابا جزيلا.

وهذا أيضًا من دلالة الجملة على معنى غير مصرح به بل على معنى تعريضي بدلالة موقع الجملة..

والاستثناء في ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع لأن النبي ﷺ لم يخامر نفسه رجاء أن يبعثه اللّه بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد رحمة من اللّه تعالى به واصطفاء له»[1].

وقال أيضًا: « ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تفريع على جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وما عطف عليها وما تخلل بينهما مما اقتضى جميعه الوعد بنصره وظهور أمره وفوزه في الدنيا والآخرة، وأنه جاء من اللّه إلى قوم هم في ضلال مبين، وأن الذي رحمه فآتاه الكتاب على غير ترقب منه لا يجعل أمره سدى، فأعقب ذلك بتحذيره من أدنى مظاهرة للمشركين، فإن فعل الكون لما وقع في سياق النهي وكان سياق النهي مثل سياق النفي؛ لأن النهي أخو النفي في سائر تصاريف الكلام، كان وقوع فعل الكون في سياقه مفيدا تعميم النهي عن كل كون من أكوان المظاهرة للمشركين.

والظهير: المعين. والمظاهرة: المعونة، وهي مراتب أعلاها النصرة وأدناها المصانعة والتسامح؛ لأن في المصانعة على المرغوب إعانة لراغبه. فلما شمل النهي جميع أكوان المظاهرة لهم اقتضى النهي عن مصانعتهم والتسامح معهم، وهو يستلزم الأمر بضد المظاهرة فيكون كناية عن الأمر بالغلظة عليهم كصريح قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2]. وهذا المعنى يناسب كون هذه الآيات آخر ما نزل قبل

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٤).
(٢) التوبة الآية (٧٣).

الهجرة، وبعد متاركته المشركين ومغادرته البلد الذي يعمرونه .

وقيل النهي للتهييج لإثارة غضب النبي ﷺ عليهم وتقوية داعي شدته معهم . . والمقصود تحذير المسلمين من الركون إلى الكافرين في شيء من شؤون الإسلام، فإن المشركين يحاولون صرف المسلمين عن سماع القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1] »[2].

* * *

(١) فصلت الآية (٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٤-١٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يصدنك: الصد: المنع والصرف. يقال: صَدَّكَ عن الحق إذا صرفك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولا يصرفنك عن تبليغ آيات اللَّه وحججه بعد أن أنزلها إليك ربك يا محمد هؤلاء المشركون بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، وادع إلى ربك، وبلغ رسالته إلى من أرسلك إليه بها ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ولا تتركن الدعاء إلى ربك، وتبليغ المشركين رسالته، فتكون ممن فعل فعل المشركين بمعصيته ربه، وخلافه أمره»[1].

قال السعدي: «﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعنك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارفضه من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي»[2].

قال ابن عاشور: «المعنى: أن اللَّه قد ضمن لرسوله صرف المشركين عن أن يصدوه عن آيات اللَّه، وذلك إذ حال بينه وبينهم بأن أمره بالهجرة، ويسرها له وللمسلمين معه.

والتقييد بالبعدية في قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ لتعليل النهي أياما كان المراد

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٤-٦٥).

منه، أي يجوز أن يصدوك عن آيات اللّه بعد إذ أنزلها إليك فإنه ما أنزلها إليك إلا للأخذ بها ودوام تلاوتها، فلو فرض أن يصدوك عنها لذهب إنزالها إليك بطلا وعبثا كقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾[١].

والأمر في قوله: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى اللّه لا إلى إيجاد الدعوة لأن ذلك حاصل، أي لا يصرفك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إعذارا لهم.

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملا في الأكمل من أنواعه، أي أنك بعد الخروج من مكة أشد تمكنا في الدعوة إلى اللّه مما كنت من قبل؛ لأن تشغيب المشركين عليه كان يرنق[٢] صفاء تفرغه للدعوة»[٣].

* * *

(١) البقرة الآية (٢١٣).

(٢) من رنق الماء: أي كدر.

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولا تعبد يا محمد مع معبودك، الذي له عبادة كل شيء، معبودا آخر سواه، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا معبود تصلح له العبادة إلا الله»[1].

قال السعدي: «﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد إلا اللّه الكامل الباقي»[2].

قال الرازي: «﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهذا وإن كان واجبا على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصا لأجل التعظيم، فإن قيل الرسول كان معلوما منه أن لا يفعل شيئًا من ذلك ألبتة، فما فائدة هذا النهي؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير اللّه، ولا تتخذ غيره وكيلا في أمورك، فإن من وثق بغير اللّه تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٢٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٥).
(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٢٣).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[1] والوجه من الصفات التي يجب الإيمان بها، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في: ألا كل شيء ما خلا اللّٰه باطل

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا اللّٰه باطل. وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسْلِم**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ الاستدلال بهذه الآية للمطلوب ينبني على أن الاستثناء فيها متصل، فإنه يقتضي اندراج المستثنى في المستثنى منه، وهو الراجح، على أن لفظ (شيء) يطلق على اللّٰه تعالى، وهو الراجح أيضًا»[4].

قال الإمام عبدالعزيز بن يحيى المكي: «إن اللّٰه عز وجل أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه، فلم يتسمّ بـ(الشيء)، ولم يجعل (الشيء) اسمًا من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه أكبر الأشياء إثباتًا للوجود، ونفيًا للعدم، وتكذيبًا منه للزنادقة والدهرية ومن تقدمهم ممن جحد معرفته، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم، فقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[5]، فدل على نفسه أنه شيء

---

(١) الرحمن: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٥٦-٤٥٧).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٨) والبخاري (٧/ ١٨٨/ ٣٨٤١) ومسلم (٤/ ١٧٦٨/ ٢٢٥٦) والترمذي (٥/ ١٢٨/ ٢٨٤٩) وابن ماجه (٢/ ١٢٣٦/ ٣٧٥٧).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٤٩٦).
(٥) الأنعام الآية (١٩).

لا كالأشياء، وأنزل في ذلك خبرًا خاصًا مفردًا لعلمه السابق أن جهمًا وبشرًا ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه، ويشبهون على خلقه، ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة، فقال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١]، فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر، تكذيبًا لمن ألحد في كتابه وافترى عليه، وشبهه بخلقه. وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[٢]، ثم عدّد أسماءه في كتابه، فلم يتسمّ بـ(الشيء)، ولم يجعل (الشيء) اسمًا من أسمائه. ثم قال النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»[٣]، ثم عدّدها، فلم نجده جعل (الشيء) اسمًا له ﷻ. فقلت كما قال اللَّه، وتأدبت بما أدبني اللَّه به، ثم ذكر ﷻ كلامه، كما ذكر نفسه، ودل عليه بمثل ما دل به على نفسه، ليعلم الخلق أنه من ذاته، وأنه صفة من صفاته، فقال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٤] فذم اللَّه ﷻ اليهود حين نفوا أن تكون التوراة شيئًا، وذلك أن رجلًا من المسلمين ناظر رجلًا من اليهود بالمدينة، فجعل المسلم يحتج على اليهودي من التوراة بما علم من صفة النبي ﷺ، وذكر نبوته فيها، حتى أثبت نبوته ﷺ من التوراة، فضحك اليهودي، وقال: ما أنزل اللَّه على بشر من شيء، فأنزل اللَّه ﷻ تكذيبه، وذم قوله، وأعظم فريته حين جحد أن يكون كلام اللَّه شيئًا، ودل بذلك على أن كلامه شيء لا كالأشياء كما دل على نفسه بأنه شيء ليس كالأشياء، ثم قال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾[٥]، فدل بهذا الكلام أيضًا على أن الوحي شيء بالمعنى، وذم من جحد أن كلامه شيء، فلما أظهر اللَّه ﷻ كلامه لم يظهره باسم (الشيء)، فيلحد الملحدون في ذلك، ويدخلونه في جملة الأشياء، ولكنه أظهره ﷻ باسم (الكتاب)، و(النور)، و(الهدى)، ولم يقل: (قل من أنزل الشيء الذي

---

(١) الشورى الآية (١١).
(٢) الأعراف الآية (١٨٠).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧) والبخاري (٥/ ٤٤٤-٤٤٥/ ٢٧٣٦) ومسلم (٤/ ٢٠٦٢/ ٢٦٧٧) والترمذي (٥/ ٤٩٦/ ٣٥٠٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٣/ ٧٦٥٩) وابن ماجه (٢/ ١٢٦٩/ ٣٨٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) الأنعام الآية (٩١).
(٥) الأنعام الآية (٩٣).

جاء به موسى))»[١].

ونقل الحافظ عن ابن بطال أن الآيات والآثار المذكورة في هذا الباب ترد على من زعم أنه لا يجوز أن يطلق على اللّه تعالى أنه شيء كما صرح به عبداللّه الناشئ المتكلم وغيره، كما ترد على من زعم أن المعدوم شيء، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ (شيء) يقتضي إثبات موجود، وعلى أن لفظ (لا شيء) يقتضي نفي موجود، إلا ما تقدم من إطلاقهم (ليس بشيء) في الذم[٢].

وقد تقدم المبحث في (شيء) في سورة الأنعام الآية (١٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الوجه لله جل ثناؤه

* عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾. قال رسول اللّه ﷺ: «**أعوذ بوجهك. قال:** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾. قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[٣]. قال رسول اللّه ﷺ: هذا أهون أو هذا أيسر»[٤].

* عن أبي موسى قال: قام فينا رسول اللّه ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إن اللّه تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، ولكنه يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٥].

* عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن**»[٦].

---

(١) الحيدة (ص٣١ - ٣٤). (٢) فتح الباري (١٣/ ٤٩٦). (٣) الأنعام: الآية (٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٩) والبخاري (١٣/ ٤٧٩/ ٧٤٠٩) والترمذي (٥/ ٢٤٤/ ٣٠٦٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٠/ ١١١٦٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٥) ومسلم (١/ ١٦١-١٦٢/ ١٧٩) وابن ماجه (١/ ٧٠/ ١٩٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١١) والبخاري (١٣/ ٥٢٠/ ٧٤٤٤) ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨٠) والترمذي (٤/ ٥٨١/ ٢٥٢٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣/ ١١٤٤١) وابن ماجه (١/ ٦٦-٦٧/ ١٨٦).

★ **غريب الحديث:**

سبحات: بهاؤه وعظمته وجلاله ونوره.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن خزيمة: «باب ذكر إثبات وجه الله الذي وصفه بالجلال والإكرام في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(١)، ونفى عنه الهلاك إذا أهلك الله ما قد قضى عليه الهلاك مما قد خلقه الله للفناء لا للبقاء، جل ربنا، عن أن يهلك شيء منه مما هو من صفات ذاته، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٢) وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(٣) فأثبت الله لنفسه وجها وصفه بالجلال والإكرام، وحكم لوجهه بالبقاء، ونفى الهلاك عنه فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن، والعراق والشام ومصر، مذهبنا: أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عز ربنا عن أن يشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين، وعز أن يكون عدما كما قاله المبطلون، لأن ما لا صفة له عدم، تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ قال الله جل ذكره في سورة الروم: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾(٤)، وقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾(٥) وقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾(٦)..

ثم ذكر أحاديث بسنده تثبت صفة الوجه لله تعالى- ثم قال: أقول وبالله توفيقي، وإياه استرشد: قد بين الله ﷻ في محكم تنزيله الذي هو مثبت بين الدفتين أن له وجها، وصفه بالجلال والإكرام والبقاء، فقال -جل وعلا-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ

---

(١) الرحمن الآية (٢٧).
(٢) الكهف الآية (٢٨).
(٣) البقرة الآية (١١٥).
(٤) الروم الآيتان (٣٨و٣٩).
(٥) الإنسان الآية (٩).
(٦) الليل الآيتان (١٩و٢٠).

ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾، ونفى ربنا -جل وعلا- عن وجهه الهلاك في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. وزعم بعض جهلة الجهمية أن اللَّه ﷻ إنما وصف في هذه الآية نفسه، التي أضاف إليها الجلال، بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] وزعمت أن الرب هو: ذو الجلال والإكرام، لا الوجه.

قال أبو بكر: أقول وباللَّه توفيقي: هذه دعوى، يدعيها جاهل بلغة العرب، لأن اللَّه ﷻ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ فذكر (الوجه) مضموما في هذا الموضع، مرفوعا، وذكر (الرب) بخفض الباء بإضافة (الوجه)، ولو كان قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ مردودا إلى ذكر (الرب) في هذا الموضوع لكانت القراءة: (ذي الجلال والإكرام) مخفوضا، كما كان الباء مخفوضا في ذكر (الرب) -جل وعلا- ألم تسمع قوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾، فلما كان (الجلال والإكرام) في هذه الآية صفة للرب، خفض (ذي) خفض الباء الذي ذكر في قوله: (ربك)، ولما كان (الوجه) في تلك الآية مرفوعة، التي كانت صفة الوجه مرفوعة، فقال: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، فتفهموا ياذوي الحجا هذا البيان، الذي هو مفهوم في خطاب العرب، ولا تغالطوا فتتركوا سواء السبيل، وفي هاتين الآيتين دلالة أن وجه اللَّه صفة من صفات اللَّه، صفات الذات، لا أن وجه اللَّه هو: اللَّه، ولا أن وجهه غيره، كما زعمت المعطلة الجهمية، لأن وجه اللَّه لو كان اللَّه لقرئ: (ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام) فما لمن لا يفهم هذا القدر من العربية، ووضع الكتب على علماء أهل الآثار القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وزعمت الجهمية عليهم لعائن اللَّه أن أهل السنة ومتبعي الآثار، القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، المثبتين لله ﷻ من صفاته ما وصف اللَّه به نفسه في محكم تنزيله المثبت بين الدفتين وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ بنقل العدل عن العدل موصولا إليه مشبهة، جهلا منهم بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، وقلة معرفتهم بلغة العرب؛ الذين بلغتهم خوطبنا، وقد ذكرنا من الكتاب والسنة في ذكر وجه ربنا بما فيه الغنية والكفاية، ونزيده شرحا، فاسمعوا الآن أيها العقلاء ما نذكر من جنس اللغة السائرة بين العرب، هل يقع اسم المشبهة على أهل الآثار ومتبعي السنن؟ نحن نقول:

---

(١) الرحمن الآية (٧٨).

وعلماؤنا جميعًا في جميع الأقطار: إن لمعبودنا ﷻ وجها كما أعلمنا اللَّه في محكم تنزيله، فذواه بالجلال والإكرام، وحكم له بالبقاء، ونفى عنه الهلاك، ونقول: إن لوجه ربنا ﷻ من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره، محجوب عن أبصار أهل الدنيا، لا يراه بشر ما دام في الدنيا الفانية، ونقول: إن وجه ربنا القديم لا يزال باقيا، فنفى عنه الهلاك والفناء، ونقول: إن لبني آدم وجوها كتب اللَّه عليها الهلاك، ونفى عنها الجلال والإكرام غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء التي وصف اللَّه بها وجهه، تدرك وجوه بني آدم أبصار أهل الدنيا، لا تحرق لأحد شعرة فما فوقها، لنفي السبحات عنها، التي بينها نبينا المصطفى ﷺ لوجه خالقنا، ونقول: إن وجوه بني آدم محدثة مخلوقة، لم تكن، فكونها اللَّه بعد أن لم تكن مخلوقة، أوجدها بعد ما كانت عدما، وإن جميع وجوه بني آدم فانية غير باقية، تصير جميعًا ميتًا، ثم تصير رميمًا، ثم ينشئها اللَّه بعد ما قد صارت رميما، فتلقى من النشور والحشر والوقوف بين يدي خالقها في القيامة، ومن المحاسبة بما قدمت يداه وكسبه في الدنيا ما لا يعلم صفته غير الخالق البارئ، ثم تصير إما إلى جنة منعمة فيها، أو إلى النار معذبة فيها، فهل يخطر يا ذوي الحجا ببال عاقل مركب فيه العقل، يفهم لغة العرب، ويعرف خطابها، ويعلم التشبيه، أن هذا الوجه شبيه بذاك الوجه؟ وهل هاهنا أيها العقلاء، تشبيه وجه ربنا جل ثناؤه الذي هو كما وصفنا وبينا صفته من الكتاب والسنة بتشبيه وجوه بني آدم، التي ذكرناها ووصفناها؟ غير اتفاق اسم الوجه، وإيقاع اسم الوجه على وجه بني آدم، كما سمى اللَّه وجهه وجها، ولو كان تشبيها من علمائنا لكان كل قائل: أن لبني آدم وجها، وللخنازير، والقردة، والكلاب، والسباع، والحمير، والبغال، والحيات، والعقارب، وجوها، قد شبه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير، والقردة، والكلاب، وغيرها مما ذكرت. ولست أحسب أن أعقل الجهمية المعطلة عند نفسه، لو قال له أكرم الناس عليه: وجهك يشبه وجه الخنزير والقرد، والدب، والكلب، والحمار، والبغل ونحو هذا إلا غضب، لأنه خرج من سوء الأدب في الفحش في المنطق من الشتم للمشبه وجهه بوجه ما ذكرنا، ولعله بعد يقذفه، ويقذف أبويه. ولست أحسب أن عاقلا يسمع هذا القائل المشبه وجه ابن آدم بوجوه ما ذكرنا إلا ويرميه بالكذب، والزور، والبهت أو بالعته، والخبل، أو يحكم عليه

بزوال العقل، ورفع القلم، لتشبيه وجه ابن آدم بوجوه ما ذكرنا . فتفكروا يا ذوي الألباب، أوجوه ما ذكرنا أقرب شبها بوجوه بني آدم، أو وجه خالقنا بوجوه بني آدم؟ فإذا لم تطلق العرب تشبيه وجوه بني آدم بوجوه ما ذكرنا من السباع، واسم الوجه قد يقع على جميع وجوهها كما يقع اسم الوجه على وجوه بني آدم، فكيف يلزم أن يقال لنا : أنتم مشبهة؟ ووجوه بني آدم ووجوه ما ذكرنا من السباع والبهائم محدثة، كلها مخلوقة، قد قضى اللَّه فناءها وهلاكها وقد كانت عدما ، فكوَّنها اللَّه وخلقها وأحدثها ، وجميع ما ذكرناه من السباع والبهائم لوجوهها أبصار، وخدود، وجباه، وأنوف، وألسنة، وأفواه، وأسنان، وشفاه، ولا يقول مركب فيه العقل لأحد من بني آدم: وجهك شبيه بوجه الخنزير، ولا عينك شبيه بعين قرد، ولا فمك فم دب، ولا شفتاك كشفتي كلب، ولا خدك خد ذئب إلا على المشاتمة، كما يرمي الرامي الإنسان بما ليس فيه. فإذا كان ما ذكرنا على ما وصفنا ثبت عند العقلاء وأهل التمييز، أن من رمى أهل الآثار القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ بالتشبيه فقد قال الباطل والكذب، والزور والبهتان، وخالف الكتاب والسنة، وخرج من لسان العرب.

وزعمت المعطلة من الجهمية: أن معنى الوجه الذي ذكر اللَّه في الآي: التي تلونا من كتاب اللَّه، وفي الأخبار التي روينا عن النبي ﷺ كما تقول العرب: وجه الكلام، ووجه الدار، فزعمت لجهلها بالعلم أن معنى قوله: وجه الله: كقول العرب: وجه الكلام، ووجه الثوب، ووجه الدار، ووجه الثوب، وزعمت أن الوجوه من صفات المخلوقين. وهذه فضيحة في الدعوى، ووقوع في أقبح ما زعموا أنهم يهربون منه، فيقال لهم: أفليس كلام بني آدم والثياب والدور مخلوقة؟ ، فمن زعم منكم أن معنى قوله: وجه الله: كقول العرب: وجه الكلام، ووجه الثوب، ووجه الدار، أليس قد شبه -على أصلكم- وجه اللَّه بوجه الموتان؟ لزعمكم -يا جهلة- أن من قال من أهل السنة والآثار، القائلين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ لله وجه وعينان، ونفس، وأن اللَّه يبصر ويرى ويسمع: أنه مشبه عندكم خالقه بالمخلوقين، حاشا لله أن يكون أحد من أهل السنة والأثر شبه خالقه بأحد من المخلوقين.

فإذا كان على ما زعمتم بجهلكم، فأنتم شبهتم معبودكم بالموتان. نحن نثبت

لخالقنا -جل وعلا- صفاته التي وصف الله ﷻ بها نفسه في محكم تنزيله، أو على لسان نبيه المصطفى ﷺ مما ثبت بنقل العدل عن العدل موصولا إليه، ونقول كلاما مفهوما موزونا يفهمه كل عاقل، نقول: ليس إيقاع اسم الوجه للخالق البارئ بموجب عند ذوي الحجا والنهى أنه يشبه وجه الخالق بوجوه بني آدم، قد أعلمنا الله -جل وعلا- في الآي التي تلوناها قبل أن لله وجها، ذواه بالجلال والإكرام، ونفى الهلاك عنه»[١].

قال ابن القيم: «وجه الرب ﷻ حيث ورد في الكتاب والسنة فليس بمجاز بل على حقيقته، واختلف المعطلون في جهة التجوز في هذا، فقالت طائفة: لفظ الوجه زائدا، والتقدير: ويبقى ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلى، ويريدون ربهم.

وقالت فرقة أخرى منهم: الوجه بمعنى الذات، وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه.

وقال فرقة: ثوابه وجزاؤه. فجعله هؤلاء مخلوقا منفصلا. قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب.

وهذه أقوال نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها..

ثم أبطل القول بأن لفظ الوجه مجاز من ست وعشرين وجها، فقال في الوجه الخامس عشر: إن من تدبر سياق الآيات والأحاديث والآثار التي فيها ذكر وجه الله الأعلى ذي الجلال والإكرام قطع ببطلان قول من حملها على المجاز، وأنه الثواب والجزاء، لو كان اللفظ صالحا في ذلك لغة، فكيف واللفظ لا يصلح لذلك لغة، فمنها قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٢] وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[٣].

الوجه السادس عشر: إن الصحابة ﷺ والتابعين وجميع أهل السنة والحديث والأئمة الأربعة، وأهل الاستقامة من أتباعهم متفقون على أن المؤمنين يرون وجه ربهم في الجنة، وهي الزيادة التي فسر بها النبي ﷺ والصحابة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ

---

(١) كتاب التوحيد (١/ ٢٤-٥٧).

(٢) الرحمن الآية (٢٧).

(٣) الليل الآيتان (١٩و٢٠).

وَزِيَادَةٌ﴾[١] فروى مسلم في صحيحه بإسناده عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «**النظر إلى وجه اللَّه تعالى**»[٢]. فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة، ولا سيما إذا أنكر الوجه والعلو، فيعود النظر عنده إلى خيال مجرد، وإن أحسن العبارة قال: هو معنى يقوم بالقلب نسبته إليه كنسبة النظر إلى العين، وليس في الحقيقة عنده ولا نظر ولا وجه ولا لذة تحصل للناظر.

الوجه السابع عشر: أن الوجه حيث ورد فإنما ورد مضافا إلى الذات في جميع موارده والمضاف إلى الرب تعالى نوعان:

أعيان قائمة بنفسها كبيت اللَّه وناقة اللَّه وروح اللَّه وعباد اللَّه ورسول اللَّه، فهذا إضافة تشريف وتخصيص وهي إضافة مملوك إلى مالكه.

الثاني: صفات لا تقوم بنفسها كعلم اللَّه وحياته وقدرته وعزته وسمعه وبصره ونوره وكلامه، فهذه إذا وردت مضافة إليه فهي إضافة إلى الموصوف بها.

إذا عرف ذلك بوجهه الكريم وسمعه وبصره إذا أضيف إليه وجب أن تكون إضافته إضافة وصف لا إضافة خلق، وهذه الإضافة تنفي أن يكون الوجه مخلوقا وأن يكون حشوا في الكلام، وفي سنن أبي داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «**أعوذ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**»[٣] فتأمل كيف قرن في الاستعاذة بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم وهذا صريح في إبطال قول من قال إنه الذات نفسها وقول من قال مخلوق»[٤].

قال ابن عثيمين: «ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أي شيخ الإسلام- لإثبات صفة الوجه لله تعالى آيتين:

الآية الأولى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٥].

وهذه معطوفة على قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ولهذا قال

---

(١) يونس الآية (٢٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣) ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١) والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦١-٣٦٢/ ١١٢٣٤) وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) أبو داود (١/ ٣١٨/ ٤٦٦) انظر صحيح أبي داود (٢/ ٣٦٤/ ٤٨٥).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة (٣٨٦-٣٩٢).

(٥) الرحمن الآية (٢٧).

بعض السلف: ينبغي إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ أن تصلها بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق، وذلك للتقابل هذا فناء وهذا بقاء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾. قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي لا يفنى. والوجه معناه معلوم لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه اللَّه ﷻ، كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجها موصوفا بالجلال والإكرام، وموصوفا بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

سبحات وجهه يعني بهاؤه وعظمته وجلاله ونوره.

ما انتهى إليه بصره من خلقه: وبصره ينتهي إلى كل شيء وعليه فلو كشف هذا الحجاب حجاب النور عن وجهه لاحترق كل شيء.

لهذا نقول: هذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبدا أن يماثل أوجه المخلوقات. وبناء على هذا نقول: من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجها حقيقة، ونأخذه من قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] ونجهل كيفية هذا الوجه لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[2].

فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو أن يتحدث عنها بلسانه، قلنا: إنك مبتدع ضال، قائل على اللَّه ما لا تعلم، وقد حرم اللَّه علينا أن نقول عليه ما لا نعلم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾[4].

وهنا قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ وهذه الربوبية أخص ما يكون من أنواع الربوبية لأن الربوبية عامة وخاصة، والخاصة أخص وخاصة فوق

---

(١) الشورى الآية (١١).
(٢) طه الآية (١١٠).
(٣) الأعراف الآية (٣٣).
(٤) الإسراء الآية (٣٦).

ذلك كربوبية اللَّه تعالى لرسله فالربوبية أفضل بلا شك.

وقوله: ﴿ذُو﴾ صفة لوجه والدليل الرفع، ولو كانت صفة للرب لقال (ذي الجلال) كما قال في نفس السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾[1] فلما قال: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ علمنا أنه وصف للوجه.

﴿الْجَلَالِ﴾ معناه العظمة والسلطان.

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ هي مصدر من أكرم صالحة للمكرم والمكرم، فاللَّه ﷻ مكرم وإكرامه تعالى القيام بطاعته، ومكرم لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعد لهم من الثواب.

فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمته أهل لأن يكرم ويثنى عليه ﷻ وإكرام كل أحد بحسبه، فإكرام اللَّه ﷻ أن تقدره حق قدره، وأن تعظمه حق تعظيمه، لا لاحتياجه إلى إكرامك، ولكن ليمن عليك بالجزاء.

الآية الثانية: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ أي فان كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ وقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ توازي قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾. فالمعنى كل شيء فان وزائل إلا وجه اللَّه ﷻ فإنه باق ولهذا قال: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فهو الحكم الباقي الذي يرجع إليه الناس ليحكم بينهم. وقيل في معنى الآية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي إلا ما أريد به وجهه. قالوا: لأن سياق الآية يدل على ذلك: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ كأنه يقول: لا تدع مع اللَّه إلها آخر فتشرك به، لأن عملك وإشراكك هالك، أي ضائع سدى، إلا ما أخلصته لوجه اللَّه، فإنه يبقى لأن العمل الصالح له ثواب باق لا يفنى في جنات النعيم. ولكن المعنى الأول أسد وأقوى.

وعلى طريقة من يقول بجواز استعمال المشترك في معنييه نقول: يمكن أن نحمل الآية على المعنيين، إذ لا منافاة بينهما فتحمل على هذا وهذا فيقال: كل شيء يفنى إلا وجه اللَّه ﷻ وكل شيء من الأعمال يذهب هباء إلا ما أريد به وجه اللَّه.

---

(١) الرحمن الآية (٧٨).

وعلى أي التقديرين ففي الآية دليل على ثبوت الوجه لله ﷻ. وهو من الصفات الذاتية الخبرية التي مسماها بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء، ولا نقول: من الصفات الذاتية المعنوية، ولو قلنا بذلك لكنا نوافق من تأوله تحريفا، ولا نقول: إنها بعض من اللَّه أو جزء من اللَّه لأن ذلك يوهم نقصا لله ﷻ. هذا وقد فسر أهل التحريف وجه اللَّه بثوابه فقالوا: المراد بالوجه في الآية الثواب كل شيء يفنى إلا ثواب اللَّه.

ففسروا الوجه الذي هو صفة كمال فسروه بشيء مخلوق بائن عن اللَّه قابل للعدم والوجود، فالثواب حادث بعد أن لم يكن، وجائز أن يرتفع، لولا وعد اللَّه ببقائه لكان من حيث العقل جائزا أن يرتفع أعني الثواب.

فهل تقولون الآن: صار من باب الممكن الذي يجوز وجوده وعدمه.

وقولهم: مردود بما يلي:

أولا: أنه مخالف لظاهر اللفظ، فإن ظاهر اللفظ أن هذا وجه خاص، وليس هو الثواب.

ثانيا: أنه مخالف لإجماع السلف، فما من السلف أحد قال: إن المراد بالوجه الثواب، وهذه كتبهم بين أيدينا مزبورة محفوظة، أخرجوا لنا نصا عن الصحابة أو عن أئمة التابعين ومن تبعهم بإحسان أنهم فسروا هذا التفسير، لن تجدوا إلى ذلك سبيلا أبدا.

ثالثا: هل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة: ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ لا يمكن. لو قلنا مثلا جزاء المتقين ذو جلال وإكرام فهذا لا يجوز أبدا، واللَّه تعالى وصف هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام.

رابعا: نقول: ما تقولون في قول الرسول ﷺ: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**». فهل الثواب له هذا النور الذي يحرق ما انتهى إليه بصر اللَّه من الخلق؟! أبدا ولا يمكن.

وبهذا عرفنا بطلان قولهم، وأن الواجب علينا أن نفسر هذا الوجه بما أراده اللَّه به، وهو وجه قائم به تبارك وتعالى موصوف بالجلال والإكرام.

فإن قلت: هل كل ما جاء من كلمة الوجه مضافا إلى اللَّه يراد به وجه اللَّه الذي هو صفته؟

فالجواب: هذا هو الأصل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1] ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[2].. وما أشبهها من الآيات.

فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلى اللَّه وجه اللَّه ﷻ الذي هو صفة من صفاته، لكن هناك كلمة اختلف المفسرون فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[3]: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ يعني إلى أي مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة. ﴿فَثَمَّ﴾ أي فهنالك وجه اللَّه.

فمنهم من قال: عن الوجه بمعنى الجهة لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾[4] فالمراد بالوجه الجهة، أي فثم جهة اللَّه، أي فثم الجهة التي يقبل اللَّه صلاتكم إليها.

قالوا: لأنها نزلت في حال السفر، إذا صلى الإنسان النافلة، فإنه يصلي حيث كان وجهه، أو إذا اشتبهت القبلة، فإنه يتحرى ويصلي حيث كان وجهه. ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه اللَّه الحقيقي أي إلى أي جهة تتوجهون فثم وجه اللَّه ﷻ لأن اللَّه محيط بكل شيء ولأنه ثبت عن النبي ﷺ أن المصلي إذا قام يصلي فإن اللَّه قبل وجهه[5]، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه لأن اللَّه قبل وجهه.

فإذا صليت في مكان لا تدري أين القبلة، واجتهدت وتحريت وصليت وصارت القبلة في الواقع خلفك، فاللَّه يكون قبل وجهك حتى في هذه الحال. وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية.

والمعنى الأول لا يخالفه في الواقع. إذا قلنا فثم جهة اللَّه، وكان هناك دليل سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية في الوجه الثاني، أو كان الدليل ما جاءت به السنة فإنك إذا توجهت إلى اللَّه في صلاتك، فهي جهة اللَّه التي يقبل اللَّه صلاتك إليها، فثم وجه اللَّه حقًّا، وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان.

واعلم أن هذا الوجه العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن

---

(١) الأنعام الآية (٥٢). (٢) الليل: الآيات (١٩-٢١).

(٣) البقرة الآية (١١٥). (٤) البقرة الآية (١٤٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢) والبخاري (١/ ٦٧٠/ ٤٠٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٨/ ٥٤٧) وأبو داود (١/ ٣٢٣/ ٤٧٩) والنسائي (٢/ ٣٨٣/ ٧٢٣) وابن ماجه (١/ ٢٥١/ ٧٦٣) من حديث ابن عمر ﷺ بلفظ: «**إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه، فإن اللَّه قبل وجهه إذا صلى**».

الإحاطة به وصفا، ولا يمكن الإحاطة به تصورا، بل كل شيء تقدره فإن اللَّه تعالى فوق ذلك وأعظم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1].

فإن قيل: ما المراد بالوجه في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إن قلت: المراد بالوجه الذات، فيخشى أن تكون حرفت. وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضًا، وقعت في محظور وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون اللَّه حق قدره، حيث قالوا: إن اللَّه يفنى إلا وجهه فماذا تصنع؟!

فالجواب إن أردت بقولك: إلا ذاته، يعني أن اللَّه تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله، فهذا صحيح ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه.

وإن أردت بقولك: الذات: أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه، فهذا تحريف وغير مقبول.

وعليه فنقول: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي إلا ذاته المتصفة بالوجه، وهذا ليس فيه شيء، لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون: إن المراد بالوجه الذات، ولا وجه له، ونحن نقول: المراد بالوجه الذات، لأن له وجها، فعبر به عن الذات»[2].

* * *

(١) طه الآية (١١٠).

(٢) شرح الواسطية (٨/ ٢٣٦-٢٤٣).

فهرس الموضوعات

سورة النمل

سورة القصص

* * *